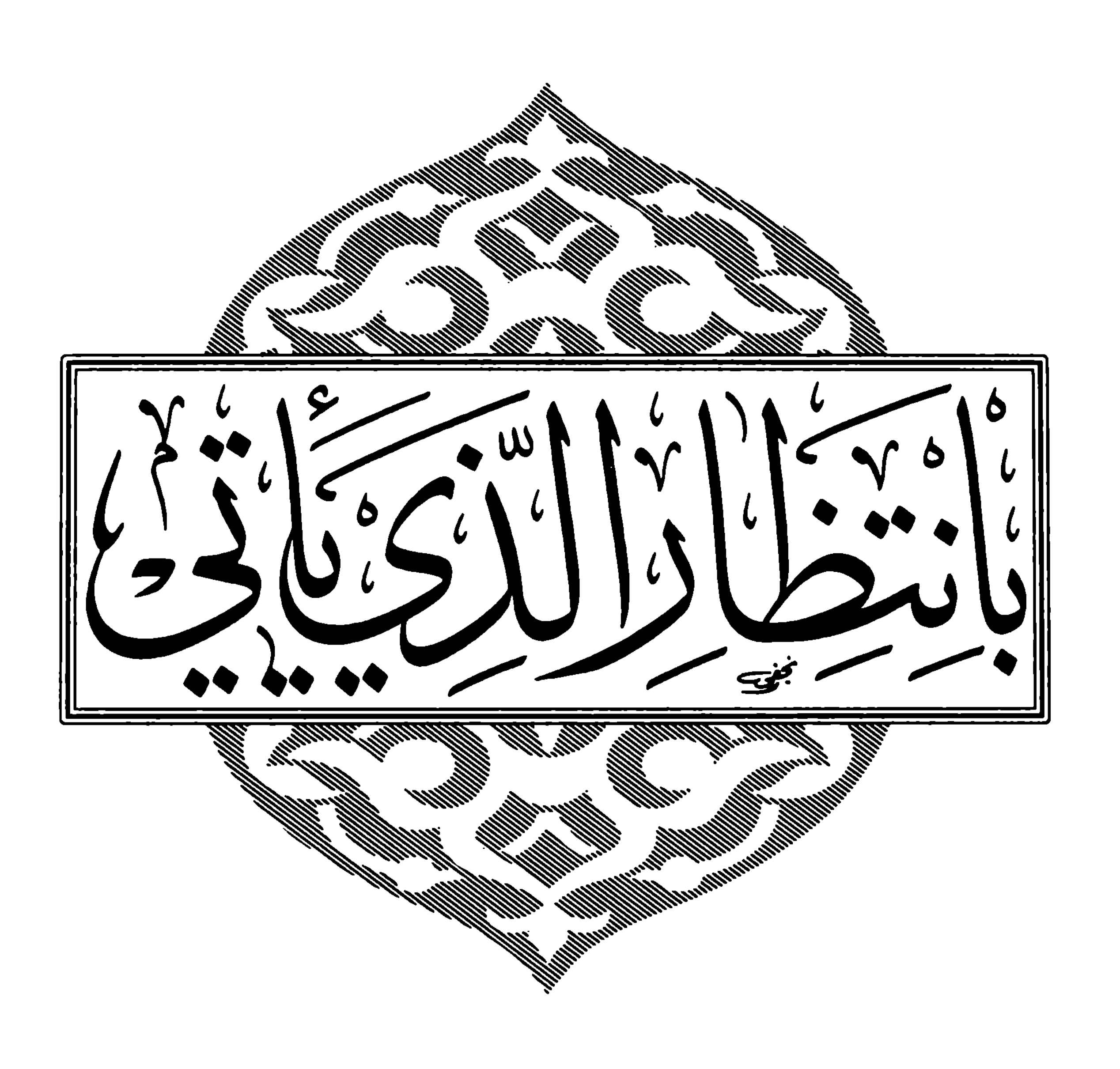
بانتظار الذي يأتي

كمال السيد

مكتبة فدك


بانتظار الذي يأتي



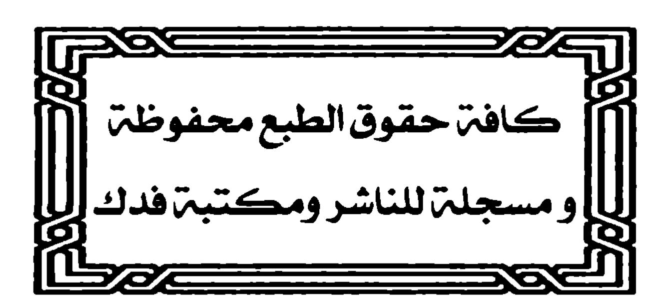
تأليف

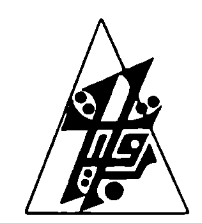
كمال السيد

مكتبة فدك

بانتظار الذي يأتي

كمال السيد



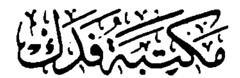


- الناشر: باقيات
- الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
- المطبعة: وفا
- الطبعة: الأولى
- تاريخ الطبع: ٢٠٠٨ م – ١٤٢٩ هـ . ق
- القطع وعدد الصفحات: وزيري ـ ٢٥٦ صفحة

شابك: ٩٧٨-٦٠٠-٥١٢٦-١٢-٩

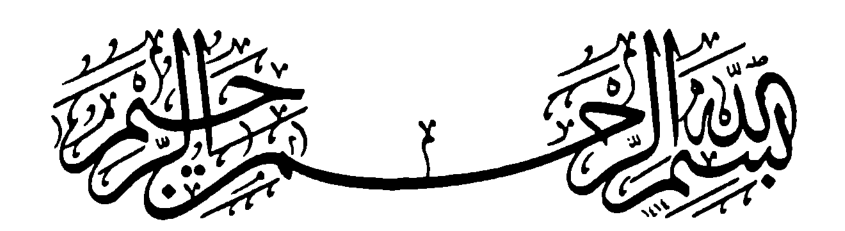
عنوان الناشر: ايران ـ قم ـ شارع معلم ـ رقم ٤٤ ـ تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع: ايران ـ قم ـ مجمع الإمام المهدي (عج) ـ الطابق الأرضي
رقم ١١٧، ١١٦ ـ تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤




بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر



الحمد لله ربّ العالمين ،

والصلاة والسلام على سيّدنا ونبيّنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين

أمّا بعد

تشكّل قضيّة الإمام المهدي عليه السلام المنتظر ركناً أساسيّاً في الفكر الإمامي ، وإنّ أتباع مذهب أهل البيت : يقرأون الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾[1] في أنّها إشارة صريحة إلى ظهور الإمام المهدي عليه السلام في آخر الزمان ، وهو الذي سيحقّق حلم الأنبياء في إقامة العدل والسلام .

وفي عهده سيعمّ الخصب والأمن وتحصل وفرة اقتصاديّة ، وسيكون عهده نهاية خضراء لمسيرة الإنسانيّة وبحثها عن الخصب والعدل والأمن . إنّ مجيء المخلّص والقائد المنتظر فكرة يؤمن بها اليوم ملايين الناس إن لم نقل مليارات البشر ، فلقد أضحى العالم في العصر الراهن أكثر قسوة وأكثر وحشيّة ممّا كان عليه في عصور الظلام ، وإذا كانت فكرة المخلّص لدى الأكثريّة الساحقة من البشر مجرّد حلم وردي

---

(١) القصص : ٥ .

وأمل ، فإنّها لدى أتباع المذهب الإمامي مشروع حضاري ، ذلك أنّ الإمام المهدي (عجّل الله تعالى فرجه الشريف) ولد في منتصف القرن الثالث الهجري ، وشاء الله أن يختفي عن الأنظار ليواكب حركة التاريخ والأجيال استعداداً لليوم الموعود ، فهو يشكّل من هذه الناحية دراسة للمستقبل بالرغم من البعد التاريخي الذي يشغل مساحة هامّة .

إنّ الإمام المهدي عليه السلام هو مشروع للمستقبل وليس قضيّة تاريخيّة ، ومن هنا تأتي أهمّيّة هذه الدراسة التي تهدف إلى الإثبات التاريخي حول ولادة الإمام (عجّل الله فرجه الشريف) وفلسفة غيابه الطويل ، ومن ثمّ مؤشّرات ظهوره ليشكّل خاتمة المطاف للمسيرة الإنسانيّة ونهاية التاريخ .

ختاماً نتقدّم بالشكر الجزيل إلى الأخ فارس حسون كريم و الأخ كريم عبد الرضا على ما بذلاه في تصحيح و تخريج الكثير من الأحاديث التي وردت في الكتاب و إخراجه بهذه الحلّة القشيبة و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



ثلاثيّة الانتظار

الشمس خلف السحب...

ها هو التاريخ ذلك الشيخ الغارق في السنين والحوادث.. يفرك جبينه المتغضّن، ليعود بنا عبر ذاكرته إلى «سامراء».

وتتوهّج الحوادث.. حوادث سنة **٢٥٦**هـ (**٨٦٨**م)... ترى ما بالها «سامراء»، غارقة في المؤامرات.. القادة الأتراك يتمرّدون على الخليفة العبّاسي «المهتدي» فيقتلونه.. وكان على وشك أن يصدر أمره بقتل رجل سجين هو «الحسن العسكري» الإمام الحادي عشر من أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

محمّد بن خفاجة أمير صقلية يقتحم جزيرة مالطة ويستعيدها من قبضة الرومان. والزنوج القادمون من شرق إفريقيا لاستصلاح الأراضي الزراعيّة في جنوب العراق يشعلون نار الثورة.. وتتدفّق أنهار الدماء..

وفي بيت مضيء في سامراء، وفي ليلة النصف من شعبان، وفي غفلة عن الجواسيس، كان العالم على موعد؛ سيولد الصبيّ الذي بشّرت به الأنبياء.

كقلوب تنبض بأمل بدت النجوم في تلك الليلة الصافية، وقبيل الفجر بلحظات هتفت القابلة بالبشرى: «لقد وُلد السلام».

الصبيّ القادم من رحم البشارات يحمل ملامح النبوّات الغابرة. يحمل من موسى بن عمران؛ هواجس الفرعون، وكان يبحث عنه جنيناً... ويحمل من المسيح عيسى بن مريم حديثه في المهد صبياً.. ويحمل من نوح عمره الطويل..

إذ لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً..

ويحمل من محمّد اسمه وكنيته و رسالته..

ها هو المهدي محمّد خاتم الأئمّة والأوصياء.. يواكب الزمان.. تتحطّم عند قدميه أعمدة القرون.. يشهد ميلاد الحضارات.. وزوال الدول..

العالم يغرق في الفساد؛ والأرض تطحنها الحروب المدمرة.. والشعوب تنتظر.. تنتظر الذي يأتي في آخر الزمان..

لن نذهب بعيداً يا سيّدي.. يا من تتخطّى أعمدة الزمن.. وقلبك الكبير يخفق من أجل الملايين.. ملايين الحفاة والمقهورين. بالأمس القريب يا سيّدي، عاثت «خنازير أوروبا» في بلاد البوسنة.. انتهكوا الحرمات.. قتلوا مئات الأطفال.. قهروا آلاف النساء.. ذبحوا آلاف الرجال.. لا لشيء إلّا من أجل أنهم آمنوا بكلمات جدّك العظيم..

ثمّ ذرَّ الشيطان قرنيه في بلاد الشيشان.. الهمجيّون يرتكبون المذابح.. والرجال يتقدّمون أفواجاً نحو مذبح الحرّية.. يا سيّدي!

الأطفال في بقاع كثيرة يموتون جوعاً.. يخبو بريق الفرح في عيونهم ياسيّدي. وهناك آلاف الأطفال في بلاد المستضعفين يذبحون في الظلام فتباع عيونهم في أسواق سرّية!

يا سيّدي وكلّما يطلّ الخامس عشر من شعبان، يكون القمر بدراً والسماء تزخر بالنجوم... تنبض بالأمل.. تبشّر بمستقبل أخضر قادم من بعيد.. أيها الأخضر القادم من رحم النبوّات.. يا من يحمل معه عصا موسى يقهر بها سحر الفراعنة..

يا من تتألق في يمينه فأس إبراهيم.. يهشّم بها وجوه الآلهة المزيّفة!

يا من ينطوي قلبه على بشارة المسيح بالخلاص، ويحمل معه دين محمّد.. لينبعث من جديد النور الذي توهّج في جبل حراء.

يا سيّدي ! ونحن نرى في عينيك صورة العالم الأخضر... سوف ترسل السماء المطر مدراراً..

وسوف تنبعث من جديد مواسم الخصب. وسوف تنطفئ حرائق الحـروب.. وستخمد أصوات المدافع.. ستتحول في لحظة خضراء كل مصانع الأسلحة لتصبح معامل تنتج لعباً للأطفال.. وستعود الفرحة للقلوب.. والبسـمة للشـفاه. ويـومئذ يفرح المستضعفون بنصر الله.

تحية للقادم الأخضر

أعرف أنك قادم..

تحمل معك غصن الزيتون.. تحفّ موكبك حمائم السلام.. تـحية لك. وأنتَ تجوب المدن الخائفة..

تتألق في عينيك ألوان قزح..

أيها الأخضر القادم.

سترسم خطاك الربيع..

وجهك يحمل شارات الأنبياء.. امتدادات السماء.. سيفاً قرآناً.. صهيلاً مخزوناً من أرض كربلاء.. من لحظة عاشوراء..

ستشرق شمس جديدة تغمر الدنيا بالدفء والنور والأمل.. وترفع النـوق فـي الصحارى رؤوسها.. هناك في الأفق البعيد قافلة قـادمة يـقودها وارِث الحسـين.. العالم ينتظر قدومك.. ينتظر الروح التي ستصنع الحياة الجديدة.. سـنرشّ دمـوع الفرح في دربك اللاحب..

سنحرق كل أشرعتنا ونغرق في شواطئك.

أيها المسكون بهاجس الرحيل.. المبهور بالسفر.. أيها القادم من رحم كربلاء..

جواداً ينبعث من قلب رمال الصحراء.

صوتك فيه أنغام الزبور..

تراتيل التوراة..

بشارة الإنجيل..

وآيات القرآن العظيم..

ما يزال حضورك قوياً رغم غيابك..

أيها الشاهد الغائب.. والغائب الشاهد شمسك تنفذ من حجب الغيوم..

تذيب جليد التاريخ..

وصمتك العجيب.. يدوّي بلغة مدهشة أبلغ من كل أبجديات العالم.

باقة ورد أقدّمها بين يديك يا سيّدي، وسلام عليك في العالمين..

كلمات من وراء الغيوم

ولدتُ في زمن يصلب الأنبياء.. تحرق نيرانه الفراشات، فغبتُ..

إنني أنتظر.. مثلكم.. لحظة الظهور أجوس خلال الديار.. أرافق الزمان.

إنني الوجه الأخضر من التاريخ.

ستندثر كل صفحات التاريخ الصفراء..

ستبقى صفحتي مشرقة.

خضراء بلون الربيع.. بلون الحياة.. بلون الحرّية.. أنا مستقبل الإنسان.

أنا الشمس القادمة من قلب الظلمات.. والدفء بعد ليالي الزمهرير..

في البدء

الشعور بالأمل هو أثمن ما يملكه الإنسان، ففي عالم غارق في أتون الحروب والنزاعات، وحيث البشريّة تندفع بجنون نحو مستقبل غامض يلفه الظلام، تكون بارقة الأمل بغد مشرق هي المبرر الوحيد لاستمرار الإنسان في الحياة.

أجل الأمل، هذه الرؤية المنفتحة والحلم بالربيع القادم لتصبح الأرض مخضرّة ويسود السلام.

إنّ التاريخ الإنساني الطويل مليء بالآلام منقوع بالدموع، مترع بالدماء القانية لإنسان مقهور يبحث عن آماله الضائعة مسيرة حافلة بالصراع المرير؛ الصراع بين الخير والشر، الحرب والسلام، الظلم والعدالة، وفي غمرة كل هذه الظلمات الحالكة يبقى تاريخ الأنبياء هو الطريق المضيء.. الطريق الذي تهفو إليه فراشات النور وهي تبحث عن الربيع.

ومع بزوغ فجر الرسالة الأخيرة وانطلاقة التاريخ الإسلامي في هجرة سيّدنا محمّد ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بدأ التاريخ الهجري الزاخر بالحوادث ومع بداية الفصول الجديدة من الصراع أودع النبيّ الأكرم ﷺ بذرة الأمل بظهور «المهدي» من أهل بيت الرسول يحمل اسمه وكنيته ويجسّد أخلاقه وخصاله وشمائله، وهو الذي يحقّق حلم الأنبياء في آخر الزمان، فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وحينئذ يتحقق الوعد الإلهي ويسود العدل والدفء والسلام.

ومنذ أن بشّر النبيّ ﷺ بظهور حفيده وآخر الأوصياء في التاريخ؛ منذ ذلك التاريخ وحتّى اليوم يحتدم الجدل حول هوية الرجل الموعود حتّى يمكن القول أن ملف هذه القضية من أوسع الملفات التاريخية وأكثرها حساسية.

إننا نقف أمام ظاهرة تاريخية كبرى تستحق كل جهد ووقت في تأملها والوقوف طويلاً عندها لأنها قضية مستقبل ومصير.

ان الذين يؤمنون إيماناً راسخاً بالمنقذ المخلّص هم وحدهم الذين يعيشون الأمل بمستقبل العالم وأن الأرض يرثها عباد الله الصالحون.

هناك توافق في العالم الإسلامي ازاء مسألة المهدي يتحدد في ظهور شخصية من آل الرسول ﷺ في آخر الزمان يؤيد الدين ويظهر العدل.

وكتب الحديث لدى جميع المذاهب زاخرة جداً، إلّا أن هناك انقساماً وجدلاً حول ولادته؛ فالامامية كما هو معروف يذهبون إلى ولادته في شهر شعبان سنة (**٢٥٥ ـ ٢٥٧هـ**) فيما يتبلور موقف أتباع المذاهب الأربعة الأُخرى إلى عدم ولادته وأنه ما يزال في رحم المستقبل.

وفي كل الأحوال فإن حالة الانتظار تسود العالم الإسلامي مع تفاوت في طبيعة هذا الانتظار ودرجاته وفلسفته، فإذا كان العالم الإسلامي السنّي الذي يشكل المساحة الأكبر ينتظر ولادته ومن ثمّ ظهوره ليرفع راية التوحيد والعدل، فإن أتباع أهل البيت تسودهم حالة من الترقب انطلاقاً من إيمان موروث في ولادته وغيابه. فالإمام المهدي في الوجدان الشيعي حي يرزق يواكب حركة التاريخ والأجيال ومسار الحضارات وسوف يظهر بإذن الله في تلك اللحظة التاريخية والأجل الموعود.

وفي هذه الدراسة عن الإمام المهدي والتي تكتسب أهميتها في محاولة التأسيس التاريخي، رأينا تقسيمها إلى أربعة فصول أساسية، هي:

ظاهرة البشارة بزخمها التاريخي القوي ومسلسلها المنسجم ، ثمّ الميلاد مع الأخذ بنظر الاعتبار كل المؤشرات والقرائن لتعزيز وتكوين سند تاريخي للحادثة ، وبعده ظاهرة الانتظار ببعدها السلبي والايجابي ، وأخيراً عالم الغد ومحاولة استشراف نهاية التاريخ .

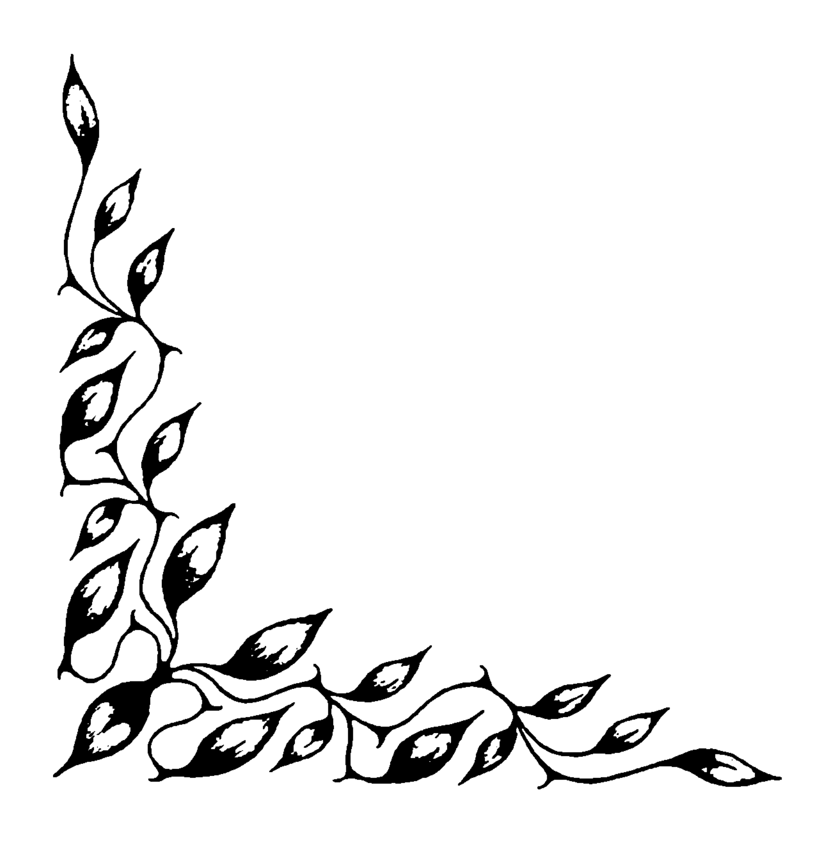
وخلال هذه الدراسة توزعت بحوث شبه مستقلّة جاء بعضها على شكل ضمائم وملحقات من أجل إسناد محاور الدراسة وتعزيزها بما يؤهلها للاقناع المنطقي والتاريخي ، ومن الله سبحانه نستمد التوفيق .

المؤلّف



الفصل الأوّل

البشـارة



الظاهرة المهدويّة

الميلاد ليس لحظة البداية في حياة الإنسان.. إنّه بداية فصل جديد في تاريخه، وما قبل ذلك إرهاصات وجذور.. إرهاصات تشبه مخاض السحب قبل أن تتدفق مطراً.

وتشتد هذه الحالة لدى الإمام محمّد المهدي لأن اسمه له بشارة في عهد النبيّ ﷺ بشارة بظهور العدل والخصب والسلام.

وسنحاول في هذا الفصل أن نقدم استعراضاً لظاهرة البشارة التي امتدت حوالي قرنين ونصف قرن من تاريخ الإسلام وهذه طائفة من الأحاديث المروية عن النبيّ ﷺ:

- **«لا تذهب الدنيا حتّى يلي أُمّتي رجل من آل بيتي يقال له: المهدي»**[1].

- **«ابشروا بالمهدي (قالها ثلاثاً) يخرج على حين اختلاف من الناس وزلزال شديد، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»**[2].

وفي سياق الأحاديث المروية عن سيّدنا محمّد ﷺ أحاديث كثيرة تؤكد أن مسألة المهدي كانت جزءً من ثقافة المسلمين آنذاك خاصة في كون المهدي من العترة الطاهرة.

---

(١) إثبات الهداة: ٩/٧.

(٢) بحار الأنوار: ٧٤/٥١.

عن الإمام عليّ عليه السلام : « **قال : قلت : يا رسول الله ، أمنّا آل محمّد المهدي أم من غيرنا ؟**

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : **لا ، بل منّا يختم الله به الدين كما فتحه بنا ، وبنا ينقذون من الفتن ، كما أُنقذوا من الشرك ، وبنا يؤلّف الله بين قلوبهم بعد عداوة الفتنة إخواناً كما ألّف بينهم بعد عداوة الشرك إخواناً على دينهم** »(١).

وعن أبي سعيد الخدري ، عن النبيّ صلى الله عليه وآله ، قال : « **المهدي من عترتي من أهل بيتي ، يخرج في آخر الزمان ، تُنزل له السماء قطرها ، وتُخرج له الأرض بذرها ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً** »(٢).

وعن أُمّ سلمة ، قالت : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله ، يقول : **المهدي من عترتي من ولد فاطمة** »(٣).

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً : « **القائم من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، وشمائله شمائلي ، وسنّته سنّتي ، يقيم الناس على ملّتي وشريعتي ، ويدعوهم إلى كتاب الله عزّ وجلّ** »(٤).

وعن أبي أيوب الأنصاري ، قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : **أنا سيّد الأنبياء ، وعليّ سيّد الأوصياء ، وسبطاي خير الأسباط ، ومنّا الأئمّة المعصومون من صلب الحسين ، ومنّا مهدي هذه الأمّة .**

فقام إليه أعرابي ، فقال : يا رسول الله ، كم الأئمّة بعدك ؟

---

(١) إثبات الهداة : ٧/١٩١ . مجمع الزوائد / الهيثمي : ٧/٣١٧ . بحار الأنوار : ٥١/ ٨٤ .

(٢) إثبات الهداة : ٧/٩ . بحار الأنوار : ٥١/٧٤ .

(٣) بحار الأنوار : ٥١/٧٥ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٧٣ .

قال : **عدد الأسباط ، وحواريي عيسى ، ونقباء بني إسرائيل »**[١].

وعن حذيفة بن أُسيد ، عن النبيّ ﷺ ، أنّه قال : « **الأئمّة بعدي بعدد نقباء بني إسرائيل تسعة من صلب الحسين ، ومنّا مهدي هذه الأُمّة »**[٢].

وعن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطّاب وعثمان بن عفّان ، أنّهما قالا : « سمعنا رسول الله ﷺ يقول : **الأئمّة بعدي اثنا عشر ، تسعة من صلب الحسين ، ومنّا مهدي هذه الأمّة ، مَن تمسّك بهم من بعدي فقد تمسّك بحبل الله ، ومن تخلّى منهم فقد تخلّى من الله »**[٣].

المهدي عليه السلام لدى أهل السنّة

قد يتصور البعض وبسبب بعض الظروف أن العقيدة المهدوية هي جزء من الثقافة الشيعية بسبب تفرّد المذهب الشيعي بالقول بالإمامة واعتبارها أصلاً عقيدياً يأتي بعد النبوّة ؛ غير أن نظرة سريعة في المصادر الحديثية لدى إخواننا تكشف عن زخم من الروايات والأخبار ربما يضاهي ما لدى المصادر الحديثية الإمامية ، بل هناك مؤلفات تتفرد بذكر أخبار الإمام المهدي مستقلة[٤] إضافة إلى أبواب مستقلة في كتب الصحاح حول المسألة المهدوية ، وهذه نماذج مما ورد من أحاديث :

عن عبدالله بن مسعود ، قال : « قال رسول الله ﷺ : **لا تذهب الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي »**[٥].

---

(١) إثبات الهداة : ٢/٥٣١.

(٢) المصدر المتقدّم : ٥٣٣.

(٣) المصدر المتقدّم : ٥٢٦.

(٤) نموذجاً : كتاب البيان في أخبار صاحب الزمان تأليف محمّد بن يوسف الشافعي.

(٥) سنن الترمذي : ٩/٧٤. ينابيع المودّة : ٢/١٨٠. البيان في أخبار صاحب الزمان : ٥٧. »

وعنه ﷺ قوله: «**لو لم يبق من الدهر إلّا يوم واحد لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً**»[1]، والحديث مروي عن عليّ عليه السلام، عنه ﷺ.

وروى أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ: «**أنّ المهدي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً وأنّه يحكم سبعة أعوام**»[2].

وعن عليّ عليه السلام، عن رسول الله ﷺ قوله: «**المهدي من أهل البيت يصلحه الله في ليلة**»[3].

وروى أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «**تملأ الأرض ظلماً وجوراً ثمّ يخرج رجل من عترتي يملك سبعاً أو تسعاً فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً**»[4].

وعنه أيضاً، قال: «قال رسول الله ﷺ: **ينزل بأُمّتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم ولم يسمع بلاء أشدّ منه، حتّى تضيق بهم الأرض الرحبة، وحتّى تملأ الأرض جوراً وظلماً، لا يجد المؤمن ملجأً يلتجئ إليه من الظلم، فيبعث الله رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدّخر الأرض من بذرها شيئاً إلّا أخرجته، ولا السماء من قطرها شيئاً إلّا صبّه الله عليهم مدراراً، يعيش فيهم سبع سنين أو تسع، تتمنّى الأحياء**

» نور الأبصار: ١٧١. مشكاة المصابيح: ٣٧٠.

(١) سنن أبي داود ـ كتاب المهدي: ٢/٢٠٧. البيان في أخبار صاحب الزمان: ٥٩. نور الأبصار: ٥٦. الصواعق المحرقة: ١٦١. الفصول المهمّة: ٢٧٥، ط. النجف.

(٢) سنن أبي داود: ٢/٢٠٧، وقد أورد في هذا الباب أحد عشر حديثاً. سنن ابن ماجة: ٢/٢١٩، باب خروج المهدي. الصواعق المحرقة: ١٦١. البيان في أخبار صاحب الزمان: ٦٤. مشكاة المصابيح / محمّد بن عبدالله الخطيب: ٣٧٠، ط. دهلي.

(٣) سنن ابن ماجة: ٢/٥١٩، باب خروج المهدي. وقد وردت في السنن سبعة أحاديث. الصواعق المحرقة: ١٦١.

(٤) مسند أحمد: ٣/٢٨. ينابيع المودّة: ٢/٢٢٧.

الأموات لما صنع الله بأهل الأرض من خيره »[١].

ودراسة حجم الأحاديث حول المهدي تدحض ما يذهب إليه بعض الكتّاب في أن هذه الأحاديث لا توجد إلّا لدى كتب الشيعة[٢].

وهذا الرأي يكاد يكون اجتراراً لما قاله ابن خلدون في مقدّمته . والكاتب يستند في رؤيته إلى غياب أحاديث المهدي في صحيحي مسلم والبخاري وإلى تضعيف ابن خلدون للأحاديث الواردة في غيرهما من الصحاح[٣].

مع ابن خلدون

واجه التراث الإمامي منعاً شديداً ؛ فكل ما يتعلّق بالمذهب الإمامي يعدّ أمراً خطيراً ، وما زاد المحنة أواراً أن المؤرخ وجد نفسه إلى جانب السلطة في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام ؛ ولهذا عندما يشكل مذهب أهل البيت من خلال بعض الأفكار وبخاصّة مسألة المهدي خطراً مستمراً يهدد الحكومات المتعاقبة منذ حادثة السقيفة ، فمن الطبيعي أن يواجه الفكر الامامي بكل معتقداته حرباً لا هوادة فيها . من أجل هذا سنجد تعسفاً كبيراً يمارسه المؤرخون وبخاصّة في المدونات الكبرى تجاه الموروث الإمامي ، وسنجد تشكيكاً في حادثة قوية مثل حادثة الغدير أواخر سنة ١٠هـ، فما بالك بحديث المهدي وهو حديث يشكل مضمونه وروحه خطراً يقلق أمن السلطة ويمثل بالنسبة إليها تحدّياً مستمراً .

ويبرز ابن خلدون كنموذج واضح في اصطفاف المؤرخ مع السلطة وممالأته لها في قضية حساسة كهذه ، فهو يقول في مقدمته : « اعلم أن المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على مرّ الأعصار أنه لابدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من « أهل

---

(١) البيان في أخبار صاحب الزمان : ٧٢. الصواعق المحرقة : ١٦١ . ينابيع المودّة : ١١٧/٢ .

(٢) و (٣) انظر المهدية في الإسلام / سعد محمّد حسن : ٦٩ ، ط . مصر / ١٣٧٣ .

البيت » يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الإسلامية ، ويحتجّون بهذا الشأن بأحاديث خرّجها الأئمّة وتكلّم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الأخبار.

وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أُخرى في الاستدلال ، وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم ، ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارها من الأدلة ، ثمّ نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبيّن لك الصحيح من ذلك إن شاء الله.

إلّا أن المعروف عند أهل الحديث ان الجرح مقدّم على التعديل ، فإذا وجدنا طعناً في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي تطرق ذلك إلى صحة الحديث ولا يتطرّق مثل ذلك إلى رجال الصحيحين ، فإن الاجماع قد اتصل في الأُمّة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما ، وفي الاجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك »[١].

هذه خلاصة لرأي ابن خلدون في أحاديث المهدي ، وقبل مناقشة آرائه من المفيد أن نقف عند شخصية ابن خلدون كمؤرخ لتاريخ الفكر الإسلامي ؛ فإلى أي مدى يمكن الركون إلى رأيه في قضية حساسة بهذا المستوى من الأهمية البالغة ؟

يتميز عبدالرحمن بن خلدون في تعامله مع التراث الامامي بالهجوم فقط من دون مناقشة علمية تستند إلى دليل أو منطق أو رأي رصين ، فهو يهاجم الإمامة بشكل عام ويهاجم بطبيعة الحال مسألة وصاية الإمام علي أمير المؤمنين عليه‌السلام ، وينكر مفادات أحاديث الغدير قائلاً: إنّ الشيعة « يقولونها على مقتضى مذهبهم

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٣١١.

ولا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »[١].

هذه اللغة الحاقدة تخلُّ بالقيمة العلمية لآراء ابـن خـلدون فـي كـل مـا يـخص المذهب الإمامي في فكر وتراث الشيعة ، ذلك أنّه يفعل ذلك استجابة لروح الرأي العام في عصره ، فمنهجه في النقد والردّ يتأرجح بين الإنكاركما هو الحال في دفاعه المستميت عن سيرة هارون الرشيد فهو ينكر بالمرّة معاقرة الأخير للخمرة ويثبت له حرصه على أداء الصلاة : « وأما ما تموّه له الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر الندمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عـليه مـن صـحابة العلماء والأولياء .. والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لأول وقتها »[٢].

والأسوأ من هذا تبريره لمعاوية استخلاف يزيد بقوله : « والذي دعا معاوية لإيثار ابنه بولاية العهد دون سواه إنما هو مراعـاة المـصلحة فـي إجـماع النـاس واتـفاق أهوائهم باتفاق أهل الحلّ والعقد عليه حينئذ من بني أميّة ... وليس معاوية ممن تأخذه العزة بقول الحق »[٣].

نصوص كهذه وغيرها تؤكد الانتماء السياسي الواضح لديه ، وهو انتماء لم يتأتّ من تمعن في الاتجاهات السياسية والفكرية في عصره وإنما تمليها مصالحه ومنافعه البراغماتية .

هكذا تحامل من ابن خلدون وغيره[٤] ممن جرّهم التعصّب للسلف إلى إطلاق

---

(١) مقدّمة ابن خلدون : ٣١٧ ، ط . دار الجيل ـ بيروت .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٩ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٢٣٣ .

(٤) نموذجاً ابن كثير في البداية والنهاية .

آراء تقف ازاء الحقيقة على طرفي نقيض، إنّ هكذا آراء تفقد قيمتها العلمية ويصبح الاحتجاج بها أمراً مؤسفاً جداً ببعض العلماء ممن آلمهم هذا الانحطاط العلمي والأخلاقي أن يصرحوا بقوّة، كما هو الحال بالبدخشي الذي قال في صحة حديث الغدير: انه «حديث صحيح مشهور ولم يتكلم في صحته إلّا متعصّب جاحد لا اعتبار بقوله»[١].

عود على بدء

ولا تصرفنا هذه المقدّمة على ما ورد في مقدمة ابن خلدون عن مناقشة مضمونها حول أحاديث المهدي حيث ترتسم علامات استفهام كثيرة خاصة عندما يرى المرء حجم النقولات والمصادر السنّية التي ترتفع بالحديث المهدوي إلى مرتبة التواتر. إنّ مصادر وشخصيات من قبيل ابن حجر الهيثمي في «الصواعق المحرقة» والشبلنجي في «نور الأبصار» والكنجي الشافعي في «البيان» والشيخ منصور في «غاية المأمول» والسويدي في «سبائك الذهب» يعزز من قوّة وصحة الحديث المهدوي في مقابل الضعف الذي يعتور بعض الأسانيد، كما أشار إلى ذلك العسقلاني وأحمد شيخ الإسلام ومفتي الشافعية الذي أكد يقينية الحديث وتعاضد الروايات في ذلك وكثرة الرواة[٢].

وقد أحصىٰ عدد العلماء السنة فكانوا «**٧٢**» عالماً. وابن خلدون عندما يطعن في أسانيدها ويضعّف الرواة فإنه ينطلق من معايير ظالمة تفتقد الموضوعية، بل انها تشكل إدانة للثقافة السائدة يومذاك.

لقد كان التشيع لأهل البيت ـ على سبيل المثال ـ من أسباب ضعف الرواة فجاء ردّ

---

(١) انظر نزل الأبرار: ٥٤.

(٢) انظر الفتوحات الإسلاميّة: ٢/٢٥٠، ط. مكّة.

ابن خلدون على قطن بن خليفة وهو من رواة الحديث المهدوي تشـيعه لا غـير ، يقول ابن خلدون : « وقطن بن خليفة وإن وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم إلّا أنّ العجلي قال : حسن الحديث ، وفيه تشيع قليل . وقال ابن معين مرّة : ثقة شيعي . وقال أحمد بن عبدالله بن يونس : كنّا نمرّ على قطن وهـو مطروح لا نكتب عنه ، وقال مرّة : كنت أمرّ به وأدعه مثل الكلب . وقال أبو بكر بن عياش : ما تركت الرواية عنه إلّا لسوء مذهبه »[١].

ويستطرد ابن خلدون ممعناً في منهجه الذي يفوح طائفية فيضعف أحد الرواة قائلاً: «كان من رجال الحديث إلّا أنه من أولاد الشيعة[٢] وضعف آخر لشـهرتهم بالتشيع »[٣].

على أن الأمانة تقتضي القول أن ابن خلدون لا يـردّ أحـاديث المـهدي جـملة وتفصيلاً ، بل يبقي على النزر القليل جداً ربما خشية من انقلاب الأمر عليه[٤] فهو يقول : « فهذه جملة من الأحاديث التي خرّجها الأئمّة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلّا القليل والأقل منه»[٥].

وهي فذلكة أشبه بفذلكة الصحافة في عصرنا عندما يدحض شاخصاً ثقافياً كبيراً بمجرّد التشكيك لأن إلقاء ظلال الشك يكفي في هزّ العقيدة بالمهدي ذلك أنه يختم بحثه مفنّداً احتمالات ظهور المهدي لاعتبارات يستند إليها في آرائه التاريخية في

---

(١) مقدّمة ابن خلدون : ٣١٣.

(٢) المصدر المتقدّم : ٣١٤.

(٣) المصدر المتقدّم : ٣١٩ و ٣٢٠.

(٤) المصدر المتقدّم : ١٠ ، ويلمس القارئ تناقضاً في منهجه لا يمكن تفسيره إلّا بتعصّبه ضدّ الشيعة.

(٥) المصدر المتقدّم : ٣٢٢.

نجاح الدول والحركات السياسية يقول: «والحق الذي ينبغي أن يتقرّر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلّا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتّى يتم أمر الله فيه، وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي أريناك هناك.

وعصبية الفاطميّين، بل وقريش أجمع، قد تلاشت من جميع الآفاق، ووجدت أمم أُخرى قد استعملت عصبيتهم على عصبية قريش إلّا ما بقي في الحجاز في مكة وينبع بالمدينة من الطالبيّين من بني الحسن وبني الحسين وبني جعفر وهم منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها، وهم عصائب بدوية متفرّقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يبلغون آلافاً من الكثرة.

فإن صح ظهور هذا المهدي فلا وجه لظهور دعوته إلّا بأن يكون منهم، ويؤلف الله بين قلوبهم في اتّباعه، حتّى تتم له شوكة وعصبية وافية بإظهار كلمته وحمل الناس عليها، وأما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمي منهم إلى مثل هذا الأمر في أفق من الآفاق من غير عصبية ولا شوكة إلّا مجرّد نسبة لأهل البيت فلا يتمّ ذلك ولا يمكن، لما أسلفنا من البراهين الصحيحة»(١).

ويقف المرء مدهوشاً أمام هذا المنطق خاصّة وإننا نقف أمام حقيقتين، بل أكثر، فالأحاديث التي طالعها ابن خلدون تؤكد أن المهدي من نسل الرسول، وأنه ﷺ قال في أكثر من مناسبة أو نسب إليه أن الدين بدأ بأهل البيت ويختم به، وابن خلدون يعرف أكثر من غيره أن انتصار دعوة النبيّ لم تتم بشوكة عصبية، فقريش قبيلة النبيّ آذت النبيّ أيّما أذى وعانى في مكّة الكثير حتّى قال: «**ما أُوذي نبيّ بمثل ما أوذيت**»(٢). والذين نصروا النبيّ وعضدوه كانوا من قبائل أُخرى بعضها من عناصر ليست عربية فكيف يتغافل ابن خلدون عن تلك الحقيقة الكبرى خاصّة وأنه عاصر

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٣٢٧.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤٢/٣. بحار الأنوار: ٥٦/٣٩.

حركات سياسية كبرى لم يكن للعصبية والقبلية فيها دور يذكر وإنما هـي العـقيدة الدينية التي تتخطّى الحدود وتتسامى فوق الأعراق والألوان ؟ !

ومن المؤسف أن يناقش ابن خلدون مسألة المهدي بهذه الروح وهو يـعلم أن حركة المهدي إنـما تـهدف إلى نشـر العـدل الذي هـو حـلم الإنسـانيّة وتـطلعات الشعوب إلى الخلاص ، حيث لا فرق بين أسود وأبيض ، وبين عربي وأعجمي ، إلّا بالتقوى .

ليس للتعصّب القومي مكان في حركة المهدي ، وليس لأي اعتبار آخـر سـوى العقيدة والمبادئ والقيم الإنسانيّة والأخلاقيّة من دور فيها .

وبسبب قوّة الأحاديث في أن المهدي من نسل فاطمة سيّدة نساء العالمين فإننا نشاهد غلبة هذه الحقيقة في أعماق ابن خلدون وهو يشير إلى المـهدي ويـدعوه بـ« الفاطمي » فالمصادر السنيّة تقرّر هذه الحقيقة وهي « **المهدي من ولد فاطمة** »[1] .

ويحاول ابن خلدون في سياق ردّه أحاديث المهدي تأييد آرائه وتعزيزها بخلوّ صحيح البخاري وصحيح مسلم منها ، وهو معيار تعسفي ؛ فهناك أحاديث صحيحة كثيرة لم يذكرها لا صحيح البخاري ولا صحيح مسلم ، إضافة إلى وجود أحاديث أشــارت إلى المــهدي مـن دون تـصريح ؛ كـالحديث المـروي عـن أبـي هـريرة ،

---

(١) انظر : التاريخ الكبير / البخاري : ٣١٦/٢ ، القسم الأوّل . المستدرك / الحاكم النيسابوري : ٧٥٥/٤ . تذكرة الحفّاظ : ٦٣/١ . سنن أبي داود : ٥١٥١/٢ . المقاصد الحسنة / السخاوي : ٤٣٥ . جالية الكدر / الأبياري : ٢٠٨ . الفتاوى الحديثيّة / الهيثمي : ٢٩ . الجامع الصغير / السيوطي : ٥٧٩/٢ . الحاوي للفتاوي : ٥٧/٢ . كنوز الحقائق / المناوي : ١٦٤ . الصواعـق المحرقة : ٢٣٥ . تمييز الخبيث من الطيب / الشيباني : ٢٢٠ . إسعاف الراغبين : ١٤٧ . الفتح الكبير : ٢٥٩ . تاريخ الرقّة : ٧٠ . ميزان الاعتدال : ٣٥٥/١ . الفصول المهمّة : ٢٦٧ . ذخائر المواريث : ٤٩٢/٤ . مشكاة المصابيح : ٢٤/٣ . جواهر العـقدين : ٤٣٢ . يـنابيع المـودّة : ١٧٩ . ذخائر العقبى : ١٣٦ .

عن النبيّ ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ؟**»[١].

ومن المفيد أن نختتم هذه المناقشة بما قاله محمود أبو ريّة في كتابه الجليل: «أضواء على السنّة المحمّديّة» حول معيار الثقة ومقاييس الجرح وكيل المديح: «فمن أرادوا تنزيهه أو مدحه قالوا: من قال القرآن مخلوق فهو كافر، ذكروا هذا في جماعة منهم ابن لهيعة وغيره. بل قالوا: ترك المحاسبي ميراث أبيه، وقال: أهل ملّتين لا يتوارثان لأن أباه كان واقفياً أي أنه لم يبد رأياً في هذه المسألة.

وقال العجلي في عمر بن سعد بن أبي وقاص: تابعي وثقة، روى عنه الناس، وهو الذي باشر قتل الحسين؛ فقل لي: أيّ جرح في الدين أكبر من هذا ؟!!

وقيل له في سعيد بن خالد البجلي حين وثقه (شيعي). قال: وشيعي ثقة ؟! وقدري ثقة ؟!

وقال العجلي كذلك في عمران بن حطّان: ثقة خارجي، مدح ابن ملجم لعنه الله بقوله:

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها ... إلّا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

فانظر عمن رضي بقتل علي وعمن قتل طلحة، وعمّن قتل الحسين وتوثيقه لهم، وأما علماء الأمّة وحفاظها كحماد بن سلمة الإمام ومكحول العالم الزاهد فتجنّبهم مثل البخاري ومسلم أيضاً»[٢].

«ومنهم من يطلق! ويا عجباً له من قلّة الحياء في ادّعاء الاجتهاد لبسر بن أرطاة. وقد نقل الحافظ ابن حجر في الاصابة أن معاوية وجّه بسر بن أرطاة إلى اليمن والحجاز وأمره أن ينظر من كان في طاعة علي فيوقع بهم ويقتلهم وهو الذي قتل

---

(١) انظر صحيح البخاري ـ كتاب بدء الخلق باب نزول عيسى: الجزء ١، وكذا صحيح مسلم: الجزء ٢، باب نزول عيسى.

(٢) انظر أضواء على السنّة المحمّديّة: ٣١٦ ـ ٣٢١، ط. الأُولى.

طفلين لعبيد الله بن عباس »[١].

العقيدة المهدوية : الظاهرة التاريخية

يمكن القول أنّ مسألة المهدي أضحت منذ زمن الرسول ﷺ من المسائل البديهية حيث جوهر هذه المسألة يكمن في ظهور رجل يقيم العدالة ، ويقضي على الظلم واللامساواة ، ويصلح شأن العالم . غير أنّ المناقشات في هذه المسألة تفرعت في أصله ونسبه واسمه وكنيته وصفاته وخصاله وموعد خروجه وظهوره ثمّ ولادته ومسألة غيبته .

بعد رحيل النبيّ ﷺ ظلّت كلماته في صدور أصحابه وانتقلت إلى جيل التابعين ، فقد ذكر أبو هريرة أنّ المهدي يبايع بين الركن والمقام[٢].

وقال ابن عباس في مجلس معاوية : « يبعث الله منا أهل البيت المهدي »[٣].

وذكر أبو معبد مولى ابن عبّاس : « وافيت ابن عباس يوماً فقلت : يابن عباس ، حدّثني عن المهدي . قال : إني لأرجو أن لا تنقضي الليالي والأيام حتّىٰ يبعث الله منا أهل البيت غلاماً شابّاً ـ أو قال : فتىً شابّاً ـ يلبس الفتن ولم تلبسه فيقيم أمر الله »[٤].

وذكر ابن عباس : « أنّ المهدي من قريش من ولد فاطمة »[٥].

وقال عمّار بن ياسر : « إذا قتل النفس الزكيّة ينادي منادٍ في السماء : أميركم فلان ، وذلك المهدي ، يملأ الأرض حقّاً وعدلاً »[٦].

---

(١) انظر أضواء على السنّة المحمّديّة : ٣١٦ ـ ٣٢١ ، ط . الأُولى .

(٢) الملاحم والفتن / ابن طاووس : ٦٣ .

(٣) و (٤) المصدر المتقدّم : ٨٤ .

(٥) المصدر المتقدّم : ١٧٨ .

(٦) المصدر المتقدّم : ٦١ .

وتحدّث عبدالله بن عمر عن المهدي ، فسأل أعرابي : أهو معاوية بن أبي سفيان ؟ فقال ابن عمر : كلّا ولا كرامة ، بل هذا الذي ينزل عليه عيسى بن مريم[١] .

وقال عمر بن قيس : « قلت لمجاهد : عندك في شأن المهدي شيء ، فإن هؤلاء الشيعة لا نصدّقهم ؟

قال : نعم ، عندي شيء مثبت ، حدّثني رجل من أصحاب النبيّ ﷺ : أنّ المهدي لا يخرج حتّى تقتل النفس الزكيّة ، فإذا قتلت النفس الزكيّة غضب عليهم من في السماء ومن في الأرض ، فيأتي الناس المهدي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً »[٢] .

وقالت عميرة بنت نفيل : « سمعت بنت الحسن بن عليّ تقول : لا يكون هذا الأمر الذي تنتظرون حتّى يبرأ بعضكم من بعض ، ويلعن بعضكم بعضاً ، ويتفل بعضكم في وجه بعض ، وحتّى يشهد بعضكم بالكفر على بعض »[٣] .

وذكر أبو الفرج الأصفهاني : « أنّ فاطمة بنت الحسين كانت تقبّل نساء بنيها وأهل بيتها حتّى قال لها بنوها : خشينا أن نسمّى بني القابلة ؛ فقالت : إن لي طلبة لو ظفرت بها لتركت ما ترون »[٤] .

وكان ابن طاووس يتمنّى أن يمتدّ به العمر حتّى يدرك المهدي[٥] .

وذكر أبو الفرج : حدثنا الوليد بن محمّد الموقري ، قال : «كنت مع الزهري بالرصافة فسمع أصوات لعّابين ، فقال لي : يا وليد ، انظر ما هذا !

فأشرفت من كوّة في بيته ، فقلت : هذا رأس زيد بن علي ، فاستوى جالساً

---

(١) الملاحم والفتن : ١٦٧ .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٧١ .

(٣) بحار الأنوار : ٢١١/٥٢ .

(٤) مقاتل الطالبيّين : ١٦٠ .

(٥) الملاحم والفتن : ٥٤ .

ثمّ قال : أهلك هذا البيت العجلة .

فقلت : أو يملكون ؟

قال : حدّثني عليّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن فاطمة : **أنّ رسول الله ﷺ قال لها : المهدي من ولدك** »[(١)].

وهناك عشرات الأخبار في عهد الصحابة والتابعين كلها تتمحور حول مسألة المهدي الذي اقترن بالعدالة والظهور حتّى يمكن القول أن اسم المهدي كان حلماً يراود المقهورين ، ويخفّف من معاناتهم ، ويزيد في صبرهم وتحملهم ، فقد شكا أحدهم ـ على سبيل المثال ـ إلى مالك بن أنس .

فأجابه : اصبر حتّى يأتي تأويل هذه الآية : **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾**[(٢)].

ومع تفاقم الظلم ، واتّساع رقعة الاضطهاد والقهر السياسي والاجتماعي ، برزت ظاهرة الانتظار والتطلّع إلى المهدي الموعود ، ومن المناسب هنا أن نتحدّث ولو بإيجاز عن تلك الظاهرة وبعض ما حصل من تطبيقات لها .

ظاهرة الانتظار والترقّب

إنّ ظاهرة الانتظار والترقب التي رافقت الضمير المسلم لظهور المصلح خاصّة بعد تصاعد موجات الظلم والقهر التي وصلت ذروتها في فاجعة كربلاء مطلع عام ٦١هـ تؤكد بما لا يقبل الشك زخم الأحاديث الصادرة عن النبيّ ﷺ في التبشير به والإشارة إلى ظهوره وانتصار الحقّ والعدالة .

ولقد كانت عقيدة المهدي تشتد مع اشتداد حالات الظلم وكانت ترسخ في

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ٩٧.

(٢) المصدر المتقدّم : ٥٩.

ضمير المسلم ووجدان الرأي العام كلّما سادت الفوضى وعمّ الفساد ، من أجل ذلك بدأت أصابع المظلومين تتّجه إلى هذه الشخصية أو تلك من أهل البيت عليهم السلام ، وفي هذا تأكيد لحقيقة أن المهدي هو من أهل بيت النبيّ وما حصل كان تطبيقاً تاريخياً لما تناقلته الأجيال . ولعل أول شخصية أشير إليها في هذا الاتجاه هي :

محمّد بن الحنفيّة : حيث اعتقد كثير من المسلمين يومذاك في أن يكون هو المهدي الذي بشّر به النبيّ صلى الله عليه وآله انطلاقاً من تشابه الاسم والكنية ، وقد أورد الطبري في تاريخه أنّ المختار الثقفي كان يتحدث بهذا الاتجاه فزعم أن ابن الحنفية هو المهدي من أجل إنجاح مشروع الثورة والثأر للإمام الحسين الشهيد عليه السلام[(١)] .

ولقد كان الكثيرون يسلّمون على ابن الحنفية قائلين : سلام عليك يا مهدي ، وكانت إجاباته تتسم بالمداراة أملاً في أن يوظف ذلك من أجل الثأر لمذبحة عاشوراء ، كان يكتفي بقوله : أجل أنا مهدي أهدي إلى الرشد والخير ، اسمي اسم نبي الله ، وكنيتي كنية نبي الله ، فإذا سلّم أحدكم فليقل : سلام عليك يا محمّد ، السلام عليك يا أبا القاسم[(٢)] .

وأحياناً كان يلتزم الصمت ، وقد خطب ابن الحنفية في سبعة آلاف من أصحابه فقال : «الله وليّ الأُمور كلها وحاكمها ، ما شاء الله كان وما لا يشاء لم يكن ، كل ما هو آت قريب ، عجلتم بالأمر قبل نزوله ، والذي نفسي بيده إن في أصلابكم لمن يقاتل مع آل محمّد . ما يخفى على أهل الشرك أمر آل محمّد ، وأمر آل محمّد متأخر ، والذي نفس محمّد بيده ليعودون فيكم كما بدأ»[(٣)] .

وقد بلغ بالبعض الاعتقاد بأنّ محمّد بن الحنفية غائب في جبل رضوى ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٤٤٩ ، ٤٩٤ .

(٢) الطبقات الكبرى : ٥/٦٦ ، القسم الأوّل .

(٣) المصدر المتقدّم : ٨٠ .

وأنّه سيظهر بعد ذلك فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً[١].

محمّد بن عبدالله بن الحسن: وبعد محمّد بن الحنفية ظهرت شخصية أُخرى كانت تتمتع بالاحترام الكبير حيث بدأ الهمس في أواخر العهد الأموي حول شخصية محمّد بن عبدالله بن الحسن.

يقول أبو الفرج: لهجت العوامّ لمحمد تسمية المهدي حتّى كان يقال: محمّد بن عبدالله المهدي[٢].

إلّا أن المشهور هو تسميته بـ«النفس الزكية» وكان بعض أهل بيته يعتقد جازماً بأنه المهدي الذي بشّرت به الرواية[٣].

وفيه قال الشاعر:

إنّا لنرجو أن يكون محمّد ... إماماً به يحيا الكتاب المنزل

به يصلح الإسلام بعد فساده ... ويحيا يتيم بائس ومعول

ويملأ عدلاً أرضنا بعد ملئها ... ضلالاً ويأتينا الذي كنت آمل[٤]

وقد انضمّ ابن عجلان فقيه أهل المدينة إلى صفوف الثائرين بقيادة محمّد بن عبدالله عن عقيدة بأنه المهدي وقد ألقي القبض عليه وأصدر الوالي أمره بقطع يده، فتدخل أشراف المدينة وقالوا: أصلح الله الأمير إنّ ابن عجلان فقيه أهل المدينة وعابدهم وإنما شبّه عليه وظنّ أنّه المهدي الذي جاءت به الرواية[٥]، وسأل أحدهم

---

(١) الملل والنحل: ٢٤٢/١، ط. الأُولى.

(٢) مقاتل الطالبيّين: ١٦٥.

(٣) المصدر المتقدّم: ١٥٧.

(٤) المصدر المتقدّم: ١٦٤.

(٥) المصدر المتقدّم: ١٩٣.

عبدالله بن الحسن: متى يخرج محمّد؟

قال: لا يخرج حتى أموت وهو مقتول[١]. وقد أخبر أن إبراهيم أخاه سيقتل، ثمّ أشار إلى أن المهدي سيخرج ويثأر من الظالمين[٢].

وكان الإمام الصادق عليه السلام إذا رأى محمّد بن عبدالله بن الحسن تغرغرت عيناه بالدموع ثمّ يقول: بنفسي هو إن الناس ليقولون فيه أنه المهدي وإنّه لمقتول ليس هذا في كتاب أبيه علي من خلفاء هذه الأمّة[٣].

ظاهرة استغلال الحديث المهدوي

بدأت ظاهرة تزوير الحديث في وقت مبكر حتّى أن الباحث يجزم بأنها قد حصلت في زمان النبيّ صلى الله عليه وآله ولهذا قال صلى الله عليه وآله: «**من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار**»[٤]، فقد بدأ الوضاعون وبشكل محموم تزوير الحديث في عهد معاوية لطمس فضائل أهل البيت عليهم السلام وبخاصّة أمير المؤمنين علي عليه السلام، واتّخذت ظاهرة التزوير توجهات خطيرة جداً كادت تطمس الحقيقة، إلّا أن ظاهرة تزوير الحديث المهدوي بدأت في وقت متأخر نسبياً، وساعد على ظهورها تطلّع الناس إلى الخلاص من الظلم، فكان السياسيون وأصحاب الطموح يقفون في الغالب وراء انتشار مثل هذه الأحاديث ما يعزّز من صحة الحديث المهدوي وانتشاره، ولأن الاستغلال لا يحصل إلّا لأمر موجود وواقع مشهود، ومن هنا يتضح أنّ مسألة المهدي وظهور المصلح الغائب كانت من الأمور البديهيّة لدى المسلمين، وأنهم كانوا يترقبون ظهوره بلهفة وأنه منتصر لا محالة، ولهذا فقد استغل الحديث

---

(١) الملل والنحل: ١/١١٦.

(٢) و (٣) المصدر المتقدّم: ١٤١.

(٤) كمال الدين: ٦٠. من لا يحضره الفقيه: ٤/٣٦٤، الحديث ٥٧٦٢. وسائل الشيعة: ١٢/٢٤٩، الحديث ١٦٢٢٣.

المهدوي أبشع استغلال وادّعى كثيرون المهدية لهم ولغيرهم ؛ فالواقفية ادّعوا غيبة الإمام موسى الكاظم وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً[١].

وادعت الإسماعيلية إمامة إسماعيل ابن الإمام الصادق ومهدويته وأنّه ما مات ولكنه غاب وسوف يعود[٢].

وزعم بعض أن الإمام العسكري عليه السلام هو الإمام المهدي ، وأنه مات وسوف يقوم من موته ، وأن معنى القائم هو القيام من الموت[٣] أو أنّه بعث من بعد موته وغاب[٤].

وكان القرامطة يعتقدون بأن محمّد بن إسماعيل هـو المـهدي المـوعود ، وأنّـه ما يزال حيّاً يعيش في بلاد الروم[٥].

وقد أفضى هذا الاستغلال للحديث إلى ممارسة التزوير على نطاق واسع ، وكتب التاريخ تعجّ بالأحاديث المزوّرة[٦].

---

(١) الملل والنحل : ١/٢٧٨. فرق الشيعة : ٨٠ ـ ٨٣.

(٢) الملل والنحل : ١/٢٧٩.

(٣) الملل والنحل : ١/٢٨٤. فرق الشيعة : ٩٦ ـ ٩٧.

(٤) فرق الشيعة : ٩٧.

(٥) المهدية في الإسلام : ٧٠. فرق الشيعة : ٧٢.

(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **لا تذهب الدنيا حتّى يبعث الله رجلاً من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً** » . الفصول المهمّة : ٢٧٤ ، وهذا يخالف كثيراً الأحاديث التي تقول بأنّ اسم الأب هو الحسن ، ويبدو أنّ الذين اعتقدوا بإمامة محمّد بن عبدالله بن الحسن قد أضافوا : « واسم أبيه اسم أبي » إلى الحديث لتعزيز عقيدتهم.

وذكر محمّد بن يوسف في **البيان** ـ بعد أن أورد هذا الحديث ـ : « أن الترمذي قد أورد هذا الحديث وليس فيه : واسم أبيه اسم أبي ، كما أثبت ذلك أيضاً أبو داود في كتابه ، وعلى هذا يثبت زيادتها. »

« وروي عن أبي هريرة ، عن النبيّ ﷺ : « **أنّ المهدي محمّد بن عبدالله في لسانه رتة** ». مقاتل الطالبيّين : ١٦٤.

وعن ابن عباس : أنّ رسول الله ﷺ قال للعبّاس : « **منك المهدي في آخر الزمان ، به ينتشر الهدى ، وبه تطفأ نيران الضلالات ، إن الله فتح بنا هذا الأمر ، وبذريتك يختم** ». ذخائر العقبى : ٢٠٦.

وعن ابن عباس : أنّه قال : « منّا أهل البيت أربعة : منّا السفاح ، ومنّا المنصور ، ومنّا المهدي . المهدي من ولد العباس عمّي ». الصواعق المحرقة : ٢٣٥ . ذخائر العقبى : ٢٠٦ ، وهذان الحديثان من مجعولات بني العبّاس .

وعن عليّ عليه السلام ، أنّه قال : « **إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فأتوها ، فإنّ فيها خليفة الله المهدي** ». ينابيع المودّة : ١٥٧/١.

ومن المحتمل أن يكون هذا الحديث من موضوعات بني العبّاس أيضاً ، ومن أتباع أبي مسلم الخراساني ، فالمهدي لا يظهر من خراسان ، والرايات السود كانت شعاراً لبني العبّاس ، وليس من البعيد أن الحديث وضع بعد خروج أبي مسلم الخراساني .

عن عبدالله ، عن النبيّ ـ في حديث ـ قال : « **إنّ أهل بيتي سيلقون بلاءً وتشريداً وتطريداً حتّى يأتي قوم من قِبل المشرق ومعهم رايات سود يسألون الحقّ فلا يعطونه ، فيقاتلون وينصرون ، فيعطون ما سألوا فلا يقبلون حتّى يدفعوه إلى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً فمن أدرك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج** ». إثبات الهداة : ١٨٩/٧ ، وأظن أن تأمّلاً بسيطاً في تاريخ ثورة بني العباس وخروج أبي مسلم الخراساني قد يؤيّد وضع هذا الحديث أيضاً .

وكان فريق من المسلمين يقولون بمهدية عمر بن عبدالعزيز ، وزوّروا في ذلك أحاديث منها ما قاله العزرمي : « سمعت محمّد بن عليّ يقول : **النبيّ منّا ، والمهدي من بني عبد شمس ، ولا نعلمه إلّا عمر بن عبدالعزيز** ».

وقال أبو يعقوب : قلت لمحمّد بن عليّ : الناس يزعمون أن فيكم مهدياً .

فقال : **إنّ ذلك كذلك ، ولكنّه من بني عبد شمس** . »

« قال : فكأنه عنى عمر بن عبدالعزيز » . الطبقات الكبرى : ٥/٣٣٣.

وعن عبدالأعلى مولى آل سام ، قال : « خرجت مع أبي عبدالله عليه السلام ، فلمّا نزلنا الروحاء نظر إلى جبلها مطلّاً عليها . فقال : **ترى هذا الجبل؟ هذا جبل يدعى رضوى من جبال فارس ، أحبّنا فنقله الله إلينا ، أما إنّ فيه كلّ شجر مطعم ونعم ، أما إنّ للخائف مرّتين ، أما إنّ لصاحب هذا الأمر فيه غيبتين : واحدة قصيرة ، والأُخرى طويلة** » . إثبات الهداة : ٧/٥ .

وهذا الحديث ـ من موضوعات من يقول بمهدية محمّد بن الحنفية ، وأنّه حيّ في جبل « رضوى » .

روى الفضل ، عن موسى بن سعدان ، عن عبدالله بن القاسم الحضرمي ، عن أبي سعيد الخراساني ، قال : « قلت لأبي عبدالله عليه السلام : لأي شيء سمّي القائم ؟

فقال : **لأنه يقوم بعدما يموت ، إنّه يقوم بأمرٍ عظيم ، يقوم بأمر الله سبحانه** » . إثبات الهداة : ٧/٢٧ .

وليس من البعيد أن يكون هذا الحديث من موضوعات الواقفيّة أو الذين كانوا يقولون بمهدية الإمام الحسن العسكري عليه السلام وأنه مات وسيبعثه الله لإصلاح العالم ، وهو حديث ضعيف السند ، فقد ذكر المامقاني عن موسى بن سعدان بأنّ أحاديثه ضعيفة ، وهو كذّاب من الغلاة ، ومردود الرواية ، وعلى فرض صدور هذا الحديث فيمكن تفسيره على ضوء حديث آخر بنفس السند .

فعن الفضل بن شاذان ، عن موسى بن سعدان ، عن عبدالله بن القاسم الحضرمي ، عن أبي سعيد الخراساني ، قال : « قلت لأبي عبدالله عليه السلام : المهدي والقائم واحد ؟

فقال : **نعم** .

قلت : لأيّ شيء سمّي المهدي ؟

قال : **لأنه يهدي إلى كلّ أمرٍ خفي ، وسمّي القائم لأنّه يقوم بعدما يموت ، يعني يموت ذكره ـ إنّه يقوم بأمرٍ عظيم** » . اثبات الهداة : ٧/٣٤ .

وهذان الحديثان يصدران عن حديث واحد . وقد فسّر الموت في الحديث الثاني بانطماس الذكر . »

« وقال مؤذن مسجد الأحمر: «سألت أبا عبدالله عليه السلام: هل في كتاب الله مثل للقائم؟ قال: **نعم، آية صاحب الحمار أماته الله ثمّ بعثه**». إثبات الهداة: ٢٨/٧، وهو من مجعولات الذين يقولون بموت المهدي ثمّ قيامه.

وعن معاوية بن أبي سفيان -في حديث طويل- عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «**ستفتح بعدي جزائر تسمّى الأندلس فيغلب عليهم أهل الكفر** -إلى ان قال-: **فيخرج رجل من المغرب الأقصى من ولد فاطمة بنت رسول الله، وهو المهدي القائم في آخر الزمان، وهو أوّل أشراط الساعة**». إثبات الهداة: ٢٤٢/٧. والحديث المذكور من موضوعات فرقة الإسماعيلية التي أسّست دولتها في بلاد المغرب. لمزيد من التفاصيل انظر دادگستر جهان/ إبراهيم الأميني.

إشارات من السماء

يتضمن القرآن الكريم والروايات المعتبرة المتواترة والكتب السماوية بشكل عام بل وحتىٰ كتابات بعض من مدّعي النبوّات بشائر بمستقبل مشرق ينتظر البشريّة.

فهناك في صميم البشائر يوم موعود تستحيل فيه الأرض الخراب إلى جنة وارفة الظلال يغمرها السلام.

وفي ذلك المنتظر تتطهر الأرض من الظلم والقهر والاضطهاد، وتنعم الإنسانيّة بالعدالة، حيث يظهر إنسان إلهي يرفع راية الحق والعدالة وينشر الخير في ربوع العالم، وهو لدىٰ طائفة كبرىٰ من العالم يتمثل في شخص الإمام المهدي قائم آل محمّد ونجل الإمام الحسن العسكري عليه السلام.

ويتضمن القرآن إشارات إلى اليوم الموعود نشير إلى بعض الآيات:

- **﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾**(١).

وتتضمّن هذه الآية الكريمة نقاطاً هامّة هي مسألة الاستخلاف وتحكيم الدين في الحياة وانتشار الطمأنينة والأمن والسلام.

وقد ورد في الأثر: «أنّ الإمام عليّاً زين العابدين قرأ هذه الآية وقال: **«هم والله شيعتنا أهل البيت، يفعل الله ذلك بهم على يد رجل منّا وهو مهدي هذه الأمّة،**

---

(١) النور: ٥٥.

وهو الذي قال رسول الله ﷺ : لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي ، اسمه اسمي ، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[(١)].

- **﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾**[(٢)]

وقد ورد في الأثر عن الإمام علي عليه السلام أنه فسّر هذه الآية بظهور المهدي عليه السلام ، وانتشار كلمة لا إله إلّا الله في ربوع العالم[(٣)]. كما فسّرها الإمام الباقر عليه السلام بذلك أيضاً[(٤)].

- **﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾**[(٥)].

يقول الإمام علي عليه السلام في مناسبة وهو يشير إلىٰ تنكّر الدنيا له وغدر الزمان : **« لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوس عَلَىٰ وَلَدِهَا »** ، ثمّ تلا قوله تعالى : **﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾** .

ويقول ابن أبي الحديد في شرحه : « إنّ أصحابنا يقولون : إنّه وعد بإمام يملك الأرض ويستولي على الممالك »[(٦)].

---

(١) مجمع البيان / الطبرسي : ١٥٢/٧ .

(٢) التوبة : ٣٣ . الفتح : ٢٨ . الصف : ٩ .

(٣) المهدي الثورة الكبرى / ناصر مكارم الشيرازي : ١٢٤ .

(٤) عصر الظهور / علي الكوراني : ٣٥٧ .

(٥) القصص : ٥ و ٦ .

(٦) شرح نهج البلاغة : ٢٩/١٩ .

- ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾[(١)].

روي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية قوله : « **إنّ ذلك وعد الله للمؤمنين بأنهم يرثون جميع الأرض** »[(٢)].

على أن الآية الكريمة التي ذكرت آنفاً وهي قوله تعالىٰ : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ تعدّ من أقوى الاشارات لأن انتصار الإسلام على جميع الأديان لم يتحقق بشكل كامل منذ صدوع سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله بالرسالة وحتى يومنا هذا ، ولذا فإنّ إمكانية تحقق هذا الوعد الالهي ستتم بظهور الإمام المهدي وانتصار حركته العالمية .

عن الإمام الكاظم عليه السلام قال : « **يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم** »[(٣)].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام : « **والله ما أنزل تأويلها بعد . . . حتىٰ يقوم القائم ان شاء الله ، فإذا خرج القائم لم يبق مشرك إلّا كره خروجه ، ولا يبقىٰ كافر إلّا قتل** »[(٤)].

وهناك مجموعة آيات أُخرى يشير المفسرون فيها إلىٰ ظهور الإمام المهدي في آخر الزمان وتشكيله الدولة العالمية كقوله تعالى : ﴿ **بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾[(٥)].

المهدي عليه السلام في بشارات العهدين

« ستخرج من القدس بقية من جبل صهيون

---

(١) الأنبياء : ١٠٦.

(٢) تفسير مجمع البيان : ٧/٢٥٢.

(٣) تفسير البرهان : ٤/٣٣٠.

(٤) بحار الأنوار : ٥١/٦٠.

(٥) هود : ٨٦.

غيرة رب الجنود ستصنع هذا»[١].

«ابتهجي كثيراً يا بنت صهيون

هو ذا ملكها سيأتي إليك

عادل ومنصور»[٢].

ونورد هنا مقطعاً هامّاً من كتاب أهل البيت في الكتاب المقدس وتحت عنوان أشعيا يبشّر بالقائم:

וְנָחָה עָלָיו ׃ 2 א
רוּחַ יְהוָה רוּחַ חָכְמָה וּבִינָה רוּחַ עֵצָה וּגְבוּרָה רוּחַ דַּעַת
וְיִרְאַת יְהוָה׃ וַהֲרִיחוֹ בְּיִרְאַת יְהוָה וְלֹא־לְמַרְאֵה עֵינָיו 3
יִשְׁפּוֹט וְלֹא־לְמִשְׁמַע אָזְנָיו יוֹכִיחַ׃ וְשָׁפַט בְּצֶדֶק דַּלִּים 4
וְהוֹכִיחַ בְּמִישׁוֹר לְעַנְוֵי־אָרֶץ וְהִכָּה־אֶרֶץ בְּשֵׁבֶט פִּיו וּבְרוּחַ
שְׂפָתָיו יָמִית רָשָׁע׃ וְהָיָה צֶדֶק אֵזוֹר מָתְנָיו וְהָאֱמוּנָה אֵזוֹר ה
חֲלָצָיו׃ וְגָר זְאֵב עִם־כֶּבֶשׂ וְנָמֵר עִם־גְּדִי יִרְבָּץ וְעֵגֶל 6
וּכְפִיר וּמְרִיא יַחְדָּו וְנַעַר קָטֹן נֹהֵג בָּם׃ וּפָרָה וָדֹב תִּרְעֶינָה 7
יַחְדָּו יִרְבְּצוּ יַלְדֵיהֶן וְאַרְיֵה כַּבָּקָר יֹאכַל־תֶּבֶן׃ וְשִׁעֲשַׁע 8
יוֹנֵק עַל־חֻר פָּתֶן וְעַל מְאוּרַת צִפְעוֹנִי גָּמוּל יָדוֹ הָדָה׃
לֹא־יָרֵעוּ וְלֹא־יַשְׁחִיתוּ בְּכָל־הַר קָדְשִׁי כִּי־מָלְאָה הָאָרֶץ 9
דֵּעָה אֶת־יְהוָה כַּמַּיִם לַיָּם מְכַסִּים׃ וְהָיָה בַּיּוֹם הַהוּא י
שֹׁרֶשׁ יִשַׁי אֲשֶׁר עֹמֵד לְנֵס עַמִּים אֵלָיו גּוֹיִם יִדְרֹשׁוּ וְהָיְתָה
מְנֻחָתוֹ כָּבוֹד׃

٢ - ڤي ناحا علاف روح يهْڤا

ڤي روح حُخْما أو ڤينا

روح عيتسا ڤي گڤورا

رُوح دَعَت ڤي يرْأت يهڤا

---

(١) سفر اشعيا ٣٧: ٣٢ الأصل العبري العهد القديم ص٦١٢.

(٢) سفر زكريا ٩: ٩ الأصل العبري العهد القديم ص ١٣٤.

٣ - قي هَر يحو بيرْأت يِهْقا .

قي لا لمرئيه عيناف

قي لا لمشمع أو زناف يشْفوط

٤ - قى هو خيّح بميشور لِعنقي آرتس .

قى هِكّا آرِتس بشيفط بيف

قى بروّح سافاتاف يا ميت راشاع .

٦ - قى گار زئيف عم كيقس

قى نامار عِم گدي يرباتس

قي عيگل في كفير قي مري ياحدو

قي نَعَر قِاطان نوهيك بام

٨ - قِي شِعْشَع يونيق عَل حرباتن

قِي عَل مِئورَت تِسْقعوني گامول يادوهادا

٩ - لو يار يعوا في لو يشحيتوا

بخُل هار قُدْشي

كِي ما لأئ هآرتس

ديعا إت يِهْقا گميم لِيَم مِخِسيم .

١٠ - قي هايا بيوم هَهُو

يَسّسيّ أشير عوميد لنيسس عميم

إيلاف گوييم يَدْرشوا

في هايتا مِنوحا توكا فود[١] .

---

(١) سفر أشعيا ١١ : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، الأصل العبري ، العهد القديم : ٦٢٥ .

وهذا النصّ الذي أخبر به « أشعيا النبيّ » يعني :

٢ ـ ويحلُّ عليه روح الرب وروح الحكمة والفهم ،

وروح المشورة والقوة ، روح المعرفة ،

ومخافة الرب .

٣ ـ ولذته في مخافة الربّ ، ولا يقضي بحسب مرأى

عينيه ، ولا بحسب مسمع أذنيه .

٤ ـ ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ،

ويضرب الأرض بقضيب فمه ، ويميت

المنافق بنفخة شفتيه .

٦ ـ ويسكن الذئب والخروف ، ويربض النمر مع الجدي ،

والعجل والشبل معاً ، وصبيّ صغير يسوقها .

٨ ـ ويلعب الرضيع على سَرَب الصلّ ،

ويمدّ الفطيم يده على جُحرْ الأفعوان .

٩ ـ لا يسيئون ولا يفسدون في كل جبل قدسيّ ،

لأن الأرض تمتلىء من معرفة الربّ

كما تغطّي المياه البحر .

وأما في الفقرة (١٠) فقد جاءت الإشارة إلى الإمام بأحد ألقابه وهو « القائم » :

١٠ ـ وفي ذلك اليوم سيرفع « القائم » رايةً للشعوب

والأُمم التي تطلبه وتنتظره ويكون محله مجداً .

وتجدر الإشارة في هذه الفقرة إلىٰ أمرين :

الأوّل : إن لفظة « يسّسي » في الفقرة (١٠) من النصّ العبري ،

تعني : سيرفع ، وقد جاءت بصيغة الاستقبال لدخول حرف (الياء) عليها [١]، والماضي منه (ناسا) بمعنىٰ : (رفع)[٢]، ومترجم (العهد القديم) في النسخة العربية[٣] لم يترجم لفظة (يسّي) العبرية والتي تعني : (سيرفع)، بل أبقاها بدون ترجمة إلى العربية محاولة منه لبس المعنىٰ وإثارة الغموض حول مفهوم «القائم»عليه‌السلام.

وأما الأمر الثاني: أنّ لفظة « عوميد » جاءت (كاسم فاعل)[٤].

وتعني : (القائم) (عاقد) و(هِعْميد) بمعنىٰ (قام وأقام)[٥].

لذا فإنّ هٰذه « البشارة » تنطبق على محمّدصلى‌الله‌عليه‌وآله وآل محمّدعليهم‌السلام لأنه لم يكن في « بني إسرائيل » ولا في ولد إسماعيلعليه‌السلام رؤساء بهٰذا العدد ، وإنّ البركة والخير الكثير لا يناسب إلّا الشجرة المحمّديّة المباركة ، ويؤيد ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ** ﴾ أي : الخير الكثير وكثرة النسل من الصدّيقة الطاهرة (فاطمة الزهراء) سلام الله عليها [٦].

الإمام المهديعليه‌السلام والنداء السماوي

يمكن أن نلحظ من خلال بشارة « يوحنا » الإشارة إلى الإمام المهديعليه‌السلام حيث جاء في « سفر يوحنا »[٧].

---

(١) قواعد اللغة العبريّة / د. زين العابدين محمود : ٩٨.

(٢) المعجم الحديث (عبري ـ عربي) / د. ربحي كمال : ٣١٥.

(٣) سفر أشعيا ١١ : ١٠ ، ص١٠٠٥.

(٤) قواعد اللغة العبريّة / د. زين العابدين محمود : ٣٨.

(٥) المعجم الحديث : ٣٤٩.

(٦) تفسير القرآن الكريم / العلّامة المحقّق السيّد عبدالله شبّر : ٥٦٧.

(٧) « سفر يوحنا » ١٤ : ٦ ـ ٧ ، الأصل العبري : ٤٧٤.

6 וארא מלאך אחר מעופף בחצי השמים ובפיו
בשורת עולם לבשר את־ישבי הארץ ואת־כל־גוי
7 ומשפחה ולשון ועם׃ ויקרא בקול גדול יראו את
האלהים והבו־לו כבוד כי באה עת משפטו והשתחוו
8 לעשה שמים וארץ את־הים ומעינות המים׃

قا إِيريه مَلآخ

معوفيف بحتسي هشاميم

أو بفيف بسوْرَت عولام

لِبّسَير إِت يوشقيه هآرتس

قي لا شون قاعم

قِيَقْرا بقول گدول:

يرْؤا إت ها إيلوهيم

قا هابوا لو كابود

كي باءى عيت مشفاطو

قي هشتحفوا الا عوسيه شامايم

قا آرتس إت هيّام أو قعينوت همايم

ويعني هذا النصّ:

ثمّ رأيت مَلاكا طائراً في وسط السماء.

معه بشارة أبدية ليبشّر الساكنين على الأرض

وكل أمة وقبيلة ولسان وشعب

منادياً بصوتٍ عظيم: خافوا الله وأعطوه مجداً

لأنه قد جاءت ساعة حكمه

واسجدوا لصانع السماء والأرض والبحر وينابيع المياه

نجد في هٰذا النصّ الذي أخبر عنه « يوحنا » إشارة إلىٰ (الصيحة الحقّ) ، قال تعالىٰ : ﴿ **وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ** ﴾[١] .

فالقائم عليه السلام ينادى باسمه واسم أبيه حسب ما جاء في آية (٤١) ، وما جاء في آية (٤٢) (الصيحة بالحقّ) هي صيحة القائم من السماء وذلك يوم الخروج[٢] ، ونلاحظ بعد تحليل (النص العبري) من الناحية اللغويّة أنّ المنادي الذي ينادي في السماء حيث عُبِّر عنه (بالملاك الطائر) يحمل بشارة أبدية للعالم : (بسوْرَت عْولام) ، ولفظه (بسورت) اسم مضافة إلىٰ (عولام) : أي العالم وهي مشتقة من الفعل (بِسيَر) : أي : (بَشَّر ، نبّأ)[٣] .

وهٰذه البشارة الأبدية لجميع سكان الأرض : (يوشقيه هارتس) ولفظة يوشقيه : سكان مشتقة من الفعل (ياشف) : (سكن وأقام) وأما (هآرتس) فتعني : (الأرض)[٤] . ثمَّ هناك تفصيل آخر بأنّ هٰذه « البشارة الأبدية » حسب النص العبري تشمل : (كل گوي) : كل أمة ، و (كل مشبحا) : كل قبيلة ، و (كل لاشون) : كل لغة ، و(كل عام) : كل شعب[٥] .

---

(١) ق : ٤١ و ٤٢ .

(٢) تفسير القمي : ٢/٣٤٤ .

(٣) المعجم الحديث : ٧٨ .

(٤) المعجم الحديث : ٢٠٨ ، ٥٩ .

(٥) المعجم الحديث : ٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٤٠ ، ٣٤٩ .

ثمّ نجد تأكيداً على مسألة مهمة أُخرى وهي الإخبار بقرب ساعة حكم الرب . بواسطة دولة الإمام (عج): (باءىٰ عيت مشفاطو) أي : (قَرُب وقت حكمه) ، (فباءىٰ) مشتقة من الفعل (با) أي : (قَرُب ، جاء) ، وعيت : تعني : (وقت ، مدة) وأمّا (مشفاطو) فجاء هنا كاسم بمعنىٰ (حكم ، قضاء) والفعل منه (شافَطْ): (حَكمَ ، قضىٰ)[(١)] .[(٢)]

وهناك إشارة لها مغزاها في هذا الموضوع وهي ما وعد الله سبحانه إبراهيم الخليل : [وأمّا إسماعيل فقد سمعت قولك فيه وها أنذاك أُباركه وأُنمّيه وأُكثره جداً جداً ، ويلد اثني عشر رئيساً ، وأجعله أُمّةَ عظيمة][(٣)] .

يقول الأُستاذ عودة مهاوش في شرح هذا النصوص ونصوص أُخرى : « أضف إلىٰ ذلك أن مراجعة بسيطة للنصوص السابقة تُظهر أن الله تعالى لم يعد إبراهيمعليه‌السلام بأن يجعل العهد مع إسحاق ، بل إنّ صيغة العبارات التوراتية تظهر أن ذلك لم يكن وعداً بل قضاءاً نافذاً على عكس ما ورد حول إسماعيلعليه‌السلام حين وعد الله تعالى أن يجعل ذريته عظيمة ويجعل منه اثني عشر رئيساً » .

ما معنى « اثني عشر رئيساً » ؟

لقد أوضحنا فيما سبق أنّ النبيّ المعزّي الذي وعد به الأنبياء هو إسماعيليّ وهو محمّدصلى‌الله‌عليه‌وآله ، وبيّنا أيضاً أن الله تعالى سيبارك أُمم الأرض بذرية إبراهيمعليه‌السلام من خلال ابنه إسماعيلعليه‌السلام .

والملاحظ من النصّ الذي أوردنا حسب « أعمال الرسل » أن ثمة صلة موجودة

---

(١) المعجم الحديث : ٦٢ ، ٣٦١ ، ٢٨٩ ، ٤٨٩ .

(٢) أهل البيت في الكتاب المقدّس / أحمد الواسطي : ١٢٤ .

(٣) سفر التكوين ١٧ : ٢٠ .

بين الاثني عشر رئيساً وذاك النبيّ المبشّر به ، فإنّنا نجد أن صاحب السفر يذكر أوّلاً أن جميع الأنبياء بشّروا به ، ثمّ إنّه يربط بين أيام ذاك الرسول ، وبين الإيفاء بعهد الله لإبراهيم بمباركة جميع عشائر الأرض بنسله .

وبما أنّ النبيّ المعزي إسماعيلي ، وبما أن عهد الله لإبراهيم كان هو أن يبارك جميع عشائر الأرض بنسل ابنه إسماعيل بتكثيره جداً ، ويجعل **١٢** رئيساً من ذريّته ، ولأن الإيفاء بعهده تعالى لإبراهيم يبدأ في أيّام ذاك النبيّ الاسماعيلي المعزّي ، لذلك فالاثنا عشر رئيساً لابدّ وأن يكون زمان مجيئهم بعد مجيء ذاك النبيّ المعزّي .

هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أُخرى فإنّنا نجد أن المسيح عليه السلام قد وعد الحواريين أصحابه بأنّه سيدعو الله تعالى ليرسل لهم المعزّي ليبقى معهم إلى الأبد .

(يوحنا ١٤ : ١٦)

فالأبدية هذه لابدّ لها من أن تتبلور في وجهين : أوّلاً : بخلود رسالته ، ودعوته ، ثانياً : بخلود ذريّة النبيّ المعزي ، فنحن نجد أن اليهود يعتبرون خلودهم وبقاءهم الأبديّ من خلال وجود أولادهم وذرياتهم من بعدهم .

فالبقاء الأبديّ هنا لابدّ وأن يكون له نفس المعنى الذي تبنّاه الكتاب المقدّس في أغلب أسفاره ، وعلى هذا فبقاء هذا النبيّ المعزّي بين بني البشر إلى الأبد يكون لا محالة من خلال بقاء نسله وذريته .

وبما أن عهد الله تعالى لإبراهيم عليه السلام كان بأن يلد ابنه إسماعيل اثني عشر رئيساً بعد مجيء النبيّ المعزي ـ كما أوضحنا ـ فإنّ هؤلاء الرؤساء في أزمنة تمتد من بعد مجيء ذاك النبيّ إلى يوم القيامة حتى يصدّق الإنجيل بقوله : إنّه سيبقى معهم (أي المعزّي) إلى الأبد . وعند التفحص والتطبيق نجد أن المقصود من هؤلاء الرؤساء الاثني عشر هم الأئمّة الأطهار من آل الرسول محمّد صلى الله عليه وآله .

وبهذا يكون قد تبيّن لك عزيزي القارئ أن التوراة والإنجيل قد بشرا ـ بدون

شكّ ـ بمجيء النبيّ محمّد ﷺ، وبقيام اثني عشر رئيساً، وإماماً من بعده من آله وذريّته، يباركون جميع عشائر الأرض لما يجلبونه عليهم من هداية وقيادة إلىٰ طريق الرحمن جلّ ذكره(١).

ونختتم هذا الفصل بما أورده الأُستاذ سعيد أيوب في دراسته القيمة عن المسيح الدجّال: إن المعسكر الذي سيواجه المسيح الدجّال وأتباعه ورجال الكنيسة المرتدة هو الإسلام، وإنّ القائد الذي سيكون على رأس هذا العسكر هو: [المهدي المنتظر](٢).

---

(١) الكتاب المقدّس تحت المجهر / عودة مهاوش: ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) و قال أيضاً: قال **الشوكاني** في التوضيح: «إن الأحاديث الواردة في المهدي متواترة» [نقل عنه في عون المعبود: ٤٥٨].

وقال **الكتاني** في «نظم المتناثر»: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي متواترة» [٢٢٩].

وقال **الشافعي** كما في «نظم المتناثر» أيضاً: «تواترت الأخبار أن المهدي من هذه الأُمّة وأن عيسى يصلّي خلفه» [٢٢٦].

وجمع **السيوطي** أحاديث المهدي في الحاوي للفتاوي، وقال: «هذا جزء جمعت فيه الأحاديث والأخبار الواردة في المهدي».

وقال **ابن القيم**: «المهدي رجل من أهل بيت النبيّ من أولاد الحسن، يخرج آخر الزمان وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً فيملأها قسطاً وعدلاً» [المنار المنيف: ١٥١].

فهذه أقوال بعض أئمّة الإسلام في مجيء المهدي آخر الزمان (نظم المتناثر: ٦٤، ٢٨٢) (المناهل / ابن القيم: ٢٣). ولقد نصت الأحاديث على أن اسم المهدي يوافق اسم النبيّ ﷺ. وهذه الأحاديث رواها أحمد (الفتح الربّاني: ٤٩/٢٤).

وقال عن عبدالله بن مسعود: «إن النبيّ ﷺ قال: **لا تقوم الساعة حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي**» [مسند أحمد: ٣٧٦/١. سنن الترمذي: ٣٤٣/٣، الحديث ٢٣٣٢].

»

يقول النبيّ ﷺ : [المهدي يواطىء اسمه اسمي . . .][1].

فهل يقابل هذا الاسم في الإنجيل المتداول معالم له ؟

لقد جاء في سفر الرؤيا أن القائد الذي سيخوض معارك آخر الزمان اسمه : [. . . الأمين الصادق . . .[2]] !!!؟[3]

وجاء في مصادر الإسلام أن منهج المهدي :

» وفي رواية بلفظ آخر : « **لاتنقضي الأيام ولايذهب الدهر حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي اسمه يواطىء اسمي** » [مسند أحمد : ٣٧٦/١ و ٤٣٠ و ٤٤٨. سنن أبي داود : ٣١٠/٢ ، ٤٢٨٢].

وروى أبو داود ، عن عبدالله ، عن النبيّ ﷺ : « **لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم** » قال في حديثه « **ليطوّل الله ذلك اليوم** » ، ثمّ اتّفقوا « **حتى يبعث فيه رجلاً مني** » أو « **من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي** » زاد في حديث فطر : « **يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً** » (سنن أبي داود : ٣٠٩/٢ ، الحديث ٤٢٨٢).

وروى الترمذي ، عن عبدالله ، قال : « قال رسول الله ﷺ : **لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي** » .

وقال : حديث حسن صحيح . سنن الترمذي : ٣٤٣/٣ ، الحديث ٣٢١٣.

(١) رواه ابن عساكر وآخرون (كنز العمال : ٢٦٨/١٤ ، الحديث ٣٨٦٧٨).

(٢) قال ابن القيم ، عن أسماء النبيّ ﷺ : « . . وأما إن جعل له من كل وصف من أوصافه اسم . تجاوزت أسماؤه المائتين ، كالصادق والمصدوق ، والرؤوف الرحيم ، إلى أمثال ذلك » . زاد المعاد : ٨٨/١.

والأمين الصادق هي تلخيص موجز لسيرة النبيّ ﷺ فهو الأمين قبل البعثة والصادق بعد البعثة ، فهو لا ينطق عن الهوى ، واجتاز الحياة بالأمانة والصدق ، وهاتان الصفتان استخدمهما برونوفسكي وهيلر عند الإشارة الأولى إلى النبيّ ﷺ في كتابه « ارتقاء الإنسان » والثاني في كتابه « مجمل تاريخ العالم » .

(٣) سفر الرؤيا ١١/١٩ ، كتاب الحياة ط٨٢.

[... يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً...](١).

ويقابل هذه الصفات في سفر الرؤيا أنه هو:

[... الذي يقضي ويحارب بالعدل...](٢).

وجاء في مصادر الإسلام عن نسل المهدي:

[... المهدي من عترتي. من ولد فاطمة...](٣).

ويقابل هذه الصفات في سفر الرؤيا:

[امرأة متسربلة بالشمس والقمر، تحت رجليها وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً... ولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأُمم بعصا من حديد...](٤).

قالوا في التفسير: [إنّها امرأة فاضلة.. وقور... ويأتي النسل من هذه المرأة !!](٥).

وإنّ نسل هذه المرأة سيواجه المخاطر، والتنّين سيقاتل باقي نسلها الذين يعملون بوصايا الله(٦).

والإكليل الذي على رأس المرأة إشارة للقيادة، والاثني عشر كوكباً، هم أسماء الرسل(٧).

---

(١) أبو داود وآخرون أشرنا إليهم عند الحديث عن المهدي.

(٢) سفر الرؤيا ١٢/١٩ كتاب الحياة ط. ٨٢.

(٣) سنن أبي داود: ٤/١١٧. سنن ابن ماجة: ١٢٦٨/٢. المستدرك على الصحيحين: ٥٥٧/٤.

(٤) سفر الرؤيا ١/١٢، ٥ الكتاب المقدس ط٨٣.

(٥) يوم الدين / ستيفنسن: ٨٧، ١٠٩. تفسير الرؤيا / حنا: ٢٧٢، جين داكسون. مجلة آخر ساعة العدد الصادر في ١٩٨٤/٩/٢٦.

(٦) الرؤيا: ١٢/١٦.

(٧) كشف المستقبل / هملتون: ٣٤، ٥١، ط. دار النفير ـ بيروت.

قلت : إذا كان المهدي من ولد فاطمة ، والمهدي هو آخر القادة ، فمن الطبيعي أن يكون جميع أخوته هم المذكورين عند أهل الكتاب[(١)] ، أي أصحاب الشجرة الواحدة ، التي خرجت من المرأة المتسربلة بالشمس والقمر .

فإذا كانت بعض التفاسير قد أشارت إلى الشمس بأنها تمثل والد المرأة ، وهذا الوالد كالشمس لأنه يملأ الأرض نوراً ، فيكفي أن نقول : إن والد المرأة هو محمّد ﷺ .

وإذا كانوا قد قالوا : إنّ القمر يرمز إلى زوجها لأنه يضيء الليل ، فيكفي أن نقول : إنّ زوجها هو علي بن أبي طالب . ولقد كان بحقّ قمراً ينير في ليل فتنة هي في الحقيقة أحزنتنا كثيراً .

وهذه الفتن أدّت إلى اضطهاد نسل المرأة. وبنظرة واحدة لعلماء أهل الكتاب في كتاب « مقاتل الطالبيّين » لأبي الفرج الأصفهاني ، ستجعلهم يعلمون أن نبوءة سفر الرؤيا التي قالت بأن هذا النسل سيضطهد ، صحيحة ![(٢)] .

---

(١) الأحاديث الواردة في أولاد فاطمة لا حصر لها ، ومنها : « **أن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا** » رواه البخاري في صحيحه : ٤/٢١٧ و ٧/٧٤ ، والترمذي في سننه : ٥/٣٢٢ ، الحديث ٣٨٥٩.

« إنّ النبيّ أبصر حسناً وحسيناً قال : **اللّهمّ إنّي أُحبّهما فأحبّهما** » . رواه الترمذي في سننه : ٥/٣٢٢ ، الحديث ٣٨٥٨ و : ٣٢٧ ، الحديث ٣٨٧١.

والجدير بالذكر أنّ أولاد الحسن والحسين اشتغلوا بالعلم في عصر الفتن ، وكانوا شجعاناً عند البأس.

(٢) عقيدة المسيح الدجّال / سعيد أيّوب : ٩٨ ـ ١٠١.



الفصل الثاني

الـميلاد



ولادة الإمام المهدي عليه السلام وظروف الغيبة الصغرى

المشكلة التاريخية

تبرز المشكلة التاريخية في دراسة كثير من الأفكار والتيارات التي كان لها دور في الحضارة الإسلاميّة وإسهام في بنائها ، غير أن مشكلات التاريخ تكاد تكون معضلات فيما يخص دراسة ولادة الإمام المهدي عليه السلام التي تؤكدها بعض المدونات التاريخية المحدودة في مقابل صمت للمدوّنات الكبرىٰ في تاريخ الإسلام .

وهذه المسألة تعود إلىٰ طبيعة الدور الذي اضطلع به أئمّة أهل البيت عليهم السلام وموقف الحكومات المتعاقبة ازاءهم . وليس هناك من جدل حول أهمية كونهم أئمّة ، وأن طرحهم أنفسهم بهذا العنوان جعلهم يمثلون خط المقاومة المستمرة للخلفاء الذين تسنموا مناصبهم واعتبارهم خلفاء للرسول صلى الله عليه وآله ، وفي هذا تكمن حالة من التهديد الدائم والمستمر . فإذا أضفنا إلىٰ ذلك أن اضطلاع الأئمّة وبأساليب مختلفة ومستويات متعددة بمهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قد جعلهم في حال لا يحسدون عليها من الحصار والتضييق والاعتقال في بعض الأحيان .

ولأن رسالة الأئمّة عليهم السلام هي قيادة عملية التغيير الحقيقية وهي تغيير الذات والأعماق إيماناً منهم بقوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[1] فقد دفعهم ذلك إلى الاهتمام بمنطقة التغيير الحقيقية ،

---

(١) الرعد : ١١ .

وهي صياغة الأعماق ، ولذا نجدهم عليهم السلام لا ينفعلون بما يطفو على سطح الحياة من زبد الحوادث ، وكان همهم الدائم الأعماق الهادئة في بحر الحياة ، أما سطح البحر الذي يزخر بالأمواج المتلاطمة ، فقد كان يحرّك السياسيين وذوي الطموح من الذين ينفعلون بوقائع الأحداث غافلين عن الحقائق الكامنة في الأعماق .

فيما الأئمّة ينظرون إلى المديات البعيدة في نظرة شمولية لحركة التاريخ والتجربة الإنسانيّة ، إنّهم يمثلون مركز الإعصار الذي ينعم بالسكينة مع أن موقعه في القلب .

وهناك نقطة جديرة بالاهتمام منذ تسنّم المأمون الخلافة بعد حرب أهلية مدمّرة ، فقد عمد إلى خطوة مثيرة اكتسبت ظاهرياً مشروع المصالحة بين البيتين العباسي والعلوي ، لكنها انطوت على فكرة احتواء الأئمّة من خلال سياسة التقريب إلى البلاط والتي تنطوي على عملية إقصائية عن قواعدهم الشعبية من الأُمّة .

بل إن هذه السياسة تدخل مرحلة جديدة وحساسة بعد صعود الطاغية العباسي « أبي جعفر المتوكل » وخطوته في استدعاء الإمام الهادي عليه السلام جدّ الإمام المهدي عليه السلام إلى سامراء والتي لم تكن مدينة كبغداد وإنّما كانت ثكنة عسكرية كبرىٰ بناها المعتصم لإسكان فرقه العسكرية وقوّاته حيث يشكل العنصر التركي المستقدم عمادها الكبير .

كما أن اهتمام المؤرخين وفي طليعتهم الطبري كان محصوراً بالوقائع التسجيلية وتاريخ الخلفاء مما جعلهم لا يلتفتون إلى غيرهم ، فالوقائع تعدّ ثروة التأريخ الوحيدة .

وما عقد المشكلة أنّ الشيعة بشكل عام لم يكونوا ميّالين إلى تدوين تاريخ الأئمّة بسبب حساسية الوضع وكونهم جميعاً في قائمة المعارضين .

في صميم البحث

إنّ من شروط دراسة مثل هذا الموضوع الذي ينطوي على أبعاد متعددة تتصل بالتاريخ والحاضر والمستقبل أن يأخذ الباحث بنظر الاعتبار ثلاث نقاط تنسجم مع منطق الانصاف وبدونها سيكون الباحث تعسفياً في منهجه :

الأولىٰ : بحث الموضوع في ظروفه التاريخية والجغرافية والظروف الأخرىٰ .

الثانية : المسلسل الطويل والمتناسق في البشارة .

الثالثة : حساسية الاسم ومسألة الغيبة .

وفيما يخص النقطة الأولىٰ يستلزم بحث ودراسة الحقبة السامرائية والظروف التي أدّت إلى تأسيس مدينة سامراء ومسار الأحداث فيها أي دراسة تستوعب حوالي نصف قرن من الزمن من سنة **٢٢٠**هـ إلى سنة **٢٧٥**هـ.

أمّا النقطة الثانية فإنّنا سنجد بشارة واضحة بظهور الإمام المهدي تنتقل منذ عهد الرسالة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وفي إطار متوحد يشير ويؤكد هويته :

من ولد فاطمة .. التاسع من ولد الحسين .. الإمام الثاني عشر

يقول الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر حول الاثني عشرية في أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله : ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول : هَبْ أنّ فرضية القائد المنتظر ممكنة بكلّ ما تستبطنه من عمر طويل ، وإمامة مبكرة ، وغيبة صامتة ، فإنّ الإمكان لا يكفي للاقتناع بوجوده فعلاً .

فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهدي ؟ وهل تكفي بضع روايات تُنقل في بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله للاقتناع الكامل بالإمام الثاني عشر على الرغم مما في هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المألوف ؟ بل كيف يمكن أن نثبت أنّ للمهدي وجوداً تاريخياً حقّاً وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته في نفوس عدد كبير من الناس ؟

والجواب: إنّ فكرة المهدي بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت في أحاديث الرسول الأعظم عموماً، وفي روايات أئمّة أهل البيت خصوصاً، وأكدت في نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشك. وقد أُحصي أربعمائة حديث عن النبيّ ﷺ من طرق إخواننا أهل السُنّة[١]، كما أُحصي مجموع الأخبار الواردة في الإمام المهدي من طرق الشيعة والسُنّة فكان أكثر من ستة آلاف رواية[٢]، وهذا رقم إحصائي كبير لا يتوفر نظيره في كثير من قضايا الإسلام البديهية التي لا يشك فيها مسلم عادة.

وأما تجسيد هذه الفكرة في الإمام الثاني عشر عليه الصلاة والسلام فهذا ما توجد مبررات كافية وواضحة للاقتناع به.

ويمكن تلخيص هذه المبررات في دليلين: أحدهما **إسلامي**. **والآخر علمي**.

فبالدليل الإسلامي نثبت وجود القائد المنتظر.

وبالدليل العلمي نبرهن على أنّ المهدي ليس مجرد أُسطورة وافتراض، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية.

أما الدليل الإسلامي:

فيتمثل في مئات الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام والتي تدلُّ على تعيين المهدي وكونه من أهل البيت..

ومن ولد فاطمة.. ومن ذرية الحسين.. وأنه التاسع من ولد الحسين.. وأنّ الخلفاء اثنا عشر. فإنّ هذه الروايات تحدد تلك الفكرة العامة وتشخيصها في الإمام الثاني عشر من أئمّة أهل البيت، وهي روايات بلغت درجة كبيرة من

---

(١) يلاحظ كتاب (المهدي) للسيّد «العمّ» الصدر قدّس الله روحه الزكية. (الشهيد الصدر).

(٢) يلاحظ كتاب منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر للشيخ لطف الله الصافي. (الشهيد الصدر).

الكثرة والانتشار على الرغم من تحفّظ الأئمّةعليهم السلام واحتياطهم في طرح ذلك على المستوى العام ، وقايةً للخلف الصالح من الاغتيال أو الإجهاز السريع على حياته .

وليست الكثرة العددية للروايات هي الأساس الوحيد لقبولها ، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها ، فالحديث النبوي الشريف عن الأئمّة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفةً أو أميراً ـ على اختلاف متن الحديث في طرقه المختلفة ـ قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مائتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسُنّة بما في ذلك البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود ومسند أحمد ومستدرك الحاكم على الصحيحين .

ويلاحظ هنا أنّ البخاري الذي نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد عليه السلام والإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام ، وفي ذلك مغزىً كبير ؛ لأنه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سُجّل عن النبيّ صلى الله عليه وآله قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الأئمّة الاثني عشر فعلاً ، وهذا يعني أنه لا يوجد أي مجال للشك في أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامي الاثني عشري وانعكاساً له ؛ لأنّ الأحاديث المزيفة التي تنسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وهي انعكاسات أوتبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق في ظهورها وتسجيلها في كتب الحديث ذلك الواقع الذي تشكل انعكاساً له .

فما دمنا قد ملكنا الدليل المادي على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخي للأئمة الاثني عشر ، وضُبط في كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامي الاثني عشري ، أمكننا أن نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواقع وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى ، فقال : **« الخلفاء بعدي اثنا عشر »**[(١)] .

---

(١) الخصال : ٤٦٨ ، الحديث ٨. بحار الأنوار : ٢٣٠/٣٦ ، الحديث ١٠ .

وجاء الواقع الإمامي الاثني عشري ابتداءً من الإمام عليٍّ وانتهاءً بالمهدي؛ ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلك الحديث النبوي الشريف[١].

وأقل عمر لمسلسل البشارة يمكن أن يكون في حدود قرنين ونصف، واستعراض نصوص البشارة يؤكد توحدها في هوية واحدة.

فيما نجد في النقطة الثالثة إرثاً ثقيلاً يضع اسم الإمام المهدي ضمن الممنوعات المؤكدة والمحرّمات الأكيدة فيما يخصّ التصريح باسمه «**فإنّهم إن وقفوا على الاسم أذاعوه**»[٢] فمعلومات مثل الاسم والعنوان تعدّ أمانة كبرىٰ في عنق المؤمن هي المحك الحقيقي لإيمانه وصدقه.

وهذه النقاط الثلاث هي التي ستنقل البحث من أجواء المختبر، حيث درجة الحرارة الثابتة والسكون فلا رياح ولا مطر ولا صواعق وكل شيء هادىء تماماً كالأجواء في سطح القمر!! إنّ أية محاولة لتقييم ومحاكمة موضوع بالغ الحساسية كهذا الموضوع وبأدوات وظروف مختبرية تعدّ ذروة في التعسّف والظلم.

ذلك أن محاكمة موضوع بهذه الطريقة السطحية وبأدوات تشكيكية قاصرة هو مصادرة لتاريخ طويل ومرير مليء بالعذابات والدموع زاخر بالطموحات والآمال بغد أفضل، كما أنّها طعنة نجلاء في قلوب الذين ينتظرون ذلك الأمل، مع التأكيد على أن الانتظار السلبي لا يشكل إلّا مقطعاً عابراً ومحدوداً في طريق مليء بشموع الكفاح والجهاد الذي يستمدّ زيته من شجرة الأمل[٣].

---

(١) بحث حول المهدي: ١٠٣ ـ ١٠٧.

(٢) الغيبة / الطوسي: ٣٦٤، الحديث ٣٢١. بحار الأنوار: ٣٥١/٥١.

(٣) يمكن أن نؤشر هنا ثلاث ملاحم حركية في طليعتها ثورة الإمام الخميني ونهضته، وخطوة الشهيد محمّد باقر الصدر وحركة الشهيد محمّد صادق الصدر.

ولا ينكر أحد عقيدة الإمام الخميني في المهدي عليه السلام وقد ساد شعار ثوري وما يزال »

قدر من التفصيل

سامراء ظروف التأسيس والنسيج العام

تكاد المصادر التاريخية تجمع على أن تاريخ بناء سامراء يعود إلى سنة ٢٢٠هـ وهي فكرة أفرزتها هواجس سياسية دفعت بالمعتصم إلى انتخاب هذا المكان على ضفاف دجلة شمالي بغداد وعلى مسافة ٦٠ ميلاً عربياً عنها [١].

وبالرغم من أن الموضوع سوف يدفعنا إلى بحث شخصية المعتصم الذي يعد نهاية لعصر وبداية لعصر ثان في الخلافة العباسية ، لكننا سوف نكتفي بمعلومات سريعة قد تفسّر وتوضح قرارات وسياسات ومواقف في مسار الحكم العباسي واتجاهاته السياسية والادارية .

فالمعتصم هو أبو إسحاق محمّد بن الرشيد وأخو المأمون . أُمّه تركية تدعىٰ « ماردة » ولعل الوراثة قد لعبت دوراً كبيراً في تكوين شخصيته فقد عزف منذ طفولته

« حول إدامة الثورة حتى ظهور الإمام الغائب عليه السلام .

وللشهيد الصدر بحث هام ورائد في مسألة المهدي « بحث حول المهدي » كما أن للشهيد محمد صادق الصدر موسوعة كبرى حول الإمام المهدي . تشتمل على بحوث تاريخية هامّة ، فالايمان بالإمام المهدي ليس أُسطورة تبعث على الخدر ، بل إنّه الزيت الذي يمدّ القلوب بالثورة والأمل والدفء .

(١) اختلف الباحثون في تعليل البواعث التي دفعت بالمعتصم إلى تأسيس مدينة سامراء ، فقد رأىٰ فريق أن السبب يعود إلى الأتراك الذين كانوا يؤذون الناس فخلق وجودهم في بغداد مشكلات كثيرة . كتاب البلدان / اليعقوبي : ٢٣ .

فيما يرىٰ فريق آخر أنّ وراء ذلك أسباباً عديدة منها سياسته العنصرية الخاطئة في اعتماد العنصر التركي دون العرب ، ودعمه المعتزلة واضطهاد خصومهم ، والمصاعب التي واجهته في فتنة الهنود الذين عرفوا في التاريخ بالزطّ وموقفه المعادي للعلويين . تاريخ الإسلام السياسي / د. حسن إبراهيم : ٧١ ، ط القاهرة .

عن الدراسة واتجه إلى فنون الفروسية والحرب جعلته أقرب في الشبه لسكّان الصحارى القاسية في بردها وجفافها .

كما أن اعتبار أخواله من الأتراك قد أثر في اختيار عنصر جديد يعتمد عليه في إدارة دولته الكبيرة ، خاصة في ظلّ استمرار التحدّيات التي ورثها مع مملكته ، فثورة بابك الخرّمي ما تزال تقلق أمن الدولة إضافة إلى الوضع المتوتر على امتداد الحدود مع دولة الروم واستمرار الاشتباكات المحدودة ، وأحياناً الغارات الوحشية التي يشنّها الروم كلما سنحت فرصة .

وسنرىٰ وفي غضون فترة قياسية ظهور عناصر جديدة غير عربية ولا فارسية عناصر تنتمي إلى سكان مناطق وأقاليم قاسية في مناخها وظروفها ، فضلها المعتصم لأسباب كثيرة في مطلعها بعدها عن الترف والمدنية التي تسلب المرء في رأيه امتيازات المحارب الشجاع ، إضافة إلى جهلها بالإسلام فهي مهيأة إلى أن تكون قوّات مرتزقة لا تعرف غير الطاعة وتنفيذ الأوامر وحراسة الحكم العباسي .

سوف نرىٰ ظهور « المغاربة »[١] الذين سيؤلفون قوّات الحرس الخاص و « الفراغنة » لمهمات أمنية أُخرى إضافة إلى الجيش الجرّار المؤلف من **٢٥٠/٠٠٠** جندي تركي . وقد سنّت قوانين تحظر على الجنود الأتراك التزوج من غير التركيات ومنعت أيضاً الطلاق . وقد شهدت بغداد تدفق آلاف الفتيات التركيات إلى أسواق الرقيق .

ومن هنا انبعثت هواجس المعتصم في الحفاظ على هذه العناصر التي عوّل عليها في حكمه ، فجاءت فكرة تأسيس عاصمة بعيدة عن بغداد مصدر الترف والقلق السياسي والأمني .

فمدينة سامراء في الأصل ثكنة عسكرية كبرىٰ تمّ بناؤها بأُسلوب الأوامر

---

(١) كان استقدامهم في البداية للعمل في بناء « سامراء » .

العسكرية . ولذا فإنّ اسم سامراء الذي شاع منذ البداية هو « العسكر » والذي أضحىٰ لقباً للإمامين علي ونجله الحسن عليهما السلام فالعسكر ليس محلّة في سـامراء نسب إليـها الإمامان إنّما هو اسم المدينة ، فالنسيج العام الذي طبعها هو نسيج العسكر ، يكفي أن نتصوّر وجود أكثر من **٢٥٠/٠٠٠** جندي ووجود أكثر من **١٦٠/٠٠٠** حصان في إسطبلات كبيرة لنتصور طابعها العام .

وبالرغم من تدفق آلاف العمال وظهور الأسواق وإسكـان الجـنود الأتـراك فـي أحياء سكنية خاصّة مع أُسرهم وعوائلهم إلّا أن كل ذلك لم يغير من صورة سامراء العسكرية فظل اسم « العسكر » متداولاً إلى جانب الاسم الرسمي « سرّ من رأى » .

وعلى مدىٰ شهور كانت حمّى البناء مستعرة ، فـقد وزع المـعتصم مسـؤوليات التنفيذ على أركان دولته ، إذ أسند تنفيذ الجوسق الخاقاني قصر الخليفة العام إلى « أبو الفتح خاقان » .

كما أسند تنفيذ بناء القصر « العمري » إلى عمر بن فرج ، وإلى « ابن الوزير » بناء « القصر الوزيري » ، كما وزع المعتصم أسناد الأراضي الشمالية على القادة الأتـراك لبناء أحياء مستقلة تمنعهم من الاختلاط ببقية الأجناس الأخـرىٰ ، وكـان اهـتمامه بالعنصر التركي واضحاً في سياسته ، فـالأتراك فـي تـلك الفـترة لا يـعرفون سـوى السيوف والخيول ولا يتحدثون إلّا عن القلاع والحروب . .

وظهرت شخصيات تركية في المؤسسة العسكرية كانت تمارس وظائف خدمية باعتبارهم غلماناً ورقيقاً .

فـ « أشناس » الضابط الكبير ظهر فجأة ، وظهر « وصيف » الذي كان يـعمل زرّاداً فأصبح هو الآخر قائداً عسكرياً يقود آلاف الجنود ، وظهرت شـخصية هـامة هـي شخصية « الأفشين » الذي اعتنق الإسلام وهو الوحيد الذي ينحدر من أسرة كانت تحكم إقليم اشروسنة .

ويتمتع هذا الرجل بموهبة عسكرية فذّة وهو الذي هزم تمرّد بابك الخرمي الذي استمر عشرين سنة ، ويعدّ الفاتح الحقيقي لعمورية ، وما تزال قصّة محاكمته في تهم لم تثبت ومن ثمّ إعدامه تثير أسئلة عديدة !

وقراءة في هذه الحقبة تعرّفنا على شخصية أُخرى هي « دليل بن يعقوب النصراني » الذي أشرف على مشاريع هندسية كبرىٰ في طليعتها شقّ القنوات الجوفية وإمداد القصور الكبرىٰ بها ، ومشروع شقّ النهر الذي أخفق وهو مشروع جبار عمل فيه ١٢/٠٠٠ عامل ليل نهار(١) .

وتهمنا هذه المعلومة فيما بعد عندما نتطرق إلى الدار التي اشتراها الإمام الهادي عليه‌السلام سنة (٢٣٢ ـ ٢٣٤)هـ وهي سنة وصوله إلى سامراء في ظروف أقرب الى الاستدعاء القسري منه إلى دعوة قابلة للاعتذار .

ولا ننسى الإشارة في هذه العجالة إلى شخصية أُخرى هي « ايتاخ » الطباخ والذي تدرج في مسؤوليات أُخرى ، فانتقل من ذبح الغنم والبقر إلى ذبح الإنسان ، فقد نفذ عمليات اغتيال دموية وكان يقوم بها ببرود قاتل .

أما « بغا » وهو قائد تركي فما يزال في غضون هذه السنوات مشتبكاً مع قوّات التمرّد بقيادة بابك وقد مني بهزيمة مريرة .

وسيكون دور ايتاخ في تلك الفترة دور « مسرور » خادم الرشيد وهو دور اتّسم

---

(١) تاريخ الطبري حوادث سنة ٢٤٥هـ « .. وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة (شمال سامراء) من موضع يقال له : كرْمى يكون شرباً لما حولها من فوهة النهر إليها ، وأمر بأخذ جبلتا والخصاصة العليا والسفلىٰ وكرْمى ، وحمل أهلها على بيع منازلهم وأراضيهم ، فأُجبروا على ذلك .. وقدّر للنهر من النفقة مائتي ألف دينار فصيّر النفقة عليه إلى « دليل بن يعقوب النصراني » كاتب « بغا » وألقىٰ في النهر اثني عشر ألف رجل يعملون فيه فلم يزل دليل يعتمل فيه .. حتىٰ قتل المتوكل فبطل النهر .. » .

بالغموض والبوليسية في إدارة شؤون الحكم والدولة .

القصور في سامراء .. الجوسق الخاقاني نموذجاً

كشفت التنقيبات في سنة **١٩٠٧** وما بعدها عن أطلال قصر عظيم ، ويكفي أن نشير إلى المدرج الذي يرتفع من الحوض الواسع وعرضه الذي يبلغ ستين متراً لنعرف فخامة هذا القصر .

وهذا المدرج يؤدي إلى أكبر وأضخم أبواب القصر وهو « باب العامّة » الذي يرتفع إلى اثني عشر متراً في الفضاء .

ونحاول هنا استعراض بعض ما أشارت إليه التنقيبات بما يوضح صورة عن القصور في سامراء وهي تشترك جميعاً في كثير من المرافق ، ونذكر باعتمادها في الغالب خرائط رومية ، وسنتابع بعض التفاصيل ابتداءً من باب العامة المؤلفة من جبهة ثلاثية العقود يبلغ ارتفاعها **١٢**م وتمتد من ورائها ثلاث غرف مسقّفة بعقادات متوازية تطلّ على نهر دجلة .

ويقع في الجبهة الجنوبية جناح الحريم الذي يمتد منه ملحق جنوبي ، فيما يمتد البهو من باب العامة في طريق مستقيم إلى قاعة الشرف أو البلاط المؤلف من ثلاثة أجنحة تشبه الحرف « T » وهو طراز روماني في البناء . .

ومساحة البهو الشرقي وحده **٣٨ × ١٠/٤٠**م تنفتح شرفاته على ساحة واسعة **٣٥٠ × ١٨٠**م تتوسّطها نافورتان تستمدان مياههما من دجلة عبر كهريز (قناة جوفية) .

« وإذا سار المرء متجهاً إلى شرقي الشرفة الكبيرة يأتي السرداب الصغير الكائن على محور القصر الأصلي . ويؤلف مدخل السرداب غرفة مربعة الشكل يوجد على جدرانها أفريز مزين بجمال ماشية من ذوات السنامين منحوتة بالجصّ الملوّن مع نافورة دائرية الشكل .

ويقع سلّم السرداب في الجانب الغربي من البناء الفوقاني. أما السرداب نفسه فهو عبارة عن مغارة في داخل القصر بعمق ٨م وطول ٢١م، ويوجد في كل جدار من جدران المغارة ثلاثة كهوف تصلها ببعض ممرات خاصة كما يوجد في قاعها حوض ماء..»

وقد ثبتنا هذا النصّ من موسوعة العتبات المقدسة كتاب سامراء ومعلوماته من مراجع أجنبية أشرفت بنفسها على التنقيبات وسجّلت مشاهداتها بدقّة متناهية.

إنّ مفردات مثل حوض المياه والسرداب ونوافير الماء والقنوات الجوفية سيكون تذكّرها مفيداً عندما يصل الحديث عن بيت الإمام الهادي عليه السلام.

المقطع الأخير من مسلسل البشارة

نحاول هنا أن نثبت ولو إشارة إلى بشارة ثلاثة أئمّة عاصروا الحقبة السامرائية وهم الجواد عليه السلام الذي توفّي في ظروف غامضة وهو شابّ في الخامسة والعشرين، وهناك مرويّات وقرائن تؤكد اغتياله.

فمن يقرأ مطلع خلافة المعتصم ومسلسل التصفيات وأُمّية الخليفة واستجابته السريعة لأيّ هاجس سيميل إلى أن المعتصم قد دبّر عملية الاغتيال بإقناع جعفر بن المأمون والأخير أغرىٰ أخته (زوجة الإمام الجواد) بتنفيذ المؤامرة.

فذلك الشابّ كان يشكل تهديداً لسلطة المعتصم، فالتاريخ ذكر صراحة أُمّية الخليفة، وأشار إلى شخصية الإمام الجواد عليه السلام العلمية.

هناك روايتان عن عبدالعظيم الحسني تشير الأولى إلى أنّ الثالث من ولده هو المهدي الموعود، وتؤكدان معاً غيبته ووجوب انتظاره، فيما تؤكد الثانية نقطة سنأخذ أهميتها بعد ذلك بنظر الاعتبار وهي حرمة تسميته(١).

---

(١) كثيرة هي الكتب التي بحثت مسألة الإمام المهدي عليه السلام واهتمت بدراسة فلسفة الغيبة، »

أما الإمام الهادي عليه السلام فقد مارس إضافة إلى تأكيده البشارة شكلاً من أشكال الغيبة واعطاء دور هام للوكلاء ، وهي خطوة عملية على صعيد التمهيد ، ومحاولة إقناع العقل الإسلامي والضمير بهذا اللون من الارتباط الذي تمليه ظروف سياسية قاهرة .

والرواية التي ينقلها أبو دلف تقول عن الإمام الهادي عليه السلام : « **الإمام بعدي الحسن ابني ، وبعد الحسن ابنه القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً** »(١) .

ومسلسل البشارات يؤكد بشكل مركّز على غيبة المهدي الموعود ، وعلى خفاء ولادته على الناس ، ولهذا دلالات كثيرة جداً على الصعيد النفسي في ترشيد الوجود الشيعي كقاعدة شعبية تؤمن بقيادة أهل البيت وتدين بولائهم .

الموقف العام في الجبهات والعلاقات الدولية

سنحاول باختصار استعراض الموقف العام على الحدود الدولية ليس لاضاءة خلفيات المسرح السياسي في سامراء فحسب ، بل إنّنا سنجد بحث ذلك مجدياً عندما نجد في المدوّنات الإمامية تأكيداً علىٰ أن اُمّ المهدي هي فتاة من القسطنطينية وأنها إحدىٰ أميرات القصر ، وهي رواية بشر بن سليمان النخّاس تاجر الرقيق الذي تولّىٰ مهمة شرائها من بغداد ، فإلى أيّ مدى يمكن الركون إلى هذه

» العمر الطويل ، جدوى الإمام الغائب وغيرها ، وسنجد موضوعاً آخر اهتمّ ببحث حكم تسمية الإمام المهدي ، وهناك سبع رسائل أثبتها كتاب الذريعة .

ويبدو أن هذه المسألة كانت محلّ جدل شديد في عصر الشيخ البهائي / شرعه التسمية حول حرمة تسمية صاحب الأمر / الفيلسوف والعارف الأمير السيّد محمّد باقر المعروف بالداماد ـ مقدمة الإعداد / ٣ ـ ٤ .

(١) كمال الدين وتمام النعمة : ٣٨٣ ، الحديث ١٠ . كفاية الأثر : ٢٨٣ ، بحار الأنوار : ١٥٧/٥١ ، الحديث ٥ .

الرواية الوحيدة والتي تضمنت تفاصيل مثيرة ؟!

شهدت خلافة المعتصم انتصارات هامّة جداً وأول انتصار اقترن ببدء خلافته هو القضاء التام على تمرّد بابك الخرّمي ، وبالرغم من الغارات التي شنّها الروم والتي اكتسبت طابع الهجوم العام بجيوش جرّارة لتخفيف الضغط عن قلاع بابك في أرمينيا وآذربيجان إلّا أن « الأفشين » نجح في إحراز نصر ساحق ونهائي على بـابك الذي اقتيد أسيراً مع أخيه ليعدم في مكان عرف فيما بعد بـ« خشبة بابك » .

أما الانتصار الثاني فهو توغل الجيوش الإسلاميّة في الجـبهة الشـمالية وتـحرير المدن المحتلة والزحف على مدينة عمورية مسقط رأس الأباطرة الروم الحاكمين .

وهذا الانتصار الذي تكلّل في فتح المدينة يوازي سقوط العاصمة إلى حدّ مـا ويستنتج من يقرأ تفاصيل المعارك الضارية أن هذا الفتح يعود إلى القائد العسكري الموهوب الأفشين ، وما يهمنا هنا هو أن الهزيمة التي مني بها الروم ستكون لها آثار على مستقبل الأسرة العمورية الحاكمة .

ولا ننسى هنا أيضاً اكتشاف المعتصم لخطة انقلابية خطيرة تزعّمها العباس بن المأمون وبتأييد وحماس الضباط العرب والتي عـالجها المـعتصم بـدموية وقسـوة بالغة .

وفي تلك الفترة تفاقم النفوذ التركي ، وقراءة في تفاصيل كيفية الانسـحاب إلى سامراء ومسلسل التصفيات تكشف عن الجانب الدموي فـي شـخصية المـعتصم وأمّيته إلى حدٍّ كبير .

كما أن الإشارة إلى محاكمة الأفشين وتنفيذ حكم الاعدام بحقّه ، وإشراف قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد تشير إلى تطور سيّء في تجربة المعتزلة فـي إدارة دفّـة الحكم منذ محنة خلق القرآن .

وقد شهد حكم الواثق محاكمات ظالمة أبرزها محاكمة نصر بن أحمد الخزاعي

الزعيم الشعبي البغدادي والتي كشفت عن سوءات الحكم وعرّت أخلاقيته التـي وصلت حدّ النذالة خاصّة في مفاوضات تبادل الأسرىٰ مع الروم حيث تم افـتداء الأسرى المسلمين الذين يقولون بفكرة خلق القرآن[١] أما الذين رفضوا ذلك فـقد تركوا يواجهون مصيرهم المأساوي تحت رحمة تيودورا زوجة الامبراطور وعضوة مجلس الوصاية على العرش بعد وفاة زوجها تيوفئيل وجلوس ابنها القاصر ميخائيل الثالث (٦ سنوات) على العرش ، وذكر هذه المعلومة ليس من قـبيل الاسـترسال بل إنّها إضاءة لبحث مصير الأسرة العمورية بعد عقدين من الزمن .

نيرون العرب

ستكون دراسـة فـترة « المـتوكل » (**٢٣٢ ـ ٢٤٧**)م مـفيدة فـي فـهم كـثير مـن الملابسات ، لأن الطريقة التي وصل فيها إلى الحكم تحتاج إلى دراسة نفوذ الضباط الأتراك ، وموقف الرأي العام من تجربة المعتزلة في الحكم خاصة في ظـل تـنامي نفوذ رئيس السلطة القضائية القاضي أحمد بن أبي دؤاد واستغلاله لمنصبه وأحكامه التعسفية التي ذهب فيها إلى مديات لا تطاق .

بل إن دراسة شخصية جعفر المـتوكل ووقـوعه تـحت تأثـير مـحظيته اليـونانية الحسناء وطلاقه لزوجته « ريطة » التي رفضت طلبه في السفور وارتداء زيّ الغلمان ستكشف هي الأخرىٰ نقاطاً معتمة وتلقي الضوء على حوادث تاريخية .

فقد سجّل المؤرخون للمتوكل اهتماماً استثنائياً بالأخبار أي أخبار جـواسـيسه المنتشرين في كل مكان ، وقد شهدت فترة حكمه تشكيل شـبكة رهـيبة ومـخيفة للجاسوسية وقد أثرى الجواسيس من خلال إدراكهم لتوجهات وتوجسات المتوكل

---

(١) راجع تاريخ الطبري حوادث سنة ٨٤٥م ٢٣١هـ وقد تم افتداء الأسرى عـلى ضـفاف نـهر اللامس.

خاصّة عدائه الشديد لأهل البيت عليهم السلام .

يكفي أن نشير إلى أوامره بهدم مرقد سيّدنا الحسين عليه السلام وهدم الدور المحيطة به وحرث المنطقة بأسرها وفتح مياه الفرات وإغراقها ، وهي مهمة امتنع المسلمون والنصارىٰ عن تنفيذها ونفذها اليهود بتعهد « إبراهيم الديزج » اليهودي الذي سنراه يتولىٰ منصباً حساساً في الدولة فيما بعد .

ومن الأفضل أن نواكب وبشكل سريع بعض الحوادث التي أدّت في النهاية إلى صعود المتوكل وإطاحته بمؤسسات العهد البائد ، بل وإقصائه المذهب المعتزلي وإبعاد شخصياته عن مؤسسة الدولة وفسح المجال أمام مذهب جديد ساعد إلىٰ حدّ ما على تثبيت أركان حكمه .

وصول الإمام الهادي عليه السلام إلى سامراء

لعل من الأفضل مواكبة بعض الأحداث التي قد تلقي ضوءً كشّافاً يفيد في تفسير حوادث أُخرى في صميم البحث .

قد يعجز الباحث عن إماطة اللثام عن الظروف التي مهدت الطريق إلى صعود المتوكل فقد كان قبل ليالٍ موضعاً لتأنيب أخيه الواثق واحتقار رئيس الوزراء الزيات بسبب شعره الطويل وظهوره في هيئة أقرب إلى المخنّثين منه إلى الأمراء ، ولذا قام رئيس الوزراء بقصّ شعره وضرب بها وجهه وطرده .

إنّ من يطّلع على تفاصيل تلك الفترة خاصّة فترة احتضار الواثق وانعقاد مجلس ضمّ شخصيات الدولة سيكتشف نفوذ الضباط الأتراك .

لقد حاول الزيات المستحيل في ترشيح ابن الخليفة الطفل ولكن دون جدوىٰ فقد فرض ايتاخ وبغا ووصيف رأيهم في انتخاب جعفر (المتوكل) .

ومن الملفت للنظر أنّ جعفر كان حين تداول مسألة مصير الخلافة جالساً في

الجناح الخاص بالحرس مع بعض الشبان الأتراك .

وقد حمل القائد بغا حلّة الخلافة إليه ، وفي لحظات رأىٰ نفسه الحاكم المطلق لبلاد تمتد من غرب أفريقيا إلى تخوم أرمينيا وإلى شواطىء المحيط الهندي .

وأول شيء نطالعه هو التقارير التي رفعت إلى المتوكل مباشرة في خطورة الإمام علي الهادي عليه السلام . يقول المسعودي : « وكتب بريحة العباسي صاحب الصلاة بالحرمين إلى المتوكل : إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمّد منها ، فإنّه قد دعا إلى نفسه واتّبعه خلق كثير » .

ونجد أن زوجة المتوكل تؤكد على زوجها ذلك ، وكما ذكرنا أنها كانت جارية ثمّ أصبحت زوجته الأولىٰ عرفت بحسنها الباهر ، ولم يذكر التاريخ سوى أنّها من أصل يوناني ، وأنّها استحوذت على قلب المتوكل ، واسمها غير معروف لكنها اشتهرت باسم « قبيحة » من باب تسمية الشيء بضدّه .

وقد استدعى ذلك أن يكذّب الإمام التقارير في رسالة إلى سامراء ، لكن ذلك لم يبدد هواجس المتوكل فصدرت عن القصر أخيراً رسالة موجهة للإمام تدعوه إلى الحضور ، وقد سطّر الرسالة الكاتب العربي البليغ إبراهيم الصولي فجاءت مهذبة إلى حدٍّ كبير .

ويذكر الطبري وصول الإمام الهادي عليه السلام إلى سامراء في سنة **٢٣٤**هـ فيما تشير مدونات الإماميّة أنّ رسالة الصولي موقعة بتاريخ **٢٤٣**هـ ، ولعلّ في كتابة التاريخ الأخير خطأ في تقديم وتأخير عدد الآحاد والعشرات .

وكجملة اعتراضية نسجّل ظهور تيارات فكرية تبتعد وبنسبة ما عن جوهر التوحيد الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله .

فهناك داخل الكيان الشيعي تفكير انحرافي يحاول طرح الأئمّة كأرباب أو على الأقل انّ الله سبحانه فوّضهم قدرة الخلق والرزق ، وهو تيار حاربه الإمام

علي الهادي عليه السلام بكل ما أُوتي من قوّة .

كما تصدّىٰ لتيار المجسّمة الذي يصوّر الله بصورة البشر له جسم وأطراف .

والتيار الأخير سيكون تحت مظلّة الاتجاه الفكري الذي تدعمه الدولة الجديدة بعد إقصاء المذهب المعتزلي .

إنّ طريقة استقبال المتوكل للإمام الهادي عليه السلام تكشف حقيقة ونـوايـا السـلطات ازاءه ، فقد تعمد المتوكل عدم استقباله بالرغم من اطّلاعه على وصوله ، واضـطرّ الإمام عليه السلام ليمضي ليلة وربّما أكثر في خان الصعاليك ، بل إنّ الرواية التاريخية التي سجّلت ذلك تشير بقوّة ، إلى أن نزول الإمام عليه السلام في خان الصعاليك كان بأمر مـن المتوكل ، فالامام عليه السلام لا يعدم وجود شيعي يستقبله في منزله ، وربّما يمكنه العودة إلى بغداد فهي ليست بعيدة ، ولكن الإمام في جميع الأحوال لم تكن لديه خيارات .

ونحن نذكر ذلك لنثبّت من الآن سياسة رهيبة سوف تتطور من سيّء إلى أسوأ ، وأن حياة الإمام الهادي عليه السلام لم تكن عادية على الاطلاق ، بل تحكمها قوانين الإقامة الجبرية والحصار والجوّ الجاسوسي والتآمر ومحاولات دنيئة للانتهازيين من الذين يهمّهم الارتقاء والاثراء ولو على جماجم الأحرار والأبرياء .

وعلى أية حال حصل اللقاء المرتقب ودار فيه هذا الحوار : قال المتوكل : ما يقول أبناء علي في العباس ؟ أجاب الإمام عليه السلام : **ماذا تريدهم يقولون في رجل أمر الله الناس بإطاعة أولاده وينتظر من أولاده أن يطيعوا الله ! ؟**[1] .

دار الإمام عليه السلام

ونعبر هذا الحوار إلى أول معلومة هامّة وردت في التاريخ حول الدار التي قطنها

(١) كشف الغمّة : ١٦٨/٣ . تاريخ الإسلام / الذهبي : ١٩٩/١٨ . بحار الأنوار : ٢٠٦/٥٠ ، الحديث ٢١ .

الإمام عليه‌السلام في سامراء .

فقد أورد الخطيب البغدادي في تاريخه وفي ترجمته لحياة الإمام الهادي عليه‌السلام « أنه اشتراها من دليل بن يعقوب النصراني »[١] ولم ينتقل منها وتوفّي فيها ودفن .

ويورد التاريخ معلومة اُخرى هي أنه دفن في وسط الدار ، ودفن إلى جانبه فيما بعد نجله الحسن ، ثمّ نرجس ، وحكيمة ، وزوجته التي هي جدّة الإمام المهدي عليه‌السلام .

ومن المفيد أن نورد نصاً من كتاب رحلات السيّد محسن الأمين العاملي ما يعيننا في تصوّر عام لدار الإمام عليه‌السلام : « .. وسمّيت في أول الأمر (سرّ من رأى) ثمّ خفّفت فقيل : سامراء ، وتسمىٰ أيضاً « العسكر » لإقامة عسكر المعتصم فيها ، وفيها قبر الإمام علي بن محمّد الهادي وابنه الحسن بن علي العسكري عليهما‌السلام . كان استدعاهما ملوك بني العباس إليها وأجبراهما على الإقامة فيها خوفاً منهما أن ينازعاهم في الخلافة لاعتقاد جمع من الناس بإمامتهما وميل جميع الناس إليهما ، فماتا بها ودفنا في دارهما . وفيها قبرا حكيمة أخت علي الهادي ، ونرجس زوجة الحسن العسكري واُمّ المهدي ، وعلى الجميع قبة عظيمة كسيت بالذهب الإيريز كأنها الجبل الشاهق . وفيها السرداب المسمىٰ بسرداب الغيبة ، وهو سرداب الدار التي سكنها العسكريان عليهما‌السلام ، وذلك أن اتخاذ السراديب أمر متعارف في العراق ، يتقي به الأئمة الحرّ في وقت الظهيرة ويقيمون فيه ذلك الوقت .

وكان له طريق تحت الأرض من دار الإمامين التي هي محل دفنهما ، وبقي هذا الطريق بعد دفنهما فيها فكان الزوار يخرجون من الحفرة الشريفة في ذلك الطريق حتى يصلوا إلى باب السرداب فيدخلوه ، كما تدلّ على ذلك بعض كتب المزارات ، سدّ ذلك الطريق وفتح للسرداب باب ملاصق له ، وصار يمشى إليه من الحضرة الشريفة على وجه الأرض .

---

(١) تاريخ بغداد : ١٢/٥٧ ، الرقم ٦٤٤٠.

والسرداب أظنه لفظ مركّب من « سرد » وهي بالفارسية بمعنىٰ بارد ، و « آب » بمعنىٰ ماء أي مبرّد الماء »[١] .

فالمصادر التاريخية والجغرافية تؤكد أن قبور أهل الدار كانت في حجرة في الدار ، وأن السرداب جزء من مرافق الدار .

وأنه بدأ الاهتمام بالدار كأثر مقدّس بعد وفاة المعتضد (**٢٧٩ ـ ٢٨٩**) بل إنّ الأخير ورد اسمه في مدوّنات الإماميّة باعتباره الخليفة الوحيد الذي نظم حملتين للقبض على الإمام المهدي أو اغتياله .

وما يهمنا أن نعرف أن المسافة بين السرداب وضريح الإمامين تقدّر (**٨٠ ـ ٩٠**)م والمسافة يمكن قياسها بدقّة .

وبناء على فرضية أن السرداب أيضاً لا يوجد في الطرف القصي ، بل إنّ خرائط القصور السامرائية تجعله في مكان على محور وسط الدار .

وهنا نذكّر بالمعلومة التي وردت في كتب التاريخ حول « دليل بن يعقوب » الذي أسند إليه المتوكل مشروعه الجبار في شق نهر من دجلة لمدينة المتوكلية شمال سامراء على مسافة أربعة أميال عربية (**٨**كم) تقريباً .

كما أن شق القنوات الجوفية (الكهاريز) من دجلة لتغذية القصور والمساجد بالمياه أمر يتفق عليه الجميع .

ونتصوّر من خلال دراسة بعض الروايات التي تصوّر الحفلات الصيفية التي تقام في القصر السامرائي بهذه الهيئة .

إن الباب الرئيسة تفضي إلى رواق وبهو واسع وإلى ستائر وحجرات في منعطفات موزعة بعدها يأتي مدرج يهبط إلى باحة الدار حيث الحديقة وربما بركة مياه

---

(١) رحلات السيّد محسن الأمين العاملي : ١٢٤ ـ ١٢٦ . ط . دار الغدير ـ بيروت .

ومصطبة صخرية يجلس عليها أهل الدار .

وتكون الحديقة بمستوىٰ أرضية السرداب تقريباً ، والسرداب يجهز في الغالب بـ« كهريز » (خاص بالقصور الكبيرة) ولأن صاحب دار الإمام عليه‌السلام الأصلي هو دليل ابن يعقوب فمن المنطقي جداً وجود كهريز يدخل السرداب من خلال سدّاد متحكّم ثمّ يفضي الماء بعد ذلك إلى الحديقة .

ونحن نجد في ترجمة الإمام الهادي عليه‌السلام أنه عنّف غلاماً لأنه دفأ له ماء الوضوء ، والرواية تورد في طياتها صعوبة في إحضار الماء[١] .

كما نجد في ترجمة معز الدولة البويهي أنّه استكمل بناء الحمداني ناصر الدولة في عمارة القبة والسرداب وملأ البئر التي كان العسكري عليه‌السلام يتوضأ بها أحياناً .

ومن المحتمل أن يكون البئر حوضاً صغيراً داخل السرداب يستمدّ مياهه من القناة الجوفية .

فتقديرات أولية لمساحة الدار قد تصل به إلى أكثر من ١٥/٠٠٠م٢[٢] .

ومع أن هذه الدار تعدّ من القصور ولكنّ السيرة الذاتية للإمام عليه‌السلام والتي تؤكد زهده وتسجّل أحياناً خلوّ الحجرات حتى من البُسط والسجّاد تكاد تصرّح بأن الإمام عليه‌السلام إنّما اشترىٰ هذه الدار الفخمة جداً لأهداف تختلف تماماً عن غايات سكان القصور فما هي أهداف الإمام عليه‌السلام ؟

ولنسجّل في هذه المناسبة ثلاث علامات تعزّز الفكرة هي :

أوّلاً : إنّ الإمام عليه‌السلام لم يتحول عنها برغبة منه أو استجابة لضغوط اُخرى ،

---

(١) بحار الأنوار : ٥٠/١٢٦ .

(٢) عن إسحاق الجلّاب قال : « اشتريت لأبي الحسن غنماً كثيرة ، فدعاني إليه فأدخلني من اصطبل داره إلى موضع واسع لا أعرفه فجعلت اُفرّق الغنم فيمن أمرني به . . » بحار الأنوار : ٥٠/٣٢ .

وما تزال كما هي الآن باسم الإمام بعد أن استحالت إلى قباب ومنائر وآثار خالدة .

ثانياً : إنّ الإمام عليه السلام قاوم بشكل يلفت النظر ضغوط المتوكل وتهديداته بإخلاء الدار والانتقال إلى المتوكلية ، بل إنّ الإمام لم يشرع ببناء داره الجديدة في المتوكلية بالرغم من تهديدات المتوكل التي توعدته بالقتل ، ومن المحتمل أن يكون تاريخ ذلك بين **٢٤٥ ـ ٢٤٧**هـ أي منذ انتقال المتوكل إلى قصره الجديد « الجعفري » وإلى مصرعه في الخامس من شوال **٢٤٧**هـ.

ثالثاً : إنّ الإمام عليه السلام قاوم وبشدّة أيضاً ضغوط أحمد بن الخصيب رئيس الوزراء في حكومة المستعين .

وقد قام الأتراك بطرده من رئاسة الوزراء ونفيه إلى جزيرة كريت في البحر الأبيض المتوسط وإسناد المنصب إلى ضابط تركي هو « أوتامش » وذلك في سنة **٢٤٨**هـ وقبل أيام فقط من إقدام الخصيب على تنفيذ تهديداته بشأن الدار وإجبار الإمام عليه السلام على بيعها .

ونشير هنا إلى أن مثل هكذا دار كبيرة ستكون جاهزة لاستحداث ممرات تحت الأرض وأنفاق .

وسنرى الطبري عندما يؤرخ سنة **٢٥٥**هـ وهي السنة التي شهدت الانقلاب العسكري على الخليفة المعتز وهو ابن المتوكل من زوجته اليونانية « قبيحة » وعندما حوصرت قصور الخلافة وبالتحديد القصر التي تقطنه هذه المرأة الغامضة بغية إلقاء القبض عليها ومصادرة كنوزها الأُسطورية أنّها أفلتت من قبضة الجنود الأتراك عبر نفق تحت الأرض يبدأ من غرفة نومها إلى مكان خارج أسوار القصر بعيد عن العيون .

وسوف نتوقف أيضاً لدىٰ هذه النقطة عندما نستعرض بعض النقاط في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام .

أوراق من تاريخ الرومان

هناك أكثر من علاقة تربط بين مسألة المهدي والمسيح والمسيحية والرومية .

ونحن نسجّل باختصار ما يتعلق بصميم البحث :

رواية سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **... لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتىٰ يخرج ولدي المهدي فينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلّي خلفه ، وتشرق الأرض بنور ربّها** »(١) .

عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **المهدي من ولدي ، وجهه يتلألأ كالقمر الدريّ ، اللون لون عربي والجسم جسم إسرائيلي** »(٢) .

وفي هذا إشارة ضمنية إلى أن المهدي يرث عن والدته صفات بني إسرائيل في القامة .

ومدوّنات الإماميّة تؤكد أن والدة الإمام المهدي عليه السلام هي السيّدة « مليكا » التي أخفت اسمها الحقيقي وعرفت باسم « نرجس » وأنها إحدىٰ أميرات الرومان في القصر الامبراطوري في القسطنطينية .

رواية تاجر الرقيق بشر بن سليمان النخّاس

الرواية وردت في كتب الإماميّة المعتبرة في «كمال الدين» للشيخ الصدوق ، وكتاب « الغيبة » للشيخ الطوسي ، وسنشير إلى أهم المعلومات فيها :

بشر بن سليمان النخّاس من أصول أنصارية يقطن سامراء ، وهو جار للإمام الهادي عليه السلام تعلّم على يديه فقه الرقيق والتجارة المشروعة فيه .

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة : ٢٨٠ ، الحديث ٢٧ . بحار الأنوار : ٥١/٧١ ، الحديث ١٢ .

(٢) البيان في أخبار صاحب الزمان / الكنجي : ١١٨ .

الإمام عليه السلام يرسل كافوراً في المساء لاستدعاء تاجر الرقيق ويحضر الرجل في الوقت المناسب .

الإمام عليه السلام يكلّفه شراء جارية بمواصفات محددة ، إنّ جوّ الروايات التي أشارت إلى هذا الموضوع توحي بأن الإمام الهادي عليه السلام قام بذلك بُعيد انتهاء الحرب الأهلية (**٢٥١ ـ ٢٥٢**هـ) ، ومن المحتمل أن يكون ذلك بين عامي **٢٥٣ ـ ٢٥٤**هـ .

أي في الوقت الذي استأنفت فيه بغداد حياتها العادية من جديد بعد حرب أهلية مدمّرة .

وتمّ الشراء في مكان قرب معبر الصراة ، وهو نهر يتفرع من دجلة في بغداد ، وهنا تأتي رواية الفتاة للنخّاس في قصّتها المثيرة .

- اسمها الحقيقي « مليكة » بنت يشوعا ابن قيصر الروم ، وأُمّها من نسل الحواريين وبالتحديد من نسل شمعون وصيّ السيّد المسيح .
- أراد جدّها تزويجها إلى أمير من أُمراء القصر وحدث ما ألغى الزواج .
- ترى الفتاة رؤيا عجيبة إذ يخطبها النبيّ العربي محمّد صلى الله عليه وآله لأحد أبنائه من السيّد المسيح .
- تصاب بالحمّى بسبب تلك الرؤيا المثيرة وبسبب حبّها للفتى الأسمر الذي خُطبت له .
- إنّها فتاة عاقلة ومثقفة تعرف العربية وتتعاطف إلى حدّ ما مع الأسرى المسلمين .
- تخطط الفتاة للسفر إلى بغداد عن طريق الاشتراك في الحرب ووقوعها ضمن أسرى الحرب ، وهذا ما حصل ، وعندما سُئلت عن اسمها قالت . . « نرجس » وهو اسم الجواري ، وهكذا أخذت طريقها إلى سوق الجواري ، وهي سوق رائجة آنذاك .

ونورد هنا بعض التفاصيل على الجبهة الشمالية والشمالية الشرقية حيث تتبادل

الجيوش الإسلاميّة والروميّة الغارات والهجمات .

ويمكن متابعة مسلسل الغارات والاشتباكات منذ فـتح عـمورية لتأخـذ شكـلاً عنيفاً في عهد الامبراطورة تيودورا الوصية على عرش ابنها القاصر ميخائيل الثالث ، ونحن نركز على اشتباكات السنوات **٢٤٩ ـ ٢٥٣** وهي مثبتة في التاريخين الإسلامي والرومي .

وفي سنة **٢٥٣**هـ **٨٦٧**م وقع حادث هام له أكثر من دلالة وهـو قـيام « بـاسيل » بمحاولة انقلابية خطيرة أنهىٰ فيها حكم الأسـرة العـمورية ومـؤسساً لحكـم أُسـرة جديدة هي « الأُسرة المقدونية » فلنقرأ هذه الصفحات من تاريخ الرومان :

« وهكذا نمرّ بنقفور الأوّل (**٨٠٢ ـ ٨١١**) وحروبه مع هارون الرشيد ، وميخائيل الأوّل (**٨١١ ـ ٨١٣**) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هـزموه ، وليـو الخـامس الأرمني (**٨١٣ ـ ٨٢٠**) الذي حرّم مرة أُخرى عبادة الصور و التماثيل والذي اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة ، وميخائيل الثاني (**٨٢٠ـ ٨٢٩**) الأمي « المتلجلج » الذي عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يـتزوجها ، وثـيوفليس (**٨٢٩ ـ ٨٤٢**) المشرع المصلح ، والملك البناء ، والإداري الحي الضمير الذي أحيا سنّة اضطهاد محطمي التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته تيودورا التي حكمت البلاد نيابة عنه حكماً قديراً (**٨٤٢ـ ٨٥٦**) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكّير » (**٨٤٢ ـ ٨٦٧**) الذي أسلم الامبراطورية بعجزه اللطيف إلى أُمّه أوّلاً ثمّ إلى قيصر بارداس **Caesar Bardas** عمّه المثقف القدير بعد وفاتها [١] . ثمّ تظهر على

---

(١) ورد في تاريخ الطبري حوادث سنة ٢٤٦هـ ما يلي : « وذكر عن نصر بن الأزهر الشيعي ـ وكان رسول المتوكل إلى الروم في أمر الفداء ـ أنه قال : لمّا صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي فجرتْ بـيني وبـين خـال المـلك بطرناس المناظرة ـ وهو القيّم بشأن الملك . . » .

المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية.

فقد ولد باسيل المقدوني بالقرب من هدريا نوبل **Hadriaople** من أُسرة أرمنية من الزراع. وأسره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب في البلاد التي كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية. ثمّ فرّ منهم وهو في الخامسة والعشرين من عمره، واتّخذ سبيله إلى القسطنطينية، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائساً لخيوله لأنه أُعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه. وصحب سيّده في بعثة إلىٰ بلاد اليونان، وهناك استلفت نظر الأرملة دنيليس **Danielis** وحصل على بعض ثروتها.

ولما رجع إلى العاصمة روّض جواداً جموحاً يملكه ميخائيل الثالث، فأدخله الامبراطور في خدمته، وظلّ يرتقي فيها حتى صار رئيس التشريفات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة. وكان باسيل على الدوام قديراً فيما يوكل إليه من الأعمال، سريع الاستجابة لها؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجاً لعشيقته، طلق باسيل زوجته القروية، وأرسلها إلى تراقيه مع بائنة طيبة، وتزوج يودوسيا **Eudocia** التي ظلت في خدمة الامبراطور.

وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقته، ولكن المقدوني ظنّ أنّه يستحّق العرش جزاء له على فعلته، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه، ثمّ قتل بارداس بيديه الضخمتين (**٨٦٦**)، وكان ميخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل امبراطوراً وترك له جميع شؤون الحكم. ولمّا هدّده ميخائيل بعزله، دبّر باسيل اغتياله وأشرف على هذا الاغتيال بنفسه، وانفرد هو بالامبراطورية (**٨٦٧**)[١].

---

(١) قصة الحضارة / ول ديورانت: ج٣ مجلد ١٦٢/٤ ـ ١٦٤.

لنسجّل بعض النقاط المفيدة باختصار:

- وفاة تيوفئيل سنة **٢٢٧**هـ- **٨٤١**م وهي سنة وفاة المعتصم أيضاً، وتيوفئيل ولد في عمورية التي سقطت في قبضة الجيش الإسلامي **٢٢٣**هـ- **٨٣٧**م.

- يتربع على العرش ابنه القاصر ميخائيل الثالث (٦ سنوات) فيتألف مجلس للوصاية برئاسة أمّه تيودورا وخاله قيصر بارداس (Caesar Bardas).

وتنفرد الأُمّ بالحكم مدّة ١٤ سنة تشنّ خلالها حروباً عنيفة ضد الدولة الإسلاميّة وتقدم على ارتكاب مذبحة مروعة بحقّ الأسرى المسلمين راح ضحيتها ١٢/٠٠٠ مسلم[١].

في عام **٨٥٦**م قام أخوها قيصر بارداس باعتقالها وأجبرها على دخول الدير..

ويسجّل التاريخ وفاتها في سنة **٨٦٧**م أي في سنة الانقلاب العسكري بقيادة باسيل الذي ذكر التاريخ الروماني جانباً من أخلاقه فهل كانت الوفاة طبيعية وحدثت تصادفاً في نفس العام؟!

- إنّ بارداس بعد اعتقاله أُخته وزجّها في الدير أصبح هو الحاكم الفعلي للامبراطورية يعني أصبح هو القيصر، ولا ننسى ان التاريخ ذكره بهذا الاسم أيضاً.

يمكن إجراء تطبيق بين هذه المعلومات ومفادات رواية السيّدة نرجس[٢].

---

(١) ولعل هذه الحادثة المروّعة هي التي دفعت بـ«قيصر بارداس» إلى اعتقالها بعد أشهر، وحادثة قتل الأسرىٰ ذكرها الطبري في حوادث سنة ٢٤١هـ.

(٢) يستبعد المستشرق دونا لدسون أن تكون زوجة الإمام الحسن عليه السلام إحدىٰ أميرات الروم وانّها ابنة يشوع ابن امبراطور الروم، وان هذه القصّة قد وضعت لتؤكد على نبل الإمام (المهدي) من جميع الجهات، لكنه لم يستبعد انّها كانت من بين أسيرات الحرب في جبهات الامبراطورية البيزنطية اللواتي جيء بهن إلىٰ أسواق النخاسة جاريات في بيوت»

- وجود شخصيّة اسمها قيصر بارداس وهو الامبراطور الفعلي للبلاد وهو ما تذكره رواية السيّدة صراحة .

- في عام ٨٦٧م ٢٥٣هـ يقوم باسيل المقدوني بقتل قيصر بارداس ثمّ اغتيال ميخائيل الثالث وإعلان نفسه امبراطوراً جديداً منهياً بذلك حكم الأُسرة العمورية ؛ وباسيل كما سجّل التاريخ شخصية أُمّية ، عنيفة ودموية .

إنّ تشتّت الأُسرة العمورية يعزز من تشرّد وفرار أميرات القصر . . كما أن ظهور السيّدة نرجس في نفس عام الانقلاب العسكري وفي نفس الفترة التي شهدت اشتباكات ضارية وفي نفس الفترة التي تشير إليها رواية « بشر بن سليمان النخّاس » وتعرّف الإمام الحسن عليه السلام على الفتاة في منزل عمّته يعزز من مفاد رواية السيّدة نرجس باعتبارها إحدىٰ سيّدات القصر وأميراته وأنّها وصلت بغداد على قدر .

وقصّة الإمام المهدي عليه السلام ليست عادية ، بل إنّها وحسب أدبيات هذه المسألة خلاصة لقصص الأنبياء بكل ما تتضمنه من معجزات وإثارات ، وقد أشارت كثير من الأحاديث إلى أوجه الشبه بين الإمام المهدي عليه السلام وعدّة من الأنبياء .

ونستطيع أن نناقش رؤيا السيّدة نرجس في ضوء ما ورد في القرآن الكريم من قصص مثيرة جداً تشكل الرؤيا فيها ركناً مهمّاً وليس هناك ما هو أجلىٰ من سورة يوسف التي تشكل الرؤيا فيها الخيط المحوري على امتداد القصة والسورة ، فالقصّة تبدأ برؤيا الكواكب وتنتهي بتفسير هذه الرؤيا وخلالها ترد رؤيا الملك التي وضعت الأحداث في مسار أكثر إثارة .

» علية القوم من المسلمين / موسوعة العتبات المقدسة ـ سامراء : ٢٧٦ . . . إنّ مدونات الإماميّة التي أوردت تراجم أُمهات الائمّة عليهم السلام وأغلبهن من الجواري لم تذكر ذلك إلّا لأُمّ السجاد علي بن الحسين عليه السلام (أُمّه شهربانو ابنة يزدجرد آخر أكاسرة إيران وأُمّ الإمام المهدي وهي من أميرات الروم) ولم تعتمد ذلك قانوناً لتشريف الأئمّة بأنساب مخترعة .

فرؤيا السيّدة نرجس إذا ما وضعت في الجوّ العام الذي يؤطّر حركة الرسـالات الإلـهيّة ستبدو أكثر انسجاماً ، والقرآن الكريم يزخـر بـالشواهـد المـتألقة فـي هـذا المضمار ، فموسىٰ عليه السلام ولد وعاش وترعرع في أجواء مـثيرة لا تـحتاج إلى شـرح ، والسيّدة مريم جاءت إلى الدنيا بلطف إلهي .

وعيسىٰ ابنها ولد عند جذع النخلة معجزة في الخلق . .

وسيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله هو ابن الذبيحين فلم يكن بين إسماعيل والذبح إلّا لحظات انفتحت فيها السماء ، وكاد أبوه عبدالله أن يذبح ، وكاد هـو أن يـقتل فـي هـجرته ولم يكن بينه وبين سيوف قريش سوىٰ خيوط العنكبوت .

ومن قبل هوىٰ إبراهيم وهو أبو الأنبياء في قلب النار فجعلها الله برداً وسلاماً .

وشاء الله أن تكون السيّدة مليكة أو نرجس اُمّاً للمصلح العالمي . . دفع الله عنها زواجاً لم تكن راغبة فيه وقدّر لها زواجاً آخر بعد حين ، وشاء الله لها النجاة من القتل في حوادث الانقلاب العسكري الذي راحت ضحيته الاُسرة العمورية الحـاكـمة ، وشاء الله لها أن تصل بغداد ثمّ سامراء في رحلة مثيرة لا نعرف تفاصيلها .

فالامام الهادي عليه السلام انتخب لابنه فتاة نبيلة من سلالة الحواريين ومع ذلك فيجب ألّا يكون للصبيّ الموعود أخوال يسألون عنه ، ولذا ستعيش الفتاة في الظـلّ كأيـة جارية أجنبية مع أنّها سيّدة الإماء ، كما ورد في الروايات [(١)] .

سامراء . . مشهد ما قبل الولادة

البلاط في مطلع عام ٢٥٣هـ تقوده قدرة غـامضة مـؤلفة مـن اُمّ الخـليفة المـعتز

---

(١) الإمامة و التبصرة : ٧. كمال الدين وتمام النعمة : ٣١٦، الحديث ٢ و : ٣٤٥، الحديث ٣١ و : ٣٦٩، الحديث ٦ و : ٣٧٢، الحديث ٥. كـفاية الأثـر : ٢٢٦ و ٢٧١ و ٢٧٥. دلائـل الإمامة : ٣٠٨، الحديث ٢٦٠. الاحتجاج : ١٠/٢. مشكاة الأنوار : ٩٠.

« قبيحة » وهي زوجة الخليفة الذي لقي مصرعه في انقلاب سنة **٢٤٧**هـ، يعاونها الوزير النصراني الأصل ابن إسرائيل وأبو نوح ، وهو غلام نصراني كانت له علاقة قوية بالمتوكل واستطاع الفرار عشية مصرع المتوكل .

كانت سياسة المعتز تنهض على أساس تصفية أعداء والده وخصومه أياً كانت اتجاهاتهم ، ولذا قام بترقية الضباط المغاربة الذين أصبحوا عماد حرسه الخاص .

فيما عمّت موجة من الاعتقالات بغداد وسامراء طالت عشرات العلويّين أو ممّن تُشمّ فيهم رائحة الولاء لأهل البيت عليهم السلام ، وكان في طليعة من اعتقل أبو هاشم الجعفري بأوامر شخصية من المعتز بذريعة أن البلاط يفكّر في إرساله إلى « طبرستان » للتفاوض مع الثائر العلوي « الحسن بن زيد » وتهدئة القلاقل هناك ، فنقل مخفوراً إلى سامراء وزجّ به في سجن خاص[1] .

في تلك الفترة ـ كما قلنا ـ وصلت السيّدة نرجس سامراء واستقبلت من قبل الإمام الذي أرسل وراء أُخته حكيمة وأطلعها على وصول الفتاة وطلب منها أن تأخذها إلى منزلها لتعلّمها شريعة الإسلام .

ومكثت الفتاة في منزل السيّدة حكيمة شهوراً ويراها الإمام الحسن عليه السلام في أُخريات عام **٢٥٣**هـ أو مطلع عام **٢٥٤**هـ وتورد الروايات تفاصيل عن لقاء غير عادي بين سيّدنا الحسن عليه السلام والسيّدة نرجس .

وتستأذن السيّدة حكيمة أخاها في إجراء مراسم الزواج في منزلها ، وبعد أيام يصطحب الإمام الحسن زوجته الرومية إلى منزل والده الكبير .

ونستطيع أن نحدس موقف البلاط من العلويّين من خلال تعيين ابن أبي الشوارب رئيساً لسلطة القضاء ، وهو رجل معروف بموقفه العدائي التقليدي للعلويين[2] .

---

(١) و (٢) تاريخ الطبري : ٧/٥١١ ـ ٥١٢ ، حوادث سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

في **٢٥** جمادى الآخرة توفّي الإمام علي الهادي عليه السلام وحضر مراسم العزاء نـائباً عن الخليفة طلحة بن المتوكل الذي عرف بالموفّق منذ سقوط بغداد بعد حصارها سنة **٢٥١**هـ وطلحة سيكون هو الحاكم العسكري العام مـنذ مـصرع المـهتدي فـي سنة **٢٥٦**هـ وسيتولّىٰ ابنه الخـلافة وسـيعرف فـيما بـعد بـ« المـعتضد » سـنة **٢٧٩**، والأخير هو الذي ذكرته مدوّنات الإماميّة بتنظيمه حملتين لاعتقال أو اغتيال مـن يوجد في بيت الإمام الهادي عليه السلام .

أفرزت الحرب الأهلية وضعاً قلقاً متوتراً في سامراء اتّسم بالقلاقل التي عادة ما يثيرها الضباط الأتراك الذين شهدت جبهتهم انشقاقات خطيرة وتـناحر مـن أجـل أسلاب الحكم والمزيد من النفوذ .

وفي سنة **٢٥٥** شهدت ميزانية الدولة عجزاً في صرف مرتبات الجيش ، ويعود هذا في الأصل إلى اختلاسات الطغمة الحاكمة بقيادة زوجـة المـتوكل التـي تـعد الحاكم الفعلي للبلاد يعاونها كما ذكرنا مجموعة من الاداريين الغامضين مثل ابـن إسرائيل وأبي نوح عيسى بن إبراهيم الذي ظلّ مصرّاً على نصرانيته .

في جمادى الآخرة سنة **٢٥٥**هـ قام صالح بن وصيف بعملية انقلابية وسيطرت قوّاته على قصر الخليفة المعتز الذي نقل إلى مكان مـجهول فـيما فـرض الحـصار الشديد على قصر والدته الثرية جدّاً [1] .

وعقد صالح بن وصيف تحالفاً مع ضابط تركي قوي هو « بايكباك » وفـي تـلك الفترة انتشرت في أوساط الشيعة شائعات قوية عن نيّة السـلطات فـي اصـطحاب الإمام الحسن إلى الكوفة واغتياله في الطريق .

---

(١) بالرغم مما أورده التاريخ من مبرّرات ولكنّ السبب الرئيس يـعود إلى هـواجس الضـباط الأتراك من إجراءات انتقامية قد تقوم بها زوجة المتوكل من الذين اشتركوا في عملية اغتيال زوجها ، ولعلّ اعتراف ابن مخلد بوجود خطة لاغتيال « صالح بن وصيف » يعزز ذلك .

سنحاول متابعة تفاصيل هامّة منذ يوم **٢٦** رجب **٢٥٥**هـ، فقد انفجرت أزمة خطيرة هدّدت حكومة المعتز بسبب العجز والتسويف في دفع مرتّبات قطعات من الجيش واستنجد المعتزّ بوالدته التي امتنعت من دفع مبلغ **٥٠/٠٠٠** دينار وتذرّعت بأنها لا تملك هذا المبلغ ، وتعللت بأن أموال الدولة لم تصل بعد من الأقاليم ، لكنها في الحقيقة كانت قد أرسلت رسالة مستعجلة إلى موسى بن بغا في وقف العمليات الحربية في إيران والعودة بأقصىٰ سرعة لمعالجة الوضع الخطير المتفجّر في سامراء[١] .

وقبل أن يصل موسى بن بغا كان الوضع قد تدهور وأُلقي القبض على المعتز وتعرّض للتعذيب والاهانة ، ثمّ وقّع وثيقة التنازل عن الخلافة باكياً .

وتم تنظيم المحضر بإشراف رئيس سلطة القضاء ابن أبي الشوارب . .

وتضمنت الوثيقة تعهداً من الضباط الأتراك بالحفاظ على حياته وحياة والدته وشقيقته .

وضرب الحصار على قصر « قبيحة » ورابطت قوة من الجنود الأتراك على بوابات القصر .

وأُعلن في الثاني من شعبان عن وفاة الخليفة المخلوع ، وقبل الاعلان كان قد تم تسمية محمّد بن الواثق خليفة .

وعندما صدرت الأوامر باقتحام قصر قبيحة لمصادرة ممتلكاتها فوجىء الجميع باختفائها وفرارها عبر نفق .

وهكذا اختفت عن الأنظار ، فانتشر رجال الشرطة للبحث عنها كما رصدت جوائز مغرية لمن يدلّ عليها أو يقدّم معلومات تفيد في القبض عليها ، وأُنذر الذين

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٢٦/٧ ، حوادث سنة **٢٥٥**هـ.

يساعدونها في الاختباء بأقسى العقوبات .

على أن الشبهات كانت تحوم حول منزل تقطنه إحدىٰ زوجات القائد العسكري موسى بن بغا ، فوضع المنزل تحت المراقبة ، ولكن القائد وصيف كان يتهيب اقتحام المنزل خوفاً من خطوة انتقامية يقوم بها القائد موسى بن بغا الذي قد يصل سامراء بين لحظة واُخرى .

وانفجرت أزمة الجيش مرّة اُخرى بسبب عجز صالح بن وصيف عن دفع مرتّبات الجنود ، ولذا أقدم القائد العسكري الذي يحكم البلاد بقوّة بتعريض ابن إسرائيل وأبي نوح وابن مخلد للتعذيب فانهار الأخير واعترف بوجود خطة لاغتيال صالح بن وصيف بإشراف قبيحة وابن إسرائيل وأبي نوح (عيسى بن إبراهيم) وشاء القدر أن يتقدم أحدهم ليدلي بمعلومات حول وجود كنوز سرّية تعود لقبيحة فعثر عليها ووجدت أموال اُسطورية دفعت صالح بن وصيف للتصريح قائلاً : قبّح الله قبيحة عرّضت ابنها للقتل في خمسين ألف دينار وعندها هذه الأموال في خزانة واحدة من خزائنها ! (١).

وتم تنفيذ حكم الاعدام بحقّ ابن إسرائيل وأبي نوح ، فيما قرّرت قبيحة الظهور وأرسلت من مخبئها وسيطاً للتفاوض مع صالح بن وصيف .

ونسجّل هنا عدّة حوادث منها اندلاع ثورة الزنج في أهوار العراق واقتحام مدينة البصرة ، وتقدّم قوّات الصفّار باتجاه العراق ، واستمرار الاشباكات مع قوات الحسن ابن زيد العلوي الذي أسس دولة طبرستان في الشمال الايراني .

وقام الخليفة المهتدي (محمّد بن الواثق) بإجراءات لكسب التأييد الشعبي ، منها : ترحيل المطربين والمطربات إلى بغداد وإعدام بعضهن ، وطرد الكلاب ،

---

(١) تاريخ الطبري : ٧/٥٢٩.

وتعطيل الملاهي ،كما ترأس بنفسه محكمة الاستئناف ، وقد برّر كل ذلك بأنّه غيرة على العبّاسيّين لأنه لا يوجد بينهم من يسير بسيرة عمر بن عبدالعزيز[١].

ولا ننسىٰ أيضاً أنّه بإشرافه وبمباركته صودرت كل ممتلكات قبيحة وأبنائها والمقرّبين منها وتم ترحيلها إلى مكّة ، وقد سجّل الطبري صرخاتها الهستيرية وهي تودّع سامراء دون رجعة : اللّهمّ اخز صالح بن وصيف كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وبدّد شملي ، وغرّبني عن بلدي ، وركب الفاحشة مني[٢].

وإلى جانب هذه الاجراءات قام المهتدي بخطوات احترازية لتثبيت حكمه ، منها : إبعاد بعض الشخصيات العباسية في طليعتها طلحة بن المتوكل الذي اكتسب لقب « الموفق » منذ احتلال بغداد في الحرب الأهلية سنة **٢٥٢**هـ.

كما قام باعتقال الإمام الحسن عليه‌السلام وزجّه في سجن خاص مع تأكيدات بمعاملته معاملة قاسية ، وقد سلّم صالح بن وصيف الإمام إلى علي بن أوتامش المعروف بفظاظته وقسوته وعدائه للعلويين .

وقد تعرّض صالح بن وصيف إلى الانتقاد بعد أن وصلت القصر تقارير حول معاملة طيبة للإمام عليه‌السلام ، فقال القائد التركي : وماذا تريدوني أفعل لقد سلّمته إلى رجل ليست في قلبه رحمة ، ولكن ابن أوتامش لا يرفع الآن رأسه إجلالاً له[٣].

في ذي القعدة ساد التوتر سامراء بعد أنباء عن اجتياز موسى بن بغا وقواته مرتفعات همدان في طريقه إلى سامراء .

وتزامن ذلك مع توقيف ابن أبي الشوارب رئيس سلطة القضاء بتهمة الفساد[٤].

---

(١) تاريخ العبّاسيّين / ابن وادران : ٦٤٣.

(٢) تاريخ الطبري : ٥٢٩/٧.

(٣) الكافي : ٥٠٨/١.

(٤) تاريخ الطبري : ٥٦٧/٧.

ومع أن مدوّنات الإماميّة تذكر تاريخ ١٥ شعبان **٢٥٥** هجرية كأحد التواريخ التي ولد فـيها المـهدي عليه السلام لكــن الدارس لتــلك الحـقبة العـاصفة يستبعد ذلك لأن الإمام عليه السلام كان معتقلاً وقد نقل عنه حديثه مع أحد السجناء .

فقد سأل الإمام عليه السلام السجين : **هل رزقت ولداً ؟**

- لا .
- **اللّهمّ ارزقه ولداً يكون له عضداً فنعم العضد الولد .**

ثمّ تمثّل بقول الشاعر :

مـن كـان ذا ولد يـدرك ظـلامته   إن الذليل الذي ليست له عـضد

ويسأل السجين الإمام : **ألك ولد ؟**

- إي والله سيكون لي ولد يملأ الأرض قسطاً ، فأمّا الآن فلا .

ويبدو أن الإمام عليه السلام قد اعتقل سنتين ولم توجّه له اتهامات واضحة كما وجّهت لوالده الراحل .

ومن المؤكد أن أخـبار المـهدي الذي سـيولد قـد انـتشرت وأفـرزت هـواجس للمؤسسة الحاكمة .

ونرىٰ أن المهتدي يطلق تهديدات تتوعد الشيعة بالفناء[1] .

وقد تعرّضت مدينة قم وهي مركز شيعي ناشط لحملة اضطهاد دفـعت بأهـلها إلى إرسال صيحات استغاثة للإمام عليه السلام[2] .

ومن الاضاءات المفيدة أيضاً أن نذكر وصول قوات موسى بن بغا سامراء وتقدّمها لاحتلال قصور الخلافة ، قد زاد من إرباك الأوضاع ، ولا ننسى أن قوات الصفّار ما تزال تواصل تقدّمها ، وأن ثورة الزنوج باتت تشكّل تهديداً خـطيراً بسـبب سـرعة

---

(١) و (٢) حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام دراسة وتحليل / باقر شريف القرشي : ٢٥٢.

انتشار لهيب الثورة سيّما وأن قائدها أراد أن يضفي على نفسه المزيد من البريق بادّعائه الانتساب إلى أهل البيت عليهم السلام، إضافة الى الهزائم التي لحقت بالدولة في صراعها مع الروم، وسنرى أن مؤسسة الحكم تحرص على استصدار تصريح من الإمام عليه السلام لتكذيب هذا الادّعاء.

وفي يوم عاشوراء من سنة **٢٥٦هـ** كانت سامراء أشبه بمدينة محتلّة في قبضة قوات موسىٰ بن بغا فيما فضل صالح بن وصيف الاختفاء عن الأنظار.

وليس من باب الاعتباط أن يؤثر عن الإمام الحسن عليه السلام حرز تعكس كلماته خطورة الأوضاع التي عاشها الإمام عليه السلام ونجد فيه ما يدفعنا إلى التوقف مثل قوله:

«احتجبت بحجاب الله النور الذي احتجب به عن العيون....

واحتطت على نفسي وأهلي وولدي..»[(١)].

الولادة.. لماذا ١٥ شعبان ٢٥٦هـ؟

روايات كثيرة ذكرت سنة **٢٥٥هـ** باعتبارها العام الذي ولد فيه الإمام المهدي عليه السلام لكن الذي يتأمل تلك الفترة كما قلنا سوف يركن إلى تاريخ **١٥** شعبان سنة **٢٥٦هـ**، وإضافة إلى ما ذكرنا من أن الإمام عليه السلام كان في سنة **٢٥٥هـ** معتقلاً، وقد ورد عنه قوله أن سيكون له ولد فيما بعد فإنّنا نرى الإمام عليه السلام سوف يفرج عنه بعد مصرع المهتدي وبقاء البلاد دون تسمية خليفة جديد.

وهناك رواية تشير إلى أن الإمام عليه السلام قد تنبأ بمصير المهتدي الأسود بعد إطلاقه التهديدات بشأن الشيعة[(٢)].

ومسلسل الأحداث التي أدت إلى مصرع المهتدي يبدأ بمحاولة الخليفة التصدّي

---

(١) مهج الدعوات: ٤٤.

(٢) حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام دراسة و تحليل / باقر شريف القرشي: ٢٧٤.

للأتراك وضربهم معتمداً على مساندة قوات مؤلفة من قطعات من الأتراك والمغاربة ومعوّلاً على الاسناد الشعبي ، ولكن مع انفجار الوضع انحاز الأتراك الذين في جبهته إلى إخوانهم ، وفرّ المهتدي وتخلّىٰ عنه الجميع .

وقد سجّل الطبري صيحاته وهو يدور في شوارع سامراء وأزقّتها : يا معشر الناس ! أنا أمير المؤمنين . . قاتلوا عن خليفتكم ، ولم يكترث له أحد .

واتّجه إلى السجن وأمر بإطلاق السجناء متوقعاً عونهم ، ولكنّهم فضلوا الفرار واختفوا في الأزقّة القريبة ، وقد حصل ذلك في ١٣ رجب ٢٥٦هـ ، والقي القبض على الخليفة الهارب في نفس اليوم .

وفي يوم ١٦ رجب اُعلن عن تنصيب الخليفة الجديد الذي اُطلق سراحه من السجن ومنح لقب « المعتمد » .

وفي ١٨ رجب اُعلن عن وفاة الخليفة المهتدي وأن الوفاة كانت طبيعية ! !

ويبدو أن الضباط الأتراك كانوا ميّالين إلى تنصيب طلحة بن المتوكل « الموفق » ولكنه كان في منفاه في مكّة فاستعاضوا عنه بأخيه المعتمد رغبة في حسم الوضع القلق وإعادة الأمن إلى البلاد التي ما تزال تعصف بها أنباء الهزائم في الجبهة الشمالية مع الروم وزحف جيوش الصفار وأنباء ثورة الزنج المقلقة .

وسوف نرىٰ أن المعتمد سيكون إلى حدّ ما خليفة بالاسم ، وأن الخليفة الفعلي الحاكم للبلاد أخوه « الموفق » القائد العام للجيوش العباسية والحاكم العسكري .

وفي ٢ شعبان ٢٥٦هـ تم تنصيب « عبيدالله بن يحيى بن خاقان » رئيساً للوزراء[١] وهو شخصية إدارية استطاع أن يعيد إلى سامراء قدراً من الهدوء .

وعبيد الله بن يحيى سياسي قديم كان وزيراً متنفذاً في بلاط المتوكل وقد شهد

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٩٧/٧ .

مصرع الأخير ولم ينس بطبيعة الحال تلك الفترة العاصفة في سقوط الطاغية ونبوءة الإمام الهادي عليه السلام المشهورة ، ولذا رتّب علاقة طيبة مع نجله الإمام الحسن عليه السلام الذي سجّل له التاريخ نبوءة مشابهة بشأن المهتدي .

ولذا اكتفى القصر بمراقبة الإمام وإلزامه بالحضور إلى القصر مرّتين في الأُسبوع في يومي الاثنين والخميس[١] .

وفي مثل هذه الظروف ستكون ولادة الإمام المهدي عليه السلام في منتصف شعبان ٢٥٦هـ تموز عام ٨٧٠م وقتاً مثالياً جداً .

مشهد الولادة كما تصوّره السيّدة حكيمة

شمس غروب تموز[٢] تقرض المنازل بغلالة ذهبية وكانت نسائم نديّة تهبّ من ناحية دجلة ، وقد بدت المئذنة الملويّة تستعدّ لرفع الأذان .

انفتح باب منزل الإمام ليخرج خادم أسود تفوح منه رائحة المسك آخذاً سمته إلى منزل قريب هو منزل المرأة الصالحة حكيمة بنت الجواد عمّة الإمام الحسن التي ما انفكّت تتفقّد ابن أخيها وتزور زوجته الطيبة « نرجس » تلك الفتاة التي أمضت شهوراً طويلة في منزلها قبل أن تنتقل إلى منزل أخيها .

طرق كافور الخادم الباب على عمة الإمام قائلاً : إنّ سيّدي يقول : اجعلي إفطارك الليلة عندنا !

خفق قلب السيّدة لهذه الدعوة ، وشعرت أن أمراً مهمّاً يكمن وراء ذلك .

عندما غطست الشمس في بحيرة المغيب كانت السيّدة حكيمة تلج منزل ابن أخيها . . . المنزل تفوح فيه روائح وورود ربيعية . .

---

(١) تاريخ الغيبة الصغرىٰ : ٢٢٣.

(٢) وقعت حوادث هذا الفصل في تموز سنة ٨٧٠م شعبان سنة ٢٥٦هـ.

استغرفتها حالة فرح عندما استذكرت أنها ليلة جمعة حيث تحلو أحاديث السمر في سماء صيفية تزخر بالنجوم .

منذ أيام وهي لم تسعد برؤية فتاتها الطاهرة نرجس .

استقبل الإمام عمّته بابتسامة أضاءت وجهه الأسمر ، وهي أيضاً فرحت بلقاء ابن أخيها . . ولكنها سرعان ما شعرت بالألم لمنظر الشيب في ذقنه رغم أنه لم يبلغ الخامسة والعشرين من ربيع العمر !

نظرت في عينيه وقد تألق فيهما نور سماوي كانت تريد استكشاف ما وراء هذه الدعوة في هذا الوقت !

قال الذي عنده علم الكتاب : **إنها ليلة النصف من شعبان** . .

وأردف وهو ينظر إلى السماء : **وإن الله تبارك وتعالى سيظهر في هذه الليلة حجّته في الأرض** . .

والتفت إليها قائلاً بصوت فيه أصداء النبوءات البعيدة : **سيولد في هذه الليلة المولود الكريم على الله عزّ وجلّ . . الذي يحيي الله به الأرض بعد موتها** .

كانت حكيمة تتوقّع ذلك منذ أمد ولكن التوقيت أدهشها لأنها كانت تتفقد جواريه فلعلّ « نسيم » أو « ماريا » قد حملت منه . . وعهدها بنرجس قبل أيّام قالت بلهجة فيها تساؤل مشوب بدهشة : ومن أُمّه ؟ !

- **نرجس**

- نرجس ؟ ! فداك يابن أخي ما بها من أثر .

قال الذي مسّته السماء بالطهر : **هو ما أقول لك !**

وجاءت نرجس تستقبل المرأة التي علّمتها كلمة الإسلام : يا سيّدتي وسيّدة أهلي ، كيف أمسيت ؟

عندما وقعت عينا حكيمة على « نرجس » خفّت إليها وعانقتها قائلة : بل أنتِ سيّدتي وسيّدة أهلي !

غمرت الدهشة وجه نرجس البريء : ما هذا ، يا عمّة ؟ !

وانحنت لتخلع خفّي المرأة الصالحة التي تشعر قربها بالسكينة : ناوليني خفّك يا سيّدتي ؟ !

قالت السيّدة حكيمة وقد أشرقت الفرحة في عينيها : بل أنت سيّدتي ومولاتي . . والله لا أدفع خفّي لتخلعيه ، ولا لتخدميني . . بل أنا أخدمك على بصري !

ارتسمت في عيني نرجس النجلاوين علامات سؤال كبرى ، ورمقت بإجلال زوجها العظيم الذي ابتسم قائلاً: **جزاك الله ياعمّة خيراً !**

وقادت السيّدة حكيمة نرجس إلى الحصير وقد غادر ابن أخيها المكان . . قالت وهي تقبل على الفتاة بفرح : يا بنيّة ، إنّ الله سيهبُ لك في هذه الليلة غلاماً سيّداً في الدنيا والآخرة .

وأطرقت نرجس وقد تورّدت وجنتاها بوهج الحياء .

القمر يتألق في سماء بهية مغمورة بنور شفيف ، وكانت السيّدة حكيمة قد تناولت إفطارها بعد أداء فريضة العشاء وأخذت مضجعها تسبّح الله وتحمده . . وبقربها رقدت السيّدة نرجس . . أمّا الإمام فقد أخذ مضجعه فوق صفّة في فناء البيت . .

عيناه تسافران عبر المديات البعيدة حيث تومض النجوم في سامراء غارقة في هدأة الليل والمنارة الملويّة تبعث ضوءاً خابياً يرشد القوافل المسافرة . .

البدر ما يزال بهياً في الهزيع الأخير من الليل ، وقد كفّت الذئاب البعيدة عن العواء .

استيقظت السيّدة حكيمة كعادتها في مثل هذا الوقت لأداء صلاة الليل .. ونهضت تسبغ وضوءها .. ألقت نظرة على نرجس كانت تغفو بسلام .. أنفاسها منتظمة ووجهها الملائكي يعكس ما تزخر به أعماقها من طهر ونقاء ..

كان الإمام قد استيقظ وأسبغ وضوءه لرحلة الليل يرافق القمر والنجوم .. قلبه يطوف السماوات البعيدة .. لم يكن الإمام ذاق من النوم سوى لحظات .. وكيف له أن ينام وهو يترقّب ميلاد البشارة .. بشارة الرسالات القديمة ..

في هذه الليلة المباركة سيولد شبيه موسى بن عمران وعيسى بن مريم ..

أدّت السيّدة حكيمة وردها في غمرة الليل .. وعندما جلست تسبّح لله .. هبّت نرجس من رقادها تغمرها حالة من ذعر وترقّب ..

غادرت الحجرة تسبغ الوضوء لصلاة الليل ..

كانت السيّدة حكيمة تراقبها طوال الوقت ولم يكن يبدو عليها أيّ من آثار الحمل ..

الفتاة الطاهرة مستغرقة في العبادة وشلّال من الصلاة يتدفّق في جنبات المكان .. وقد غمرت الفضاء أنفاس السحر النديّة ..

لحظات السحر الأخيرة .. لحظات لا تنتمي لليل ولا للنهار ..

الفجر الأوّل على وشك الانفلاق .. وقد نفد صبر العمّة المؤمنة .. خرجت لتنظر إلى السماء وقد تداخلها شك في وعد الإمام ..

هتف الإمام من مصلّاه في فناء البيت وقد اشتدّ سطوع النجوم: **لا تعجلي يا عمّة .. فإنّ الأمر قد قَرُب !!**

وفيما هي تهمّ بالعودة ناداها الإمام: **لا تشكّي ..**

شعرت المرأة بالخجل من طبيعة مشاعرها وهي المرأة التي نشأت في دفء

أهل البيت . .

وفي باب الحجرة وقعت عيناها على نرجس مذعورة خاطبتها العمّة بلهفة : هل تحسّين شيئاً ، يا ابنتي ؟

- نعم ، يا عمّة ! إنّي أجد أمراً شديداً .

قالت حكيمة وهي تهدّئ من روعها : اسم الله عليك . . اجمعي نفسك . . . واجمعي قلبك . . فهو ما قلت لك . .

- أنا خائفة ، يا عمّة !!

- لا خوف عليك يا ابنتي .

وقادت السيّدة حكيمة الفتاة الطاهرة سليلة مريم البتول إلى وسط الحجرة .

وألقت لها وسادة وأجلستها برفق استعداداً للحظة الميلاد الموعودة . .

كانت السيّدة حكيمة في حال يرثى لها ، وعرق جبينها بسبب ما تبذله من جهد للسيطرة على مشاعرها التي راحت تضطرم في أعماقها . .

إنّ لحظات الميلاد تقترب سوف يأتي إلى الدنيا الصبيّ الذي بشّرت به الأنبياء . .

أمسكت نرجس بيد العمّة الطيبة وراحت تعصرها عصراً شديداً . . إنها لحظات المخاض الكبير . .

انطلقت أنّة تجسّد كل آلام الميلاد . . . الفضاء يغمره جوّ غريب لم تألفه من قبل إنّها تكاد تحس خفق أجنحة الملائكة . .

وخيّل إليها أنها تسمع همهمة تشبه تلاوة لآيات القرآن . .

السيّدة حكيمة تكاد تفقد توازنها . . وسمعت الإمام يناديها من وراء الحجرة : **اقرأي عليها سورة الدخان.**

وراحت السيّدة حكيمة تتلو آيات الدخان :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ *

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ....﴾ .

غمر فضاء الغرفة جوّ عجيب . . وكانت نرجس تطلق أنّات الميلاد وتعصر بشدّة كفّ السيّدة الطيبة . . . فجأة انبثق نور بهر عيني السيّدة ولم تَعُد ترى ما حـولها . . فكأن نرجس نفسها قد اختفت . .

دقّ قلبها خوفاً . . وهبّت صوب باب الحجرة تستنجد بابن أخيها . .

كان الإمام على مقربة من الباب فنادى عمّته : **ارجعي يا عمّة . . إنّك ستجدينها في مكانها . .**

كان وجه نرجس يسطع نوراً سماوياً . . وبدت وكأنها مريم ابنة عمران وقد جاءها المخاض عند جذع النخلة . .

ورأت الصبيّ متلقياً الأرض بهيئة السجود . .

كان نظيفاً . . طاهراً ليست فيه آثار الميلاد . .

كلؤلؤة تشعّ على شاطىء بحر . . أوكقطرة ندى تتألق فوق زهرة في أول الفجر . . .

وكان الأب ينظر إلى السماوات وقد بدت النجوم قلوباً تنبض بالأمل . .

الصبيّ القادم من رحم البشارات يحمل ملامح النبوات الغابرة . . يحمل من موسى ابن عمران قلق الفرعون ، وكان يبحث عنه جنيناً . . ويحمل من المسيح عيسى بن مريم كلماته في المهد صبياً . . . ويحمل من نوح عمره الطويل ، ومن إبراهيم فأسه التي هشم بها وجوه الآلهة المزيّفة ، ومن محمّد الأمين اسمه وكنيته ورسالته . . .

أخذت حكيمة الصبيّ الطاهر بكتفيه وضمته إلى صدرها وأجلسته في حضنها . .

وناداها الأب بلهفة من يريد رؤية الوليد المبارك : هلمّي إليّ بابني ، يا عمّة .

وحملته السيّدة حكيمة وقد غمرتها حالة من الخشوع لكلمة الله ووعده الصادق.

أخذ الأب ابنه وأجلسه على راحته اليسرى ، وجعل راحته اليمنى على ظهره ، وراح يشمّ ابنه الطاهر في عينيه وأذنيه وفمه ، وهمس بصوت فيه ترجيعة لأصوات الرسل : **تكلّم يا بني ! انطق بقدرة الله !**

تكلّم يا حجّة الله ! وبقيّة الأنبياء . . وخاتم الأوصياء ! !

تكلّم يا خليفة الأتقياء !

وحدثت المعجزة : وتدفق صوت ملائكي من الصبيّ الذي تلا آية تجسّد أهداف السماء وطريق الأنبياء :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

- ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾(١).

وغمرت الدموع عين الأب ، لقد تحقّق وعد الله . . إنّ الله لا يخلف الميعاد . .

وانفلق الفجر . . وارتفع الأذان من مآذن سامراء ، وقال الأب لعمّته التي طفح على وجهها الفرح الأكبر : **يا عمّة ردّيه إلى اُمّه كي تقرّ عينها ، ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**(٢).

كلمات الأذان ما تزال تنساب في لحظات الفجر النديّة . .

---

(١) القصص : ٥ و ٦.

(٢) تاريخ الغيبة الصغرىٰ : ٢٦١ ـ ٢٦٨.

وضعت السيّدة حكيمة الصبيّ الطاهر في أحضان والدتة التقية وغادرت المكان .

كانت الفرحة تتألق في عينيها بالرغم من مسحة الحزن . . فهذا الصبيّ يجب أن يبقى ميلاده سرّاً ! !

وغمرت الأمّ ابنها بنظرات تزخر بالرحمة والحنان . . يا ولدي الحبيب . . كيف تعيش بين أناس يبحثون عنك ليقتلوك ؟ !

الصبيّ نائم تتألق فوق وجهه هالة من أنوار النبوّات الغابرة وبشائر الرسالات القديمة . . .

أنفاسه الهادئة فيها أنغام الزبور . . تراتيل التوراة . . بشارات الإنجيل ، وآيات القرآن العظيم . .

لقد سمعت من زوجها النبيل أنها ستنجب صبياً يملأ الأرض بالعدالة والحقيقة . .

وتوهّجت في أعماقها كلمات مقدسة كانت قد حفظتها وهي تتردد على الكنيسة : « وأما إسماعيل فقد سمعتُ قولك فيه ، وها أنذا أُباركه وأُنمّيه وأُكثّر عدده جداً جداً ، ويلد اثني عشر رئيساً ، وأجعله أُمّة عظيمة »(١) .

هاهي تنجب الإمام الثاني عشر . . خاتم الأوصياء . . والإنسان الذي يحقّق أحلام الأنبياء .

قبل أن تغيب نجمة الصبح كان الإمام قد طلب من عمّته ومن زوجته أن يبقى ميلاد الصبيّ سرّاً مكتوماً عن الجميع .

رواية السيّدة حكيمة صورة أُخرى تؤكد عظمة هذا الطفل الموعود فقد تضمنت أبعاداً تذكّر بالنبي موسىٰ بن عمران عليه السلام وبالسيّد المسيح عليه السلام .

---

(١) سفر التكوين : ١٧/٢٠ بالاستناد إلى « الكتاب المقدس تحت المجهر » ، عودة مهاوش الأردني : ١٥٢ .

ولدىٰ متابعة بعض التفاصيل في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام نجده قد انتهج أسلوباً في غاية الحذر في الاعلان عن ولادة الطفل الموعود والإمام الأخير الذي يملأ الأرض بالعدالة والدفء.

ومن المفارقات في الدراسات الحديثة أن نجد بعض دارسي التاريخ ينطلقون في التشكيك من خلال حادثة أو حادثتين يمكن تفسيرهما في الظروف التي اكتنفتها تفسيراً ينسجم مع الخطّ العام والاعتقاد السائد لا في مصادرة تاريخ مضطهد كتب في ظروف حرجة جداً فيما نرى المستشرقين يدركون ذلك ويتعاملون مع تراث الإماميّة التاريخي في حالة من الاحترام الكامل[1].

وهذا تذكير بما ورد في مقدمة البحث من أن بحث هذه المسألة بأدوات وظروف مختبرية لن يكتسب صفته العلمية والموضوعية أبداً وأن مسألة حساسة يجب أن تدرس في ظروفها بل إنّ مسألة دراسة الظروف العامّة أصبحت من شروط الدراسة التاريخية لأية فكرة.

وسنرىٰ كم هو سطحي من يريد التشكيك بولادة الإمام المهدي من خلال ما سجّله التاريخ من حيرة الشيعة عقب وفاة الإمام الحسن عليه السلام وتهنئة البعض لجعفر الكذاب بالامامة.

ولا نريد أن نستبق ذلك وسنتابع بعض الاجراءات التي قام بها الإمام الحسن عليه السلام في الكشف الحذر عن وجود ابنه المنتظر وولادته، واختبار إحدى طرق اختبائه.

هناك ظاهرة في حياة الإمام الهادي عليه السلام وهي انحسار لقاءاته المباشرة بالناس ونجد ما برر ذلك في أن قدوم الإمام الهادي عليه السلام لم يكن بإرادته، وقد عرف عن الأئمّة جميعاً عشقهم العميق لمدينة جدّهم صلى الله عليه وآله، وسنجد أنّ هذه الظاهرة ستشتد

---

(١) راجع «سامراء في المراجع الغربية / موسوعة العتبات المقدسة كتاب سامراء.

في حياة الإمام الحسن العسكري عليه السلام بسبب بعض الظروف ، منها تفاقم خطر دولة طبرستان العلوية وتعاظم خطر ثورة الزنج التي ادّعىٰ زعـيمها نسـباً عـلوياً أيـضاً ، نضيف إلى ذلك أيضاً انتشار أحاديث حول ظهور المهدي ، وهذه مسألة استثمرها بعض المعارضين للنظام العباسي ، بل إنّها أدّت إلى نشوء دولة المهدية في المغرب فيما بعد .

إنّنا نفتتح الإشارة إلى حساسية الوضع مـن خـلال روايـة تـذكر خـروج مـوكب الإمام عليه السلام مع موكب الخليفة في مراسم توديع « الموفق » قائد الجيوش العباسية التي تقرر زحفها باتجاه جنوب العراق لإخماد ثورة الزنج .

وقد انتابت أحد الشيعة رغبة عارمة في أن يهتف : « أيها الناس ! هذا حجّة الله فاعرفوه » .

ولكن الإمام الحسن عليه السلام يشير إليه أن يسكت وهمس وقد مرّ قريباً منه : **أما إنّك لو أذعت لهلكت . . إنّما هو الكتمان أو القتل فأبقوا على أنفسكم**[١] .

ولعل ما يدعو إلى التأمل أن الإمام الحسن عليه السلام يأمر ذات يوم رجلاً يعمل في الدار وهو ظريف الخادم أن يدخل حجرة فيرىٰ ظريف لدىٰ دخوله صبياً مستغرقاً فـي الصلاة ، ويخبر الإمام بما رأىٰ ثمّ يأمره الإمام مرّة أُخرى أن يـعود ليـنظر الصـبيّ ، وفوجىء ظريف بالحجرة خالية ! أليس في هذا الإجراء اختبار لطريقة مـن طـرق اختفاء الصبيّ ؟

ألا يحتمل وجود نفق أو ممر سرّي في الحجرة يؤدي إلى مخبأ ما كـالسرداب وغيره ، وربما يؤدي إلى خارج الدار ؟

ونحن ما نزال نتذكر الطريقة التي فرّت فيها زوجة المتوكل واختفت عن الأنظار

---

(١) إثبات الوصية : ٢٥١.

منذ شهر رجب وحتىٰ منتصف رمضان عندما قررت هي الظهور والتفاوض مع الضابط التركي صالح بن وصيف .

فكيف بالإمام الهادي عليه السلام الذي اشترىٰ قصراً فخماً من قصور سامراء وأصبح ملكاً للإمام ونجله منذ سنة **٢٣٤**هـ، وبين هذا العام وحتى عام **٢٥٦** أكثر من عشرين سنة كافية لاستحداث ممرّات وأنفاق سرّية داخل القصر الكبير ، بل إنّنا لا نجد مبرّراً للإمام الهادي عليه السلام في شراء مثل هذا القصر وقد عرف عنه زهده في حطام الدنيا .

ونحن لا ندّعي أنّ فخامة المنزل ووجود قناة جوفية وسرداب أدلّة كافية ولكنها قرائن تعزز من أخبار ولادة الإمام المهدي عليه السلام في مقابل غياب أدلّة النقض باستثناء إثارة غبار الشكوك في ما سجّله التاريخ من حيرة الشيعة وهي مدوّنات أشارت ضمناً إلى بروز تيار يوقن بولادته وإن خفيت بسبب الظروف الخطيرة .

وتذكر المدوّنات الشيعية أن الإمام الحسن عليه السلام كشف لبعض أصحابه ممن يثق بهم هويّة الطفل الموعود وعرّفهم به ونوّه بظاهرة الغيبة الطويلة التي قد تربك تفكير الكثيرين من الشيعة ، وقد بحث الشهيد محمّد صادق الصدر في موسوعته عن الإمام المهدي عليه السلام ذلك مفصلاً ولا نريد الاسترسال في هذا الموضوع .

ونسجل هنا خبراً ورد في « إثبات الوصية » حول إرسال الطفل مع جدّته إلى الحجاز في موسم الحجّ ، إذ طلب الإمام الحسن عليه السلام من والدته اصطحاب الصبيّ ، وكان ذلك في سنة **٢٥٨**هـ، وسنجد أن الإمام الحسن عليه السلام سوف يعتقل خلال تلك الفترة مع أخيه جعفر ويزجّان في سجن خاص فيه شخصيات في طليعتها أبو هاشم الجعفري وهو شخصية لها وزنها وكان معتقلاً بأوامر شخصية من المعتز وقد مرّ عليه في الاعتقال سبع سنوات .

والطبري ذكر ظروف اعتقاله وإرساله مخفوراً من بغداد إلى سامراء .

ويورد المسعودي وصول القافلة منطقة هي إحدىٰ محطات القوافل الرئيسية

ذكرها الطبري باسم « القرعاء » وهناك يسمع قادة القوافل بأنباء الجفاف واحتمالات الظمأ وتعرّض القوافل إلى غارات قطّاع الطرق واللصوص وأن معظم القوافل عادت .

أمّا المسعودي فيذكر إصرار الجدّة وحفيدها والوكيل المرافق لها على الحج ومعهم بعض الحجيج ووصول القافلة بسلام .

والتطابق بين الرواية التي يوردها المسعودي وأخبار الطبري تجعلنا نزن الأمور بمكيال واحد ، فالرواية الرسمية التي ذكرت عودة قوافل الحجّ بسبب الأخطار المحتملة التي ذكرها المسعودي مضيفاً إليها وجود والدة الإمام الحسن ومعها الصبيّ .

كما أن اعتقال الإمام الحسن عليه السلام حدث بعد ذلك بفترة وجيزة يجعلنا نتفهم طلبه من والدته اصطحاب الصبيّ إلى الحجاز .

ومسألة الاعتقال لا يمكن تفهمها إلّا في ضوء انتشار أخبار ظهور المهدي سيّما وأن أحد ألقاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام هو « الصامت »[١] ، فلم يعهد عن الإمام أي شكل من أشكال التحرك السياسي الذي يثير مخاوف السلطة ، فإذا أضفنا إلى ذلك تصريحات الخليفة حول جعفر : « إنّي قد حبسته بجنايته على نفسه وعليك وما يتكلّم به »[٢] فقد تتكون لدينا صورة واضحة الملامح حول مخاوف السلطات .

حياة الإمام الحسن .. أشعة الغروب

من المفيد أيضاً أن نرسم مشهد الليلة الأخيرة من حياة الإمام الحسن عليه السلام في ضوء ما أوردته المدوّنات الشيعية :

لا أحد يدري ما الذي حصل فجأة !! وفيما كانت شمس الخريف تقرض منازل

---

(١) دلائل الإمامة : ٤٤٩ ، الحديث ٤٢٤. مقتضب الأثر : ٧. مناقب آل أبي طالب : ٥٢٣/٣.

(٢) بحار الأنوار : ٣١٤/٥٠.

سامراء بأنوارها الباهتة.. شعر الإمام بحالة من الضعف الشديد والنحول اضطرته إلى ملازمة الفراش..

وبطريقة تدعو إلى التساؤل والدهشة وصل النبأ إلى مسامع رئيس الوزراء عبيدالله ابن يحيى بن خاقان!! هل كانت هناك محاولة لاغتيال الإمام؟!

ولماذا يبادر ابن خاقان للاجتماع بالخليفة شخصياً ويطلب منه إرسال مجموعة من رجال القصر لملازمة منزل الإمام؟ وإذاكان الهدف من ذلك تقديم الرعاية للإمام فما هو المسوّغ في إرسال «حرير الخادم» سجّان الإمام الذي سمعت تهديداته للإمام ذات يوم وهو يقول: «والله لأرمينّه للسباع»[1]!

هل هناك أسرار وراء ما يجري؟ هل وصلت البلاط تقارير حول وجود صبيّ أُحيطت ولادته بالكتمان؟ وهل ولد المهدي حقّاً؟

ماهي بالضبط مهمّة موظفي القصر؟! لقد أصبح منزل الإمام مشحوناً بالخطر.. ولماذا تتخذ الحكومة مثل هذا الاجراء تراقب وفاة الإمام ومن أين لها علم بأنّ الإمام على حافّة الموت وهو ما يزال في ريعان الشباب ولم يبلغ الثلاثين بعد؟!..

مرّت ثلاثة أيام من ربيع الأوّل وقد انتكست حالة الإمام الصحية، فأصدر رئيس الوزراء أمراً بإحضار فريق من الأطبّاء لإجراء فحوصات وتقييم حالة الإمام الصحية..

أجرى الأطباء فحوصاتهم وتبادلوا نظرات ذات معنى[2]! لقد دُسّ إليه السمّ ما في ذلك من شك! وليس هناك من وسيلة للعلاج.

واستقرّ رأيهم على أن حالة الإمام ميؤوس منها.. وأنه يموت، ومع ذلك فقد أصرّ رئيس الوزراء على بقائهم في منزل الإمام!!

كما استدعىٰ ابن خاقان رئيس سلطة القضاء وطلب منه انتخاب عشرة رجال

---

(١) إعلام الورى: ٣٦٠، الإرشاد: ٣٢٤، تاريخ الغيبة الصغرىٰ: ٢٩٠.

(٢) الارشاد: ٣٨٣.

يعملون في سلك القضاء ، ومن ثمّ إرسالهم إلى منزل الإمام !

وأصبح عدد موظفي الدولة خمسة عشر غير الأطباء !! ترىٰ ماذا يجري ؟! ماهو الهدف من وراء كل هذه الاجراءات العجيبة ؟!

هل هناك محاولات للكشف عن وجود وريث للإمام ؟.. وهل هي محاولة للتنصل من مسؤولية اغتيال الإمام ؟ أو مواجهة الشائعات التي قد تنتشر حول اسباب وفاة ابن الرضا وهو ما يزال شابّاً ؟! لا أحد يدري !!

مشاعر خليطة من الحزن والقلق والتوتر تخيم على أجواء المنزل ، الذي بدا وكأنه قلعة يحاصرها الأعداء..

وبالرغم من تردّي حالة الإمام الصحية إلّا أنه كان في كامل وعيه وكانت شؤون المنزل تمضي حسب برنامج دقيق باستثناء جعفر الذي بدأ يتصرّف وكأنه ربّ البيت والسيّد المطاع.

الزمن يمرّ متوتراً.. الإمام في حجرته راقد في فراش المرض زوجته السيّدة نرجس في حجرة اُخرى.. ماريا ونسيم في حجرة مستقلة.. كافور وعقيد يعملان بصمت وحزن ترىٰ أين الصبيّ ؟! هل كان مختبئاً في مكان ما من السرداب ؟!

هل كان في منزل السيّدة حكيمة ؟!

رجال القصر وموظفوه محشورون في الرواق المؤدي إلى غرفة الإمام وفي قبال ذلك حجرة السيّدة نرجس ، أما السرداب فيوجد أسفل الغرفتين حيث يوجد باب صغير يؤدي إلى سلّم ومنه إلى السرداب..

اليوم هو ٧ ربيع الأوّل ٢٦٠هـ ٣١ كانون الأوّل ٨٧٣م وسامراء مقبلة على ليل شتائي طويل[١].

---

(١) يصادف ٨ ربيع الأوّل ٢٦٠هـ الأوّل من كانون الثاني ٨٧٤م / أحداث التاريخ الإسلامي: ١٦٩/٢.

تسرّبت أنباء مرض الإمام إلى أوساط الناس وأصبح ذلك محوراً في أحـاديث الشيعة . . وظهرت تساؤلات حول مستقبل الإمامة وهوّية الإمام الجديد !

وفي تلك الليلة الطويلة تمكن الإمام من كتابة مجموعة من الرسائل الهامّة كجزء من خططه لإبلاغ الأُمّة وجود الإمام الغائب الذي اضطرته الظروف إلى عدم الاعلان عن ولادته وإخفائه عن أعين الجواسيس . .

كانت ظـلمات اللـيل تشـتد حـلكة وقـد خـامر المـوظفين فـي الرواق التـعب والنعاس . . الليل البهيم يتجه إلى الفجر والنجوم تشتد سطوعاً في سماء اكـتنفتها غيوم متناثرة . . وكان عقيد الخادم ينظر بأسى إلى الشباب كيف يذوي كشمعة تخبو في قلب ليالي الزمهرير .

طلب الإمام بصوت خافت من عقيد أن يحضر إناءً فيه ماء مغلي بالمستكي . . كان الإمام يشعر ببرودة الموت تزحف إلى خلايا جسده التي فتك بها السم . .

جاءت السيّدة نرجس تحمل الاناء ، وقد غمرتها حالة من الفجيعة . . إنّ زوجها الطاهر على وشك الرحيل . . سوف ينهدّ عمود خيمتها وستعوي من حولها آلاف الذئاب . .

مدّ الشابّ يداً ترتجف من برودة الموت الزاحف كليل الشتاء . . الليل في لحظات الرحيل والفجر على وشك الانفلاق . .

أراد أن يرتشف من الاناء ولكن ارتطم بأسنانه وازداد ارتجاف يده . . قال بصوت واهن مخاطباً عقيداً : سوف تجده يصلّي في الحجرة . . ليأت إليّ .

وفي هذه اللحظة هبّت السيّدة نرجس إلى الحجرة . . إنّ ابنها يصلّي فمكثت غير بعيد وجاءت به . . وفي غمرة لحظات السحر الأخير مرق الصبيّ إلى حجرة أبـيه العظيم . .

جلس عنده وقد غمره حزن وإحساس بالفجيعة يلوح في وجهه كسماء تكتنفها

غيوم رمادية . .

دمعت عينا الأب من أجل ابنه . . من أجل كل المحن التي سيواجهها خلال الزمان المرير . . . همس بحبّ : يا سيّد أهل بيته أعطني شربة !

أخذ الصبيّ الطاهر الإناء وأدناه من فيه وارتشف الإمام شربة منحته قليلاً من الدفء . .

قال الأب : جهّزني للصلاة !

أخذ الصبيّ منديلاً ونشره على صدر أبيه وراح يساعد والده على إسباغ الوضوء واستغرق الإمام في الصلاة بعد أن يمّم وجهه تلقاء المسجد الحرام والبيت العتيق . .

والتفت إلى ابنه وقد انفلق عمود الفجر الصادق .

- بنيّ الحبيب ! أنت صاحب الزمان . . أنت المهدي الذي بشّر بك الرسول . . وأخبر بك ، اسمك اسمه ، وكنيتك كنيته . . وهذا هو عهد آبائي قد جاء . .

وفي تلك اللحظات النديّة بالدموع شعر الصبيّ بأنّ قلبه يضيء بنور قادم من قلب السماوات . .

سوف تواجهك المحن يابشارة الأنبياء . . وسوف تطاردك رياح الزمهرير كفراشة جاءت تبشر بالدفء وبالربيع . . . آه أيها الأمل القادم من رحم النبوّات الغابرة !!

كانت السيّدة نرجس تبكي بصمت كسماء تمطر على هون . . زوجها يودّع الحياة ، وابنها الوحيد تبحث عنه ذئاب مجنونة . . وأصغت إلى كلمات زوجها يوصي ابنه وآخر الأئمّة الأطهار: **يا بنيّ ، إنّ الله جلّ ثناؤه لم يكن ليخلي أرضه ، وأهل الجدّ من طاعته وعبادته بلا حجّة يستعلى بها وإمام يؤتمّ به ، ويقتدى بسبيل سنّته ومنهاج قصده . .**

وأرجو يا بنيّ أن تكون أحد من أعدّه الله لنشر الحق وطيّ الباطل ، وإعلاء الدين ،

وإطفاء الضلال .

وسكت لحظات ليقدّم إلى ولده الحبيب آخر نصائحه :

- فعليك يا بنيّ بلزوم خوافي الأرض وتتبّع أقاصيها ، فإنّ لكلّ وليّ من أولياء الله عدوّاً مقارعاً ، وضدّاً منازعاً . . فلا يوحشنّك ذلك[١] . .

اسكن يا بنيّ في البراري البعيدة . . وفي الجبال الوعرة ، ليحرسك الله يا بنيّ !

ودمعت عينا الأب . . كان يستنشق أنفاسه الأخيرة في هذه الحياة . . وكانت كلمات الصلاة تنساب من بين شفتيه قبل أن يغمض عينيه ويغفو إغفاءة الرحيل . .

وفي تلك اللحظات وقد هيمن صمت ثقيل سمع صوت عواء قادم من بعيد . .

نهضت السيّدة نرجس وهي تشعر بالبرد وأخذت بيد ولدها وانسحبت من المكان . . لقد بدأ فصل مثير في حياة ابنها الوحيد .

عشية الرحيل

لم تشرق شمس اليوم الثامن من ربيع الأوّل وظلّت غائبة وراء السحب الكابية التي تراكمت على امتداد الليل الشتائي الطويل .

اليوم هو الأوّل من كانون الثاني من العام الميلادي الجديد « **٨٧٤** » حدثت في الرواق حركة غير عادية عندما أعلن عقيد الخادم عن رحيل زعيم البيت العلوي الإمام الحسن واستحال المنزل الواقع في « درب الحصا » إلى خيمة تعصف بها الريح من كل مكان . .

برقت عينا جعفر بالغدر وقد ضجّت في أعماقه المظلمة أصوات تشبه عواء ذئاب مجنونة . . .

---

(١) الغيبة / الشيخ الطوسي : ١٦١ . بحار الأنوار : ١٢/٥٢ . إلزام الناصب : ١٠٨ .

ها هو يستيقظ على صيحات المأتم فهبّ كمن لسعته عقرب وراح يتصرف كالسيّد المطاع وربّ المنزل .. وحاول جاهداً أن يضفي على نفسه مسحة من الوقار كإمام جديد للشيعة !

إنّ جميع الظروف قد باتت مؤاتية ، فأخوه قد رحل عن الدنيا دون وصية ظاهرة ، إذن فقد أصبح كل شيء له ... إنه الوريث الذي لن ينازعه أحد .. ولكن ماذا لو ظهر ابن أخيه ؟ !

خامره أحساس بالقلق وسرعان ما تبدّد .. إنّ صبيّاً تبحث الجواسيس عنه لن يجرؤ على ذلك ..

اتّخذ جعفر مكانه في باب المنزل لاستقبال الوافدين من المعزّين .. سوف يصل زعماء كبار من البلاط وشخصيات بارزة في صفوف الشيعة وها هو يشعر بالانتشاء لأول تهنئة يتلقاها من الشيعة مصحوبة بكلمات عزاء رقيقة .. ها هو يهنأ لأول مرّة بالإمامة .. لقد أصبح إماماً لطبقات واسعة من الناس !

وصل « أبو الأديان »[1] درب الحصا وسمع من بعيد أصوات المناحة وإذ ألفىٰ جعفراً واقفاً في الباب يتلقى التعازي والتهاني همس في نفسه بأسىٰ :

إن يكن هذا هو الإمام فقد بطلت الإمامة إذن ..

كيف يصبح إماماً وهو يكرع كؤوس النبيذ ويقامر في قصر الجوسق ويلعب بالطنبور ؟ !

واضطر أبو الأديان إلى مصافحته وتقديم التعازي والتهاني .. وعندما ولج المنزل رأىٰ حشداً من المعزّين ، وقد برز فيهم عثمان بن سعيد وكيل الإمام الراحل ..

---

(١) كان يعمل في منزل الإمام الحسن عليه‌السلام الذي حمّله مجموعة رسائل هامّة إلى المدائن وأن يأتي بأجوبتها إلى من سيطالبه بها . كمال الدين : ٤٧٥/٢ ط . طهران ١٣٩٥ .

وكان واجماً غارقاً في حزن مرير . .

وتوهّجت في ذاكرة أبي الأديان البصري كلمات الإمام الراحل في حقه في حضور وفد قادم من اليمن : « **امض يا عثمان فإنّك الوكيل والثقة المأمون على مال الله** »[١] .

فقال أحد أعضاء الوفد مخاطباً الإمام : « يا سيّدنا ، إنّ عثمان لمن خيار شيعتك ، ولقد زدتنا علماً بموقعه من خدمتك ، وإنّه وكيلك وثقتك على مال الله ؟

فقال الإمام عليه السلام عندها : **نعم . . واشهدوا على أن عثمان بن سعيد العمري وكيلي ، وأنّ ابنه وكيل ابني . . مهديّكم** »[٢] .

كان عثمان بن سعيد قد انتهىٰ توّاً من مراسم تجهيز جثمان الراحل العظيم للصلاة عليه ، وانتبه أبو الأديان إلى صوت عقيد الخادم يخاطب جعفراً : يا سيّدي قد كُفّن أخوك . . فقم للصلاة . .

مرّت اللحظات حساسة . . كان جعفر يخطو باتجاه نعش أخيه . . سوف يكتسب جعفر بإقامة الصلاة على الإمام امتيازاً كبيراً . . فهناك قناعة لدىٰ عموم الشيعة في أن الإمام لا يصلّي عليه إلّا إمام !

وقف جعفر قبال النعش استعداداً للصلاة . . وانتظمت خلفه صفوف المصلّين . . كان أبو الأديان واقفاً جنب عثمان بن سعيد في الصف الأوّل . . وكان جعفر على وشك التكبير . . عندها ظهر صبيّ بوجهه سمرة متموّج الشعر . . تقدّم الصبيّ بخطى واثقة نحو جعفر وجذب رداءه قائلاً بصوت فيه حزم : تأخّر يا عمّ ، فأنا أحقّ بالصلاة على أبي .

اصفرّ وجه جعفر واربد وهو يتأخر واقفاً خلف الصبيّ الذي بدأ مراسم الصلاة

---

(١) الغيبة / الطوسي : ٢١٥.

(٢) المصدر المتقدّم : ٢١٦.

على والده الراحل . .

ودمعت العيون للصوت الحزين يصلّي على الراحل ،كان ذهن أبي الأديان متوتراً للمفاجأة . .

إنّه يشهد أُولى علامات الإمام الحق . . لقد أخبره الراحل : انّ الذي سيصلّي عليّ هو الإمام . . بقيت علامتان . .

الأُولىٰ أن يطالبه الصبيّ بالرسائل الجوابية التي يحملها من المدائن . .

تمّت مراسم الصلاة والتفت الصبيّ إلى أبي الأديان قائلاً : يا بصري ، هات جوابات الكتب التي معك !

لم يكن هناك مجال للشك ، و سلّم أبو الأديان مجموعة من الرسائل إلى الصبيّ الذي اتجه نحو ستائر إحدى الحجرات ليتوارى وراءها . . تقدّم رجل نحو جعفر الذي ما يزال حانقاً . . أراد أن يحرجه أكثر فقال له متسائلاً : يا سيّدي من الصبيّ ؟ !

أجاب جعفر بحنق : والله ما رأيته قطّ ولا أعرفه ! !

وارتسمت على وجه الرجل[1] ابتسامة ساخرة من هذا الذي يدّعي ما ليس له . . وها هو يتراجع أمام صبيّ يبدو عليه أنه في التاسعة من عمره . . إنها قوّة الحق التي لن يصمد أمامها جعفر وأمثال جعفر حتىٰ لو كان من ذرّية الإمام !

كانت المفاجأة لا تزال تسيطر على بعضهم خاصّة الّذين رأوا الصبيّ لأول مرّة . .

وحدثت ضجّة خارج المنزل . . لقد وصل أخو الخليفة وممثله في مراسم التشييع والصلاة الرسمية . .

استقبل جعفر مبعوث الخليفة وأخاه أبا عيسى بن المتوكل الذي نقل تعازيه وتعازي الخليفة بالمناسبة . .

---

(١) الرجل هو حاجز الوشاء ـ كمال الدين : ٢/٤٧٥.

وحُمل النعش الذي ما كاد يغادر المنزل حتىٰ استقبل بالبكاء والنحيب.. لقد رحل السلام.. رحل الإنسان الطاهر.. كحمامة بيضاء شهيدة، كان النعش المحمول يسير باتجاه المسجد الجامع مخترقاً الشارع الرئيسي المعروف بشارع أبي أحمد..

نسائم كانون الباردة تلفح الوجوه في يوم غائم كئيب.. وكانت مشاعر مزيجة من الاحساس بالغربة واليتم تغمر القلوب الحزينة لكأن الإمام شمس تبعث الدفء والنور فإذا غاب غمرت الظلمات النفوس..

وتذكر الناس يوماً حزيناً قبل ستة أعوام يوم شيعوا والد هذا الإنسان الطيب الذي وافاه الأجل وهو في ريعان الشباب..

وتساءل البعض في دهشة عن سرّ وفاته؟! إنّه لم يشتك من علّة قبل ذلك فما الذي حصل؟! لقد اعتادت سامراء على هذه الظاهرة.. كثيرون لقوا حتفهم في ظروف غامضة!

وُضع النعش قريباً من جدران المسجد لإقامة الصلاة وتقدّم مبعوث الخليفة وأخوه إلى النعش وكشف عن وجه الراحل ليبدّد هواجس قد تراود بعض الناس ويدفع شبهة الاغتيال عن الدولة، فأعلن أمام شخصيات البيت الهاشمي من العبّاسيّين والعلويّين، وقادة الجيش وكبار موظفي الدولة والبلاط قائلاً:

هذا الحسن بن علي بن محمّد بن الرضا مات حتف أنفه على فراشه وحضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته فلان وفلان.. والقضاة فلان وفلان ومن الأطباء فلان وفلان وراح يستعرض الشخصيات التي أمضت الليالي الأخيرة في منزل الإمام لأهداف غامضة.. ثمّ غطّى باحترام وجه الراحل العظيم[١].

وأُقيمت الصلاة على الجثمان الطاهر ليُحمل مرّة أُخرى ويعود إلى المنزل الواقع

---

(١) الارشاد: ٣٨٣.

في « درب الحصا » وهناك سيوارى الثرى إلى جانب والده الراحل تنفيذاً لوصيته .

وبدا ذلك اليوم الغائم أشبه بيوم القيامة[1] وقد حشر الناس ضحىٰ فالأمواج البشريّة تتدافع لتلمس النعش الطاهر تبركاً لكأنها تمدّ يداً تصافح رسول الله . .

القلوب يغمرها الأسىٰ وإحساس بالفجيعة يملأ صدور المؤمنين . . ويلج النعش منزل صاحبه ، وفاحت رائحة الثرى المعطور حيث سيرقد الإمام إلى جانب والده . . لقد وصلا معاً هذه المدينة على قدر قبل ربع قرن فرحل الوالد قبل ستة أعوام والتحق به الابن في هذا اليوم . .

إنّ الذين يرون ما وراء الأُفق البعيد سيرون مآذن تشق قلب التراب في هذا المنزل المبارك ، لتستحيل هذه البقعة الطاهرة إلى مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . وإلى واحة خضراء يتفيأ ظلالها الوارفة المتعبون في دورب الحياة والزمان .

استمر المأتم وكانت رائحة طيبة تشبه رائحة الطين المعطور تفوح في فضاء المنزل . . الشمس ما تزال مستورة بالسحب بالرغم من أن قرصها المستدير قد بدا شفافاً يشبه القمر في لحظات الغروب .

وفي أصيل ذلك اليوم وصل وفد من مدينة قم يحمل معه رسائل من أهلها إضافة إلى هميان يشتمل على الحقوق الشرعية التي يتوجب تسديدها إلى الإمام أو من يوكّله . .

في حجرة السيّدة نرجس جلست النسوة وكانت أُمّ الحسن أكثرهن إحساساً بالفجيعة ، حتىٰ ان المرء إذا رآها في تلك الحال سيحدس أنها لن تعيش بعد ابنها إلّا أياماً معدودات ، أما السيّدة نرجس فقد بدا وجهها سماءً مثقلة بغيوم ممطرة . . عيناها تبحثان عن عزيز فقدته . . زوج كريم رحل وتركها وحيدة وولد طاهر تحمّل

---

(١) دائرة المعارف / البستاني : ٧/٤٥.

أمانة كبرىٰ وقرّر خوض ملحمة الصراع المرير أمام أعداء لا يُعرف لهم عدد.. حتىٰ عمّه جعفر غدر بهم.. إنّه لم يعد يرىٰ شيئاً سوىٰ نفسه وسوىٰ أطماعه وحرصه وجشعه وتهافته على حطام الحياة الدنيا!

تساءل أحد رجال الوفد عن الشخص الذي يقدّمون إليه التعازي فأُشير إلى جعفر!!

كانت آثار السفر ما تزال تبدو على أفراد الوفد وهم يصافحون جعفراً الذي رقص قلبه طرباً.. إنّه يدرك حجم ما معهم من الأموال التي سيقبضها هذا اليوم!

تلقىٰ جعفر بانتشاء تعازي القميين وتهنئتهم له بالإمامة، ولم يستطع إخفاء ابتسامة صفراء باهتة ارتسمت على شفتيه.

قال رجل حنكته التجارب: إنّ معنا كتباً وأموالاً..

قال جعفر مستعجلاً: هاتوها!

قال الرجل بهدوء وحذر: ألا تقول ممّن الكتب؟ وكم المال؟

- ومن أين لي أن أعرف ذلك؟!

ردّ الرجل: هذه عادتنا مع أخيك رحمه الله.

صرّ جعفر على أسنانه بغيظ: تريدون منا أن نعلم الغيب.. أنتم تكذبون على أخي.

انتفض جعفر من مكانه وهو ينفض أثوابه.. وانطلق صوب قصر الخلافة وقد استعرت في أعماقه حمّى الغدر.. هذه أفضل فرصة للقبض على الصبيّ الذي يقف في طريق تحقيق أحلامه المريضة.

ما أن غادر جعفر المنزل حتىٰ خرج من إحدى الحجرات فتىٰ يرتدي زيّ الخدم وجاء إلىٰ رجال الوفد قائلاً: معكم كتب فلان وفلان وهميان فيه ألف دينار.. عشرة

منها مطليّة بالذهب . .

تبادل رجال الوفد نظرات ذات معنىً وقال الرجل المحنّك : الذي وجّه بك لأخذ ذلك هو الإمام[١] .

وسلّموا إليه الرسائل والهميان وغادروا المنزل بعد أن مكثوا قليلاً . .

هبّت رياح كانون باردة كقطيع من الذئاب ، وقد توارت الشمس وراء السحب وفي لحظة المغيب كان رجال الشرطة كذئاب غبراء تقتحم منزل الإمام وتلقي القبض على السيّدة نرجس التي نسيت كل آلامها واستعدّت للمواجهة .

طولبت السيّدة بالصبيّ فأنكرت أن يكون لها ولد . . وقامت بحركة ذكية عندما تظاهرت بأنها تعاني من الوحام . .

أوقف قائد المفرزة رجاله عن التفتيش وأمر باقتياد السيّدة إلى بلاط الخليفة .

وأمر الخليفة بتسليم المرأة الطاهرة إلى القاضي ابن أبي الشوارب رئيس سلطة القضاء وقاضي سامراء لتكون تحت الرقابة المشدّدة . . فقد تكون حاملاً أو قد يحاول ابنها الاتصال بها فيُلقى القبض عليه . .

وشاء القدر أن يصل وفد آخر يضم رجالاً من أهل قم ومن مناطق الشمال الايراني المعروفة آنذاك بالجبل . . وبالرغم من مرورهم ببغداد إلّا أنهم لم يسمعوا بخبر وفاة الحسن فقدموا سامراء ، ولم يكن قد مرّ على وفاة الإمام الحسن سوىٰ أيام . .

وعندما سألوا عن سيّدنا الحسن قيل لهم : إنّه فقد !

فسألوا عن وارثه .

قالوا : أخوه جعفر بن علي !

---

(١) الفصول المختارة / المفيد : ٣٦٠.

قال أحدهم : فأين نلقاه ؟

- خرج متنزهاً ، وركب زورقاً في دجلة يشرب ومعه المغنّون !! أُصيب الرجال بصدمة ، وتبادلوا نظرات حائرة ثمّ خلصوا نجيّاً ، قالوا هامسين : هذه ليست من صفة الإمام .

قال أحدهم : لنعد من حيث أتينا ونعيد هذه الأموال إلى أصحابها .

قال أبو العباس وهو رجل يمني نزحت أُسرته إلى قم : لننتظر هذا الرجل ونختبر أمره !

وانتظر رجال الوفد عودة جعفر من نزهته في دجلة .. حتىٰ إذا عـاد إلى مـنزله دخلوا عليه و قالوا : يا سيّدنا نحن من أهل قم .. ومعنا جماعة من الشيعة وغيرها ، وكنا نحمل إلى سيّدنا أبي محمّد الحسن الأموال .

قال جعفر وقد سال لعابه : وأين هي ؟

- معنا .

- احملوها إليَّ إذن .

- لا .

- لا .. لماذا ؟ !

- إنّ لهذه الأموال خبراً طريفاً .

- وما هو ؟ !

- إنّ هذه الأموال تُجمع ، ويكـون فـيها مـن كـافة الشـيعة الديـنار والديـناران ثمّ يجعلونها في كيس ويختمون عليه ، وكنّا إذا وردنا بالمال على سيّدنا أبي محمّد يقول : جملة المال كذا وكذا دينار ، من عـند فـلان كـذا ، ومـن عـند فـلان كـذا .. حتىٰ يأتي على أسماء الناس كلهم ويقول ما على الخواتيم من نقش .

زعق جعفر وأدرك صعوبة هـذا الامـتحان : كـذبتم . . . تـقولون عـلى أخـي مـا لا يفعله . . هذا علم الغيب ولا يعلمه إلّا الله ، تبادل الرجال نظرات فيها شك في أن يكون جعفر إماماً .

قال جعفر بفظاظة : احملوا هذا المال إليّ .

قال رجل يبدو عليه الوقار : إنّا قوم مستأجرون . . وكلاء لأرباب المال ولا نسلّم المال إلّا بالعلامات التي كنا نعرفها من سيّدنا الحسن فإن كنت الإمام فـبرهن لنـا ، وإلّا رددناها إلى أصحابها يرون فيها رأيهم .

وبرقت عينا جعفر بالشرّ إنّه يعرف كيف ينتزع المال منهم ، فـانطلق إلى بـلاط الخليفة مرّة اُخرى . . وسرعان ما اُلقي القبض على رجال الوفد الذين سيقوا إلى قصر الخلافة فمثلوا أمام الخليفة الذي قال وهو ينظر إليهم بطرف خفي : احـملوا هـذا المال إلى جعفر !

قال الرجل الوقور : إنا قوم مستأجرون . . وكلاء لأرباب هذه الأموال ، وهي أمانة لجماعة ، وأمرونا أن لا نسلّمها إلّا بعلامة ودلالة وقد جرت بهذه العـادة مـع أبـي محمّد الحسن بن علي .

قال الخليفة مستفسراً : فما كانت العلامة التي كانت لكم مع أبي محمّد ؟

قال الرجل الوقور : كان يصف لنا الدنانير وأصحابها والأموال وكم هي . . فإذا فعل جعفر ذلك سلّمناها إليه . .

وسكت لحظات ثمّ قال مشيراً إلى جعفر : إن كان هذا الرجل صاحب الأمر فليقم لنا ما كان يقيمه أخوه وإلّا رددناها إلىٰ أصحابها .

زعق جعفر : يا أمير المؤمنين إن هؤلاء قوم كذابـون . . يكـذبون عـلى أخـي . . وهذا علم بالغيب !

قال الخليفة وقد أدرك ألّا جدوىٰ من وراء مساندة جعفر : القوم رسل وما على

الرسول إلّا البلاغ المبين .

وبهت جعفر وانخطف لونه . . وقال الرجل الوقور مبتهجاً بموقف الخليفة : نتمنّىٰ على أمير المؤمنين أن يرسل معنا من يودّعنا إلى خارج المدينة .

قال الخليفة : سأرسل معكم رجالاً من الشرطة فلا تخشوا شيئاً . .

وغادر الجميع قصر الخليفة . . كانت الحيرة تملأ قلوب الرجال . . ترىٰ من هو الإمام الحق بعد الحسن ؟

كل شيء يوحي بأن لا وجود لإمام للشيعة بعد الحسن ، وإذا كان هناك من إمام فهو جعفر الذي سيعرف بالكذاب لأنه ادّعى ما ليس له بأهل !

عاد الرجال إلى خان المسافرين وتفقدوا دوابهم في « المربط » وقد صحّ عزمهم على مغادرة سامراء عائدين . . كانوا يتوجسون شرّاً من جعفر لأنهم حدسوا أن هناك من يقف وراء جعفر مروّجاً لإمامته لأسباب غامضة . . أو طمعاً في المال ، وأمضوا ليلتهم في الخان يتسامرون ، وكانت الحيرة واضحة وهم يتحلّقون حول موقد مسجور .

وكان واضحاً من حيرة أبي العباس أن المستقبل قد بات مظلماً . . فقد بدا ساهماً غارقاً في الوجوم . . هل يمكن أن تنتهي الإمامة هكذا ؟ ! وهل يمكن أن تخلو الأرض من حجّة لله . . من إنسان كامل ؟ ! . . إنّ الإمام يمثل نقطة السلام في دنيا تموج بالزلازل وتعصف بها الحوادث . .

وخفتت الأصوات وكان الجمر يخبو شيئاً فشيئاً . . وكان صوت عواء بعيد يتناهى إلى الأسماع .

في الصباح الباكر وفيما كانت غيوم كانون تتراكم فوق بعضها البعض غادر الرجال الخان ليجدوا مجموعة من حرس الخليفة سوف يرافقونهم إلى خارج سامراء حسب رغبتهم . .

بالرغم من سهرهم الطويل وتبادلهم الأحاديث المتشعبة إلّا أن أجواء الحيرة ما تزال تسودهم .. فهم يعتقدون أنّ الإمامة ستستمر حتىٰ يوم القيامة .. لأن الأرض لا تخلو من حجّة لله .. من إنسان يقودهم نحو الكمال .. وهاهم يفدون على إمامهم فلا يجدونه .. ولا يجدون إماماً يقوم مقامه ..

قال أبو العباس وكان رجلاً حصيفاً : إن له ولداً ما في ذلك من شك .. وربّما أخفاه لسبب من الأسباب ..

قال آخر : والله إنها لحيرة ما بعدها حيرة ! إنّني أقول إنّ سيّدنا الحسن رحمه الله كان إماماً مفترض الطاعة ثابت الإمامة ، وقد توفي والأرض لا تخلو من حجّة .. فنحن ننتظر حتىٰ يسفر الحق !!

وعندما وصلوا الجادّة المؤدية إلى بغداد .. عاد الحرّاس فيما واصل الرجال طريقهم صوب « دار السلام » .

لم تكد منازل سامراء تغيب في الأُفق حتى فوجىء الرجال بمن يدعوهم بأسمائهم .. وعندما التفتوا جهة الصوت شاهدوا فتىٰ مضيء الوجه يناديهم : يا فلان ابن فلان ويا فلان بن فلان أَجيبوا مولاكم .

هتفوا بدهشة : أنت مولانا ؟!

أجاب الفتى الذي يرتدي زيّ الخدم : معاذ الله .. أنا عبد مولاكم .. فسيروا إليه .

وقادهم الفتىٰ من طريق على شاطىء دجلة بعد أن تركوا دوابّهم مع أحدهم وعندما ولجوا حجرة في المنزل وقعت عيونهم على فتىٰ عشاري القدّ جالساً على سرير يرتدي ثياباً خضراً .. وخشعت قلوبهم لمرآه فحيّوه بأدب وردّ عليهم التحية بأحسن منها ، وقال مبدّداً سحب الحيرة التي اكتنفت نفوسهم : جملة المال كذا وكذا دينار حَمَل فلان كذا وفلان كذا .. وراح يستعرض تفاصيل ما جاءوا به .. بل تعدّىٰ وصفه للدواب التي حملتهم ..

ألقىٰ أبو العباس نفسه على الأرض ساجداً لله الذي أنعم عليه برؤية إمام عصره . .

ولم يبق من مجال للشك فقرّروا العودة إلى محط رحلهم وإحضار الأمانات . .

وفي لحظات الوداع أمرهم الإمام بعدم المجيء إلى سامراء مرّة أُخرى ، وأنه سوف ينصب لهم وكيلاً في بغداد يحملون إليه الأموال وتخرج عنه التوقيعات . .

كما دفع الإمام إلى أبي العباس شيئاً من الحنوط والكفن وخاطبه معزّياً : أعظم الله أجرك في نفسك . .

فردّ الرجل الوقور بسكينة المؤمن : إنّا لله وإنا إليه راجعون .

ولم تكد القافلة تصل هضاب إقليم همدان حتىٰ توفّي الرجل إلى رحمة الله[١] .

مشاهد أُخرى حتى عام ٢٦٣ هـ

وكان حصاد موسم الجفاف خلال العامين المنصرمين قحطاً وغلاءً فاحشاً في الأسعار اكتوت بناره بغداد فاشتعلت مخيلة الفقراء وراحت تنسج حول مواقد كانون بواكير حكايات « السندباد » التاجر الذي يعود غانماً من رحلاته في البحار البعيدة فيهب الفقراء ذهباً ولؤلؤاً وأملاً بغدٍ أفضل . . . وستولد حكايات الليالي الطويلة المثقلة بالرموز[٢] بعدما غابت الشمس واستترت وراء غيوم الضياع .

ما بال جعفر يبدو كمن أصابه مسّ من الجنون إنّه يتجه إلى قصر رئيس الوزراء عبيدالله بن يحيى للاجتماع به على انفراد ، ويستقبله الرجل إكراماً لأخيه الراحل فإذا به يسمع من جعفر ما يجعله يسقط من عينه قال جعفر بحماقة : اجعل لي مرتبة أخي ، وأنا أوصل إليك كل سنة عشرين ألف دينار !

---

(١) الإمام المهدي من المهد الى الظهور : ١٩٠ .

(٢) إشارة إلى حكايات ألف ليلة وليلة .

ونظر عبيدالله بن يحيى إلى جعفر . . . شتّان ما بين الحسن وجعفر كأنه نـقيض أخيه . . الحسن في عقله الكبير في كياسته . . في حلمه وتواضعه وطيبته ، وجعفر بخفّته وتفاهته ! !

وهاهو يأتي يطلب من الدولة أن تجعله إمـاماً للشـيعة ، وكأن الدولة هـي التـي نصبت أخاه وأباه من قبل . .

قال رئيس الوزراء وقد احتقره تماماً : يا أحمق . . السلطان أطال الله بقاءه جـرّد سيفه في الذين زعموا أن أباك وأخاك أئمّة ليردّهم عن ذلك فلم يتهيأ له ذلك . . فإن كنت عند شيعة أبيك وأخيك إماماً فلا حاجة بك إلى سـلطان يـرتّبك مـراتـبهم ، ولا غير سلطان . . وإن لم تكن عندهم بهذه المنزلة لم تنلها بنا [١] . .

وقام رئيس الوزراء بحركة توحي بانتهاء اللقاء فنهض جعفر يجرّ أذيال الخيبة . . وأصدر عبيدالله بن يحيى تعليمات مشدّدة بعدم استقباله مرّة أُخـرى لكـن جـعفر بذهنه المريض انتبه إلى شيء !

فما دام الخليفة يخشى الإمام ويطارد الذين يقولون بإمامة أخـيه وأبـيه فـلماذا لا يسعى الخليفة إلى تنصيب جعفر إماماً على الشيعة ، وبهذا يكون أبطل الإمامة وفرض هيمنته على الشيعة ؟ !

من أجل هذا انطلق صوب الخليفة وعرض عليه اقتراحه ولوّح له بنفس المبلغ الذي عرضه على رئيس وزرائه ، قال الخـليفة وهـو يـضع النـقاط عـلى الحـروف فلا داعي للتستر أمام جعفر : اعلم أنّ منزلة أخيك لم تكن بـنا . . إنّـما كـانت بـالله عزّ وجلّ . . ونحن كنا نجتهد في حطّ منزلته والوضع منه . . وكان الله عزّ وجلّ يأبىٰ إلّا أن يزيده كل يوم رفعة لما كان له من الصيانة وحسن السمت والعلم وكثرة العبادة . .

---

(١) الإرشاد / المفيد : ٣٢٠.

فإن كنت عند شيعة أخيك بمنزلته فلا حاجة بك إلينا ، وإن لم تكن عندهم بمنزلته ولم يكن فيك ما كان في أخيك لم نغن عنك في ذلك شيئاً[١] . .

إنّ ما قاله الخليفة يعدّ أكبر اعتراف بعدالة قضية الإمام الراحل . . ولم يكن الخليفة ليكون بهذه الصراحة لولا أن مخاطبه كان جعفر بكل سخافاته وحماقاته ! ؟

شيء واحد حصل عليه جعفر هو تأييد الخليفة له باعتباره الوريث الشرعي لتركة الإمام الحسن . . إن لدى السلطان قناعة ظاهرة في أن الإمام الحسن قد توفي ولم يخلف وراءه ولداً ، وهذا أقصى ما يطمح إليه[٢] .

لقد انتهت الإمامة إذن ولم يعد هناك من إمام بعد اليوم !

أدّت الحوادث العاصفة بأُسرة الإمام إلى أن تلزم أُمّ الإمام الحسن وزوجة الإمام الهادي فراش المرض ، فقد توفّي ابنها الحبيب ، واعتقلت زوجته ، واضطر حفيدها إلى الاختفاء ، وها هو جعفر لا ينفك يتآمر لتمزيق أسرة أخيه الراحل . .

نقلت الجدّة الطيبة إلى منزل السيّدة حكيمة شقيقة زوجها الراحل لتمريضها ولكن وقع الحوادث وقلقها على مصير حفيدها قد جعلها هدفاً سهلاً لسهام القدر . .

وفي لحظات الاحتضار أوصت أن تدفن إلى جانب زوجها وابنها الإمامين الراحلين[٣] . .

ومرّة أُخرىٰ يقف جعفر موقف النذالة إذ يرفض دفن هذه المرأة الصالحة صارخاً : هي داري لا تدفن فيها !

وفي مثل هذه اللحظات المصيرية ، يتوجب على الصبيّ الطاهر أن يظهر مباغتاً جعفر بسؤال استنكاري شديد اللهجة : يا جعفر ! دارك هي ؟ !

---

(١) و (٢) تاريخ الغيبة الصغرى : ٣٠٩.

(٣) المصدر المتقدّم : ٣١٤.

إنّ الصبيّ لن يدعوه بعد اليوم بالعم . . لقد انسلخ جعفر من قبيلته ودينه وحتى إنسانيته . .

وبرقت عينا جعفر بالشرور والغدر وأراد الامساك بالصبيّ الذي توارىٰ بين الناس ، فيما ظل جعفراً حائراً . .

وانطلق الصبيّ الإمام إلى مكان ما ، فلن يعرف مكانه أحد !

سوف يواكب حركة التاريخ والزمن ، أمّا علاقته بشعبه فسوف تكون عن طريق تاجر الزيت ذلك الرجل الصالح الذي نذر حياته لعقيدته ومبادئه . . وسيعرف الناس أن عثمان بن سعيد العمري هو السفير الأوّل بين المهدي وأُمّته . .

إنّه من السموّ بحيث نال ثقة الإمام علي الهادي وابنه الحسن العسكري عليهما السلام وهاهو اليوم يصبح أول سفير للإمام المهدي الذي قرّر الاختفاء عن الأنظار منذ وفاة والده . . وكيف لا يحظىٰ بهذه المنزلة وهو الذي تولّىٰ توزيع عشرة آلاف رطل من الخبز وعشرة آلاف رطل من اللحم على الفقراء والجائعين يوم ولد المهدي . . وهو الذي أمره الإمام الحسن عليه السلام بأن يعقّ عن الحجّة بعشرات الأضاحي[١].

وهو الذي تولّىٰ تغسيل الإمام الراحل وتجهيز نعشه بأمر من الإمام المهدي الذي لم يكن بوسعه أداء هذه المهمّة[٢].

ما يزال بلاط الدولة تراوده الظنون في وجود المهدي الموعود الذي سيظهر ويقوّض أركان حكمهم إلى الأبد . .

فأُمّه ما تزال رهن الاعتقال رغم مرور شهور عديدة على اعتقالها ووضعها تحت المراقبة لأنهم يتصوّرون أنّ ابنها سيتصل بها وعند ذاك سوف يُلقى القبض عليه . .

---

(١) تاريخ الغيبة الصغرىٰ : ٣٩٨.

(٢) كمال الدين : ٤٨٢/٢ ، الحديث ٤٥.

ولكن الإمام كان حذراً في اتصالاته... وفي تلك الفترة صدر توقيع عنه يفيد بتحريم ذكره باسمه في المحافل: «ملعون ملعون من سمّاني في محفل من الناس»[١].

وكان أول إجراء اتّخذه الإمام أن أمر سفيره بنقل نشاطه إلى بغداد.. فبغداد مركز تجاري كبير، ومن الصعب على الجواسيس مراقبة ما يجري فيها من اتصالات تتخذ من التجارة غطاءً لها.. ومنذ ذلك الوقت لم يعد أحد يرى عثمان بن سعيد يتردد على سامراء كما كان الحال في زمن الإمام الحسن عليه‌السلام. بل إنّ الإمام نفسه سوف يرتدي زيّ التجار.

وخلال الفترة من عام ٢٦٠ إلى عام ٢٦٣هـ تلاحقت الأحداث[٢] بشكل خطير فقد بدأ الامبراطور باسيل الأوّل سلسلة من الغارات استهدفت المدن الحدودية الإسلاميّة، كما شن الأعراب غاراتهم على مدينة حمص وحدثت قلاقل في مدينة الموصل سببها عدوان الجنود على الأهالي وانتهاكهم الأعراض..

وفيما كانت المعارك مع الزنوج مستمرة، اندفع الخوارج في هجومات جديدة بقيادة مساور الشاري، وفي الشمال الافريقي حدثت انتفاضة شعبية ضد حكم أحمد بن طولون في منطقة برقة قمعت بوحشية، وفي تلك الفترة العاصفة أيضاً رأى يعقوب بن ليث الصفار مؤسس الدولة الصفارية انتهاز الفرصة فاندفع باتّجاه الأهواز وفارس واستولى على مساحات شاسعة ثمّ راح يدنو باتجاه بغداد مما بعث الرعب في قلب الخليفة الذي عبأ قوّاته بقيادة أخيه الموفق لوقف الصفار عند حدوده..

وسرعان ما وقعت المعركة الفاصلة في «دير العاقول» على بعد ١٢ ميلاً من بغداد فسحقت قوات الصفار الذي ارتدّ بفلوله إلى الأهواز.. ولكنه ظلّ يشكل خطراً

---

(١) الغيبة / الطوسي: ١٦٤. تاريخ الغيبة الصغرى: ٥٤٢.

(٢) تاريخ الطبري: الحوادث بين سنة ٢٦١ ـ ٢٦٣هـ.

على الخلافة العباسية ثمّ وقع حادث غامض إذ وقع رئيس الوزراء عبيدالله بن يحيىٰ عن دابته عندما صدمه الخادم « رشيق » وتوفّي بعد ساعات[١] .

كما توفّي الحسن بن محمّد بن أبي الشوارب رئيس سلطة القضاء فتولّىٰ رئاستها أخوه علي بن محمّد[٢] .

وقد أسهمت هذه الأحداث في التخفيف من محنة السيّدة نرجس التي اُفرج عنها بعد اعتقال استمر أكثر من عامين وسوف تعيش حياة التشرّد مدّة من الزمن قبل أن يستجيب الله دعوتها فانتقلت إلى الرفيق الأعلى تشكو إلى بارئها ظلم الظالمين .

وكان الهمس حول وجود حقيقي للإمام المهدي ما يزال مستمراً ، وأدرك الكثيرون أن الحقيقة توجد لدىٰ عثمان بن سعيد ذلك الرجل الصالح الذي تمكن من إحاطة عدد كبير ممن يوثق بأمانتهم ووعيهم بوجود الإمام المهدي . . ولكن الظروف الحساسة التي يمرّ بها الإمام جعلته يتكتّم فكان لا يتحدث بهذا الشأن إلّا في المناسبات التي تستدعي ذلك ، كما حدث في تلك الليلة الشتائية عندما جاءه في جنح الظلام رجل يبحث عن الحقيقة فقال له وهو يحاوره :

أسألك بحق الله وبحق الإمامين اللذين وثقاك هل رأيت ابن أبي محمّد الذي هو صاحب الزمان ؟ !

غمرت الدموع عيني الرجل الصالح وقال : أخبرك على أن لا تخبر أحداً ما دمتُ حيّاً ؟

---

(١) تاريخ الطبري : الحوادث بين سنة ٢٦١ ـ ٢٦٣هـ. وسوف نجد « رشيق » هذا يعمل في جهاز المعتضد وسيكلّفه الأخير بمهمة اغتيال الإمام المهدي في منزله بسامراء . الغيبة للطوسي : ٢٤٩.

(٢) تاريخ الغيبة الصغرىٰ : ٢٣٩.

وهزّ الرجل رأسه موافقاً، فقال السفير: أجل قد رأيته[١].. يوم ولادته.. ورأيته وقد أيفع وأصبح فتى رشيداً موفّقاً[٢].

«المعتضد» السفّاح الثاني!

لقد استرسلنا في رسم المشاهد حتى عام **٢٦٣**هـ أي حتى وفاة شخصية كبيرة لها نفوذها هي شخصية عبيدالله بن يحيى بن خاقان في حادث غامض جداً وهو قيام رشيق الخادم وهو غلام «الموفق» بافتعال حادث اصطدام بينما عبيدالله على دابّته فسقط عن الدابّة وتوفّي بعد سويعات!![٣].

وسنرىٰ رشيقاً هذا يعمل في جهاز المعتضد القمعي، والأخير يحتاج لوحده دراسة عميقة، فهو الخليفة الذي لقّب بالسفّاح الثاني، والذي حكم البلاد بقوة الحديد والنار، والذي وقعت في عهده حوادث تحتاج إلى توقف ودراسة.

على أننا سوف نؤشر بعض الحوادث قبل أن نستعرض ما حصل خلال حكومة المعتضد التي استغرقت زهاء العقد من الزمن.

في الأعوام **٢٦٤**هـ - **٢٦٧**هـ وقعت حوادث كبرىٰ إذ أغار الأُسطول الإسلامي على مدينة البندقية فيما كانت الاشتباكات في جنوب العراق تزداد ضراوة، وفي مصر أعلن أحمد بن طولون تمرّده على العاصمة وزحف بجيش جرّار على دمشق فاستولىٰ عليها.

وفي خراسان اجتاح الطاعون ليحصد آلاف الأرواح فيما أغار الثوّار الزنوج على مدينة واسط وارتكبوا فيها مذابح وحشية.

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٢١٩، ط. طهران / ١٣٩٨هـ.

(٢) الإرشاد: ٣٣٠. إعلام الورى: ٣٩٦.

(٣) تاريخ الطبري: حوادث سنة ٢٦٣.

وشهدت بلاد الأندلس ثورة المولّدين ، واستيقظت مدينة سامراء على فرار رئيس الوزراء الحسن بن مخلد (نصراني وأسلم) إلى بغداد بعد أن تناهى إليه عزم القائد التركي موسى بن بغا العودة إلى سامراء فصودرت جميع ممتلكاته .

وشهدت مدينة أصفهان ثورة تم قمعها في مهدها ، وثورة أُخرى في نيسابور الخاضعة لنفوذ الصفّار الذي توفّي قبيل اندلاعها ، وثورة في مدينة حمص السورية ، وأغار الأعراب على مكّة المكرمة ونهبوا كسوة الكعبة المشرّفة ، وتعرّضت ديار ربيعة إلى غارات وحشية شنّها الروم .

وفي هذا العام (**٢٦٧هـ**) توفّي السفير الأوّل بعد أن أبلغ بعض رجالات الشيعة رسالة من الإمام المهدي عليه السلام وهي رسالة تتعرض إلى الشكوك التي بدأت تراود أذهان البعض في عدم وجود حجّة لله .

ويدور حوار حول السفير القادم بعد رحيل السفير الأوّل : مدّ الله في عمرك إذا كان الذي لابدّ منه فمن يخلفك في سفارتك ؟

- محمّد ابني .
- أنت اخترته ؟ !
- بل اختاره حجّة الله .

في عام **٢٦٨هـ** شرع « الموفق » بإعادة تنظيم قواته استعداداً لبدء الهجوم العام خاصّة بعد نجاح « رشيق » بقطع طريق الامدادات التي تصل « المختارة » عاصمة التمرّد من البادية العربية .

وقد عبرت الجيوش العباسية الأنهار والمسطحات المائية وأصبح الهجوم العام وشيكاً .

وأسفرت العمليات الحربية عن تشديد الحصار على المختارة التي شهدت تصدّعاً في جبهتها الداخلية بسبب نفاد المؤن واضطرار البعض إلى أكل لحوم

الموتىٰ ، بل وصلت أنباء مروّعة حول أكل لحوم الأطفال[١] .

أما على صعيد الوضع في سامراء فقد قرر المعتمد الذي وجد نفسه خليفة بلا خلافة الفرار من العاصمة واللجوء إلى مصر ، فغادر سامراء بذريعة القيام برحلة للصيد ، وتم ترتيب اتفاق مع أحمد بن طولون الذي شجع على ذلك وأرسل قوات عسكرية إلى الرقّة لاستقباله ، وعندما وصل الخليفة الموصل تمّ إلقاء القبض عليه وأُعيد إلى سامراء بالقوة .

وأصدر الموفق أوامر بفرض الإقامة الجبرية على أخيه ، وأصدر مرسوماً يقضي بتعيين ابن كنداج حاكم الموصل أميراً على مصر فردّ أحمد بن طولون بإعلانه خلع الموفق من ولاية العهد .

في عام **٢٧٠**هـ بلغ الموفق ذروة مجده السياسي بقضائه التام على ثورة الزنج التي أقلقت الرأي العام قرابة خمسة عشر عاماً .

وفي نفس العام توفي أحمد بن طولون فتسنّم الحكم ابنه خمارويه ، كما توفّي أيضاً مؤسس الدولة العلوية في طبرستان الحسن بن زيد .

وفي عام **٢٧١**هـ انخفض منسوب المياه في النيل فانتهز الموفق الفرصة ودفع بالجيوش العباسية لاسترداد مصر لكنها تمنىٰ بهزيمة ساحقة في منطقة الرملة بفلسطين بعد اشتباكات دامية .

في عام **٢٧٢**هـ وقعت في بغداد حوادث شغب وعنف استهدفت السكان النصارى وهاجم الناس الدير العتيق ودمّروا بعض جدرانه مما استدعىٰ تدخل الشرطة بأمر من حاكم بغداد وإعادة بناء ما تهدم .

وفي نفس العام اندلعت الحرب مرة أُخرى بين الدولة وقوات الصفاريين لتستمر

---

(١) تاريخ الطبري : حوادث سنة ٢٦٩.

حتى عام ٢٧٤هـ.

وخلال ذلك تم الاعتراف رسمياً بولاية خمارويه على مصر والشام والمـناطق الحدودية المتاخمة لدولة الروم التي توفّي امبراطورها باسيل الأوّل وشهد عام ٢٧٣ ثورة الزنوج في مصر ثمّ قمعها بوحشية ، فيما كان الأندلس يشهد ثورة في مـدينة طليطلة ، وفي أثناء ذلك توفّي العالم الفلكي عباس بن فرناس بعد فشل أول محاولة بشرية للطيران نفذت من فوق مئذنة قرطبة .

وفي هذا العام تعرضت سامراء إلى غارات اللصوص ، وكان الخـليفة المـعتمد قد غادرها إلى بغداد وحلّ في قصر بوران بنت الحسن بن سهل وزوجة المأمون .

وتوترت الأجواء في بغداد سنة ٢٧٥هـ بعد إقدام الموفق على توقيف ابنه أبـي العباس الذي سيعرف في سنة ٢٧٩هـ بـ« المعتضد » فاندلعت حوادث شغب أثارها أتباعه الذين تجمعوا في جسر الرصافة ، ولم يذكر التاريخ بواعث هذا الاجراء ولكنّ الموفق التقى المشاغبين وجاء في حديثه معهم : أترونكم أشفق منّي على ابني ؟! هو ولدي واحتجت إلى تقويمه .

إنّنا نذكر هذه التفاصيل لنرسم صورة للمشهد العـام الذي أسـفر بشكـل وآخـر عن صعود الخليفة الدموي المعتضد سنة ٢٧٩هـ.

في سنة ٢٧٦هـ انتهى الصراع مع الصفّاريين بتعيين محمّد بن الليث الصفار قائداً لشرطة بغداد وكُتب اسمه على الأعلام .

وفي أواخر عام ٢٧٧هـ أُصيب الموفق بداء النقرس فعاد من إيران إلى العراق على سرير يحمله أربعون حمالاً ووصل بغداد مطلع صفر سنة ٢٧٨هـ.

وأصبحت بغداد مسرحاً للشائعات حول وفاته فيما كان ابنه ما يزال سجيناً .

أما المعتمد فقد كان في المدائن مع أُسرته خليفة بالاسم فقط ينتظر مصيره .

وبرز أبو الصقر أحد كبار القادة العسكريين ففرض سيطرته على بغداد ، وعندما

اشتدّت الشائعات حول وفاة الموفق اندفع انصار ابنه إلى السجن وحطّموا الأقفال ، وأخرجوا « المعتضد » ، وانطلقوا به إلى منزل والده الذي دخل في غيبوبة الموت .

وفي **٩** صفر وصل المعتمد وأفراد اُسرته بغداد وقد تدهورت صحة الموفق .

وتلبّدت الأجواء في بغداد ، وما لبثت الفوضىٰ أن اندلعت فجأة وهوجمت بعض قصور القادة خاصة قصر أبي الصقر ونهبت حتى غدت قاعاً صفصفاً .

وكسرت أبواب السجون حتى سجن المطبق الرهيب وتصدّىٰ أبو العباس «المعتضد» فعيّن غلامه بدر قائداً لشرطة بغداد فأعاد إليها الهدوء في منتصف صفر .

وفي يوم الأربعاء **٢٢** صفر أعلن عن وفاة الموفق ، وفي يوم الخميس أعلن أيضاً عن تعيين أبي العباس ولياً للعهد بعد المفوض ولي العهد الرسمي ، وفي يوم الجمعة سمع أهل بغداد بلقب أبي العباس « المعتضد » .

وفي **٢٦** صفر اُلقي القبض على أبي الصقر وصودرت جميع ممتلكاته وممتلكات أقاربه الذين اختفوا عن الأنظار ، وفي يوم الثلاثاء **٢٧** صفر أعلن عن تنصيب عبيدالله ابن سليمان بن وهب رئيساً للوزراء . .

وشمّ الناس عهداً يفوح برائحة الدم . . لقد بدأ عصر الارهاب من جديد ، وان مسلسل الرعب الذي عاشته بغداد في عهد أبي العباس السفاح والمنصور سيعود في عهد أبي العباس المعتضد .

وفي مطلع سنة **٢٧٩**هـ منع منعاً باتاً جلوس أي حكواتي لسرد القصص ، كما منع بيع وتداول الكتب الكلامية والفلسفية[١] .

وفي **٢٢** محرم اُعلن عن خلع ولي العهد المفوّض ، واعتبار المعتضد ولي العهد الرسمي الوحيد واُبلغت جميع الأقاليم الإسلاميّة بهذا الاجراء ، فأسقط المفوض

---

(١) أحداث التاريخ الإسلامي / عبدالسلام الترمانيني : ٢/٢٦١ .

عن الخطب الأُسبوعية .

وفي تشرين الثاني سـنة ٨٩٢م ١٧ رجب ٢٧١ أقـام الخـليفة المـعتمد احـتفاله الترفيهي مساءً في حدائق قصر الحسني المطلّة على دجلة .. وراح يكـرع كـؤوس الخمر ، مع شرائح اللحم المشوي .. وفيما كانت أصوات الموسيقىٰ والمطربين تملأ الفضاء سقط المعتمد فجأة .. وتضاربت الشائعات حول سبب الوفاة ، وتناقل الناس شرهه في الطعام تلك الليلة وانّه مات مبطوناً فيما أكد بعضهم أنه اغتيل بوضع السمّ في اللحم أو في الخمر[١]!!

وفي يوم الثلاثاء ١٨ رجب أُعلن عن بيعة الخليفة الجديد المعتضد .. وجـلس على دست الحكم وله من العمر ثلاثون سنة ..

وبدأ عصر الارهاب الشامل .. فالخليفة الجديد سفّاك للدماء مع رغبة شديدة في تعذيب ضحاياه بأساليب بشعة[٢].

تسكن روحه حمى الشهوات ، شبق جنسي ، وميل جارف لبناء القصور الفخمة[٣].

كان أول شيء قام به صلحه مع « خمارويه » الذي أرسل إليه عارضاً ابنته « قطر الندىٰ » زوجة لابن الخليفة ..

فوافق الخليفة على أن تكون زوجة له شخصياً ، وبدأ العمل في بناء قصر الثريا المنيف استعداداً لاستقبال « قطر الندىٰ » .

وفي عام ٢٨٠هـ أُلقي القبض على محمّد بن الحسن بن سهل شقيق بوران مالكة القصر الحسني الذي يسكنه الخليفة حالياً والذي أصبح قصر الخلافة ..

---

(١) تاريخ بغداد : ٤/٦٠ . تاريخ الخلفاء : ٢٦٥ .

(٢) مروج الذهب : ٢٤٧ ، ط . مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت .

(٣) أنفق على بناء قصر « الثريا » ٤٠٠/٠٠٠ دينار . المصدر المتقدّم .

وقد عثر في منزله على جرائد تضمّ أسماء أشخاص يبايعون رجلاً علوياً لم يصرّح باسمه . .

وكشفت التحقيقات عن وجود خطة لاغتيال المعتضد وقلب نظام الحكم .

ودوهمت منازل بعض الذين وردت أسماؤهم في الجرائد وسيقوا جميعاً إلى القصر وتعرضوا للتعذيب فاعترفوا أنّهم لا يعرفون الرجل العلوي وأنهم يعرفون « شميلة » فقط !

تساءل المعتضد متوجساً وهو ينظر إلى عبيدالله بن وهب : مَن يكون شميلة ؟ !

أجاب رئيس الوزراء : إنّه محمّد بن الحسن نفسه فهو معروف بشميلة .

أصدر المعتضد أحكام الاعدام بحقهم فأُعدموا فوراً ، أما شميلة فقد ظلّ رهن التحقيق ، وكان المعتضد يأمل منه أن يكشف عن اسم الرجل العلوي الذي سيقود الثورة في قلب بغداد[1] !

وفي قصر الحسني بدأت أولىٰ حفلات التعذيب المعتضدية سبقها استجواب طويل . . حاول المعتضد إغراءه بالمال ، ولكنّ الرجل أظهر إباءً فراح يهدد بالويل والثبور . . فردّ شميلة متحدّياً : لو شويتني على النار فلن تسمع مني إقراراً . . أتريدني أُدلّك على رجل أعتقد بإمامته وأدعو الناس إلى طاعته ؟ !

اشتعلت عينا الخليفة بالشرر . . وقال وهو يصرّ على أسنانه بغيظ : سوف أشويك بالنار كما قلت !

- اصنع ما تشاء .

برقت في أعماقه المظلمة فكرة رهيبة في أن يجعله بين ثلاثة رماح ثمّ يشوىٰ بالنار « ويشوىٰ كما يشوى الدجاج »[2] !!

---

(١) و (٢) مروج الذهب : ٢٤٧ ، ط . مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت .

ونفّذت الفكرة على الفور وراح الجلاوزة يشوون الإنسان وكان المعتضد يـنظر بتلذذ إلى آلام الإنسان ولم يبد عليه أنه قد اكترث لرائحة شواء لحم بشري !!

واستمر المشهد المهول إلى أن تفرقع جسم الضحية ولفظ أنفاسه . . وعندها أمر « خليفة المسلمين » أن يصلب الجسد بين الجسرين على الجانب الغربي !

وظلّ اسم الرجل العلوي المجهول هاجساً مخيفاً يراود ذهن الخليفة الذي يعجّ بالأوهام والوساوس[(١)] .

ترىٰ من يكون ذلك الرجل العلوي الذي يعدّ للثورة في بغداد ؟ !! وباح الخليفة لرئيس وزرائه الذي لا يقلّ عنه وحشية وسفكاً للدماء . . باح له بهواجسه . .

وبدأت كلاب السلطة مهامها في التجسّس والبحث عن الرجل أو الحصول على معلومات تساعد في القبض عليه .

ولم تمض سوىٰ أسابيع حتىٰ بدأت التقارير السرّية ترد على القصر وتفيد بوجود مجموعة من الوكلاء مهمتهم استلام أموال تأتي إلى أشخاص أو شخص له إلقاب عديدة . . فهو مرّة « الحجّة » أو « صاحب الزمان » أو « الغريم »[(٢)]، ولا يوجد اسم صريح يمكن التعرف عليه !

وأعدّت لرئيس الوزراء عبيدالله بن سليمان بن وهب قائمة تضم مجموعة مـن رجال الشيعة يقومون بمهمة الوكالة في استلام أموال ترد لرجل علوي مجهول[(٣)] . .

---

(١) من المؤسف أن نجد أحمد الكاتب يقول : «كانت سياسة المعتضد ليّنة مع العلويّين كسياسة من سبقه من الخلفاء العبّاسيّين » تطور الفكر السياسي : ٢٥٢ .

إن دراسة حياة المعتضد خاصّة ستكشف وبأرقام مذهلة عن دموية لا حدّ لها ودهاء ، وأن هذا التقييم يشير إلى سطحية في دراسة حياة الخلفاء العبّاسيّين .

(٢) الغيبة / الطوسي : ١٧١ . تاريخ الغيبة الصغرىٰ : ٥٩٦ .

(٣) تاريخ الغيبة الصغرىٰ : ٦٢٩ .

واتّخذت التقارير مساراً أكثر خطورة عندما راحت تشير إلى منزل الإمام الراحل الحسن العسكري عليه السلام في سامراء، ولم يضع المعتضد وقتاً في معالجة الموقف واتّخاذ القرار بأسرع وقت.

لقد انقدحت في ذهنه المتوقد أن يكون الرجل المجهول هو المهدي!!

وأصبح من المؤكد وجود سفير له، بل ووجود وكلاء يستلمون الأموال بالنيابة عنه[1]!

تورد المدوّنات الشيعية أن عبدالله بن سليمان بن وهب أخفق في القبض على أيّ من وكلاء المهدي بعد فشل الجاسوس الذي دسته الحكومة في كسب ثقة أي منهم.. لقد قابل كثيراً من الشخصيات وتظاهر بأنه من شيعة الإمام المهدي عليه السلام، وأن لديه أموالاً يريد تأديتها كحقوق شرعية، ويبدو أن ابن وهب قد اقتنع تماماً وتبدّدت شكوكه، أما المعتضد فقد تظاهر بذلك فقط.

فهو كسياسي شبّهه التاريخ بأبي العباس السفاح لا يريد أن يثير مسألة حساسة مثل مسألة المهدي ويجعل منها قضية ما دامت التقارير السرّية تؤكد عدم وجودها.

كما أن مهمة إلقاء القبض على المهدي أو تعبئة الوضع بهذا الاتجاه أمر يضرّ بسمعة الدولة.

ولذا سنرى الخليفة السفّاح يكلّف «رشيق» الخادم بمهمة غاية في السرّية وهي مهمة غامضة وسريعة: ثلاثة رجال وستة خيول حتىٰ لا تكون هناك فرصة لالتقاط الأنفاس في قطع مسافة ١٢٠كم، واقتحام منزل عنوانه واضح جداً هو منزل الإمام الهادي عليه السلام في درب الحصا في سامراء.

والرواية يسردها رشيق بعد وفاة المعتضد الذي سبق وأن هدّدهم بالموت إذا

---

(١) إعلام الورىٰ: ٤٢١.

ما تفوهوا بها ولكنه يسردها بعد وفاة الخليفة الدموي كجزء من ذكرياته .

وأول شيء يثير الانتباه هو فشل المهمّة لسبب مدهش وهو يرىٰ حوضاً مليئاً بالمياه فالحجرة التي أراد الرجال الثلاثة اقتحامها مفروشة بالمياه وهناك في أقصاها شابّ يصلّي ، حاول أحدهم العبور إليه ، لكنه فوجىء بعمق المياه فارتدّ على أعقابه ، ومنظر كهذا لابدّ وأن يربك الرجال خاصّة وأن منظر إنسان يصلّي في مكان عجيب يفترض أن يكون مبلطاً أو مفروشاً .

وفي ضوء ما ورد من مواصفات المنزل يمكن تفسير وجود هذه الحجرة الزاخرة بالمياه ، والرواية أهملت التاريخ الدقيق ، ويحتمل أن يكون قد حصل ذلك في موسم يرتفع فيه منسوب المياه في دجلة فتتدفق المياه بيسر عبر الكهاريز أو القنوات الجوفية ، بل إن إعداد هذه الغرفة ليس له ارتباط وثيق بتاريخ محدد أو موسم معين .

ولا نريد التوقف أكثر من هذا أمام هذه الحادثة لكننا سنتفهم الموضوع بإثارة حادثتين اُخريين مع الإشارة إلى بعض الوقائع التي لا تبدو هامّة إلّا بعد وضعها في إطار عام ، منها وصول « قطر الندىٰ » بنت خمارويه وهي أميرة صغيرة اقترح أبوها أن تكون زوجة لابن الخليفة ولكن المعتضد يستأثر بها ويبني لها قصر الثريا الكبير .

وما لبثت الأنباء أن وصلت باغتيال خمارويه في مصر ! كما سادت بغداد أجواء متوترة بعد تجدّد الاشتباكات واشتعال الحرب مع الدولة العلوية في طبرستان . فيما كانت التقارير ترد القصر بوصول مبالغ كبيرة من محمّد بن زيد العلوي زعيم الدولة العلوية إلى رجل يدعىٰ محمّد بن ورد العطار لتوزيعها على العلويّين في بغداد والكوفة فأُلقي القبض عليه وسيق إلى قصر « بدر » غلام المعتضد .

في مطلع عام **٢٨٤**هـ قرر المعتضد لعن معاوية بن أبي سفيان والطغمة الأموية على المنابر ، واستخرج من خزانة الدولة كتاباً في لعن معاوية كان الخليفة المأمون قد أعدّه في خلافته ، وتم إعداد كتاب موجز أخذ من جوامع كتاب المأمون ، وتناقل

أهل بغداد أخبار عن الموعد المقرّر لقراءة الكتاب والذي سيكون ١١ جمادى الآخرة .

وكان المعتضد مصمماً على ذلك لولا أن حذّره القاضي يوسف بن يعقوب من العواقب الوخيمة قائلاً : إني أخاف أن تضطرب العامّة عند سماعها هذا الكتاب .

قال المعتضد : إذا تحركت العامّة أو نطقت وضعت سيفي فيها .

قال القاضي محذراً من خطر العلويّين : يا أمير المؤمنين فما تصنع بالطالبيين الذين يثورون في كل ناحية ؟ وكثير من الناس يميلون إليهم لقرابتهم من الرسول ومآثرهم ؟ وفي هذا الكتاب إطراء لهم . . فإذا سمع الناس هذا الكتاب كانوا إليهم أميل ، وكانوا هم أبسط ألسنة وأثبت حجّة منهم اليوم .

وأطرق المعتضد والتزم الصمت ، ولكنّ الكتاب انتهىٰ أمره ولم يقرأ بالرغم من أن التاريخ حفظه بالتفصيل[١] .

الحادثة الأُولى

في منتصف شعبان وقع حادث غريب عندما ظهر تحت جنح الظلام شخص مسلّح في قصر الثريّا الذي انتقل إليه المعتضد رسمياً منذ زفاف « قطر الندىٰ » ، وعندما أراد أحد الخدم أن يتعرف على هويّته ضربه الشخص بالسيف فقطع حزام الخادم الذي فرّ مذعوراً . .

ثمّ توارى الشخص المجهول في حدائق القصر ! وشعر المعتضد بالرعب وهو يصدر أوامره إلى الحرس بالبحث خلال الأشجار واستمر البحث حتىٰ مطلع الفجر ولكن لم يعثر له على أثر ! !

---

(١) راجع تاريخ الطبري : حوادث سنة ٢٨٤هـ.

ثمّ ظهر ثانية بعد ليالي أُخرى .

وعُزّزت أسوار القصر بمادة هشّة تحسباً من استخدام كلاليب التسلّق . . كما أمر الخليفة بإحضار من في السجن من اللصوص ليناقشهم في إمكانية الدخول إلى القصر تسلّقا أو نقباً [١] ؟ !

وتناقل الناس حكايات حول هذا الشخص وأنه ربما كان من الجنّ ظهر للخليفة بسبب ايغاله في سفك الدماء . . وأنّه ربما كان شيطاناً أو من مؤمني الجنّ .

وكان الجواسيس ينقلون إليه بعض ما يتناقله الناس ، ولكن المعتضد يبدو قد صدّق حكاية الخادم الذي وقع في هوىٰ إحدىٰ جواري القصر وأنه يتناول بعض العقاقير الخاصة فلا يدرك بحاسة البصر [٢] !

وعمد المعتضد إلى تعذيب بعض الخدم والجواري حتى الموت وألقىٰ في السجن آخرين .

وكان المعتضد تشتدّ هواجسه وقلقه عندما يحلّ المساء الخريفي ، ففي منتصف الليل عاود ذلك الشبح ظهوره مرّة أُخرى في رمضان وكانت الأبواب تفتح وتغلق . .

وكان المعتضد يركض كالمخبول في أروقة القصر فكان يراه مرّة في صورة راهب ذي لحية بيضاء ، وتارة في صورة شابّ حسن الوجه بلحية سوداء ، وتارة في صورة شيخ يرتدي زيّ التجار وتارة أُخرى بيده سيف مسلول [٣] .

وأصبح المعتضد فيما يبدو في حالة نفسية متدهورة حتىٰ أنه أمر بإحضار المجذوبين والمجانين والمعزّمين فأُحضروا وكانت فيهم امرأة .

إنّ أحداً لا يدري هل كان الشبح الذي كان يراه الخليفة حقيقة أم أنّ ما يراه لا يعدو أن يكون أشباح ضحاياه تتراءىٰ له في قلب الظلام . .

(١ ـ ٣) مروج الذهب : ٢٧٧/٤ .

لقد كان الخليفة يشرف شخصياً على مختلف الطرق في التعذيب الوحشي .. فكانت مشاهد التعذيب البشعة مما لا يمكن احتمالها لدى إنسان فيه بقيا من الإنسانيّة(١) .

وسيبقىٰ ما رآه الخليفة في قصر الثريا لغزاً من ألغاز التاريخ !

ونختتم عهد المعتضد الدموي بالاشارة إلى وفاة الأميرة قطر الندىٰ سنة **٢٨٧** ولما تناهز العشرين بعد !!

وفي عام **٢٨٨** شهد الشمال الافريقي ظهور رجل يدّعي أنه المهدي .

وفي عام **٢٨٩** توفّي المعتضد ليتولّى الخلافة بعده ابنه « المكتفي » ، وبدأ رعب القرامطة الذي أقلق العالم الإسلامي .

الحادثة الثانية

وقبل أن نوردها نشير إلى اعتقال الحلّاج سنة **٣٠١**هـ بتهمة الزندقة والالحاد ، علماً بأنّه متهم أيضاً بادّعائه السفارة للإمام المهدي عليه السلام وقد فضحه الزعيم والعالم الشيعي أبو سهل بن إسماعيل النوبختي ، والذي يمت برابطة نسب إلى الشيخ الحسين بن روح النوبختي السفير الثالث للإمام المهدي عليه السلام .

في عام **٣١٤**هـ كانت بغداد تتابع بقلق بالغ تحركات القرامطة الذين يثيرون الرعب في كل مكان يقتربون منه .

فقد فرّ أهل مكة إلى الطائف عندما سمعوا بزحف « أبي طاهر القرمطي » إليها ولكن سرعان ما وصلت الأخبار أنه في طريقه إلى العراق .. وأنّ هدفه الأوّل سيكون الكوفة ..

---

(١) مروج الذهب : ٤/٢٦٧ .

كتب الخليفة إلى يوسف بن أبي الساج الذي يرابط في مدينة واسط أن يتحرك بسرعة صوب الكوفة .. وأخبره بأنّ أطناناً من المؤن بما في ذلك القمح والشعير بانتظاره .

ويشاء القدر أن تسقط هذه المؤن بيد أبي طاهر ، وعندما وصل الجيش العباسي في الثامن من شوّال وجد الطريق إلى الكوفة قد سقط بأيدي القرامطة .

كان الجيش العباسي يفوق قوّات القرامطة أضعافاً مضاعفة ، ولذا شعر ابن أبي الساج بالغرور وأمر بإعداد كتاب الفتح قبل أن تبدأ العمليات الحربية ؟

ونشبت المعركة في ضحىٰ يوم السبت ٩ شوال واستمرت حتى الغروب ، وقاد أبو طاهر هجوماً مدمّراً حطم فيه خطوط الجيش العباسي الذي انهار فجأة ، ووقع يوسف في أسر القرامطة ، ووكل أبو طاهر طبيباً يعالج جراحه .

وصلت فلول المنهزمين بغداد حفاة عراة وكان لمنظرهم المأساوي الأثر الرهيب في بثّ الرعب في المدينة ، وأصدر « نازك » قائد الشرطة العام أمراً بمنع التجول ليلاً ونفذ الاعدام بالمتخلّفين .

وبدأ سكان بغداد يعدّون العدّة للفرار من المدينة إلى همدان في إيران ، فيما وصلت أنباء مؤكدة أنّ القرامطة في طريقهم إلى الأنبار .

استدعى الخليفة القائد العسكري مؤنس المظفر لمواجهة القرامطة ، فحرّك خمسمائة زورق مشحون بالجنود لصدّ القرامطة إذا حاولوا عبور نهر الفرات .

حرّك القائد قطعات من قواته إلى الأنبار لتعزيز دفاعات المدينة التي قام أهلها بقطع الجسر .

وعسكر القرامطة في الجانب الغربي من النهر ، وفي عملية سريعة قام القرامطة بالافادة من السفن الموجودة في مدينة « حديثة » التي سقطت في أيديهم فعبر ثلاثمائة محارب إلى الأنبار وسرعان ما فرّ جنود الخليفة ، فعقد الجسر مرّة أُخرى

وعبرت قوّات القرامطة لتدخل الأنبار دخول الفاتحين .

وفي غمرة الرعب الذي عمّ بغداد أُلقي القبض على رجل قرمطي اتّهم بمراسلته لأبي طاهر وتسريبه أخبار ومعلومات هامّة وسيق الرجل إلى قصر رئاسة الوزراء حيث تم استجوابه .

- هل تقرّ بذلك ؟

- نعم !

- لماذا ؟

- لأنني أرىٰ أبا طاهر على الحقّ ، وأنت وخليفتك كفار تأخذون ما ليس لكم . .

وسكت لحظات ليقول : ولابدّ لله من حجّة في أرضه . . وإمامنا المهدي محمّد بن أحمد بن عبدالله بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب !!

إننا لسنا كالرافضة ولا الاثني عشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض . . فيقول رأيته وسمعته وهو يقرأ . . ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطىٰ من العمر ما يظنونه . .

سكت رئيس الوزراء ، ثمّ قال : أنت تعرف أشياء كثيرة عن عسكرنا فمن فيهم على مذهبك ؟

نظر الرجل وأفتر عن ابتسامة ساخرة وقال : أنت بهذا العقل تدير الوزارة . . كيف تظنني أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لن أفعل ذلك !!

شعر رئيس الوزراء بالغيظ لهذه الاهانة وأصدر أوامر بتعذيبه وعدم تقديم الطعام والشراب إليه ، فظل ثلاثة أيام ثمّ مات(١) .

وإفادات الرجل وما ورد في وقائع المحاكمة تشير إلى أنّ مسألة المهدي مسألة

---

(١) تاريخ الطبري : ١٠/٦٧ ، حوادث سنة ٢٨٥هـ .

جادّة حتىٰ انها استغلت في تأسيس دولة قوية على أنقاض دولة الأدارسة في الشمال الافريقي ، كما أن الاثني عشرية وفقاً لإفادته يطرحون منذ البداية مسألة الغيبة والعمر الطويل مع أنّ عمر الإمام عليه السلام وقت المحاكمة يناهز الثامنة والخمسين عاماً .

كما أن مسألة وجوب وجود حجّة لله قد ولجت في أذهان كثيرين ممن يناهضون الحكم القائم .

ونختتم هذا الفصل بإثارة ما أثبته الدكتور عبدالسلام الترمانيني في موسوعته التاريخية . . وفي عمود الوفيات في سنة **٢٧٥**هـ الذي جاء تحت عنوان اختفاء « محمّد بن الحسن العسكري » : « هو محمّد بن الحسن العسكري بن علي الهادي . أبو القاسم . آخر الأئمّة الاثني عشر عند الشيعة الإماميّة ، وهو المعروف عندهم بالمهدي المنتظر والحجّة وصاحب السرداب .

ولد بسامرّاء ، ومات أبوه وله من العمر خمس سنين ، ولمّا بلغ التاسعة عشرة من عمره دخل سرداباً في دار أبيه بسامرّاء ولم يخرج منه »(١) .

وقد اعتمد الدكتور المؤرخ مصدرين هما :

وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفيه : « . . وذكر ابن الأزرق في تاريخ ميّافارقين : أن الحجّة المذكور ولد تاسع شهر ربيع الأوّل سنة **٢٥٨**هـ ، وقيل : في ثامن شعبان سنة ست وخمسين وهو الأصح ، وأنّه لمّا دخل السرداب كان عمره أربع سنين ، وقيل : خمس سنين ، وقيل : إنّه دخل السرداب سنة خمس وسبعين ومائتين . . وعمره سبع عشرة سنة ، والله أعلم أي ذلك كان ، رحمه الله تعالىٰ »(٢) .

كما اعتمد الأعلام للزركلي ، وقد ورد فيه : « محمّد بن الحسن العسكري

---

(١) أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين : ٢ : ٢٣٧/١ ـ ٢٤٤ وقائع سنة ٢٧٥هـ.

(٢) وفيات الأعيان : ١٧٦/٤ ، ط . دار الثقافة ـ بيروت .

(الخالص) بن علي الهادي، أبو القاسم آخر الأئمّة الاثني عشر عند الإماميّة. وهو المعروف عندهم بالمهدي وصاحب الزمان والمنتظر والحجّة وصاحب السرداب. ولد في سامراء، ومات أبوه وله من العمر نحو خمس سنين. ولمّا بلغ التاسعة أو العاشرة أو التاسعة عشرة دخل سرداباً في دار أبيه بسامراء ولم يخرج منه»[١].

وقد ذكرنا من قبل نبأ اعتقال المعتضد بأوامر من والده (الموفق) وشغب أتباعه مع أنّنا لا نعلم سبباً مباشراً وواضحاً للاعتقال، لكنه يكشف بجلاء أن المعتضد كان له جهاز إرهابي كوّنه منذ وقت مبكّر، وأنّ «رشيقاً» و «سيما» وغيره أعضاء في ذلك الجهاز، وكان يمارس عمليات غاية في السرّية، فعلىٰ سبيل المثال تم اغتيال عبيدالله بن يحيىٰ رئيس الوزراء في عهد المعتمد عام **٢٦٣**هـ[٢] وغيرها من عمليات الجاسوسية و الأغتيال مايكشف عن وجود قوّة منظّمة و مسلّحة تتمتع بأداء منظّم و دقيق، ولهذا عندما قام الموفق باعتقال ابنه المعتضد عام **٢٧٥**هـ أدّىٰ ذلك إلى توتّر الأجواء في بغداد واندلاع حوادث شغب أثارها أتباع المعتضد إثر تحشّدهم عند جسر الرصافة.

وتذكر مدوّنات الإماميّة أن المعتضد أرسل قوات لاعتقال الإمام عليه السلام، وأنّه كان في السرداب يتلو القرآن، وأنه خرج من السكّة التي على باب السرداب.

والرواية تورد اسم المعتضد صراحة لكنها لا تحدّد تاريخاً للهجوم، ولذا فمن المحتمل أن يكون ذلك قد حدث سنة **٢٧٥**هـ.

وبهذا يكون اختفاء الإمام المهدي عليه السلام في السرداب طبيعياً جداً، وقد أشرنا إلى واقعة اختفاء زوجة المتوكل بعد الاطاحة بابنها الخليفة (المعتز) سنة **٢٥٥**هـ ولم يعثر لها على أثر بعد أن فرّت من نفق سرّي بين مخدع نومها ونقطة خارج أسوار القصر.

---

(١) الأعلام: ٣١٠/٦، ط. ٣.

(٢) راجع تاريخ الطبري: حوادث سنة ٢٦٣هـ.

وتؤيد المدوّنات الشيعيّة هذا الاختفاء باعتبار الهجوم على دار الإمام في عهد المعتضد هو آخر محاولة من الدولة للقبض عليه ، ولعلّه قد غادر سامراء نهائياً بعد أن أخذت بالاضمحلال لعودة الخليفة إلى العاصمة الكبرىٰ بغداد ، وهناك روايات تشير إلى أنّ الإمام كان يدخل بغداد بزيّ التجار[١] .

ولادة المهدي عليه‌السلام لدى علماء السنّة

أثبت بعض مؤرخي السنّة ولادته . وهذه أمثلة :

- ذكر محمّد بن طلحة الشافعي : اسمه (محمّد) وكنيته (أبو القاسم) وأنه ولد سنة (٢٥٨) هـ في سامراء ، وأنّ اسم والده الحسن الخالص ، ومن ألقابه الحجّة ، والخلف الصالح والمنتظر .

ثمّ يورد بعض أحاديث المهدي ويعدّ ذلك مصداقاً لابن الإمام العسكري عليه‌السلام ، وهو الآن غائب ، وسيظهر فيما بعد[٢] .

- وذكره محمّد بن يوسف بعد إشارة إلى وفاة أبيه : وأن الإمام الحسن لم يخلف إلّا ولداً ، ويقال : إنّه المهدي المنتظر[٣] .

- وأورد ابن قزاوغلي بعد بيان أحوال أبيه الحسن : اسمه (محمّد) وكنيته (أبو عبدالله) و (أبو القاسم) ، وأنّه الحجّة صاحب الزمان والقائم المنتظر ، وبه تختتم الإمامة . ثمّ سجّل بعض أخباره[٤] .

- وذكره ابن الصباغ المالكي في الفصل الثاني عشر : في أحوال أبي القاسم

---

(١) موسوعة الإمام المهدي ـ الغيبة / محمّد صادق الصدر .

(٢) مطالب السؤول : ٨٩ ، ط . سنة ١٢٨٧هـ .

(٣) كفاية الطالب : ٣١٢ .

(٤) تذكرة الخواص : ٢٠٤ .

محمّد الحجّة، الخلف الصالح ابن أبي محمّد الحسن الخالص، وهو الإمام الثاني عشر لدى الشيعة، ثمّ أثبت تاريخه، وبعض أخباره[١].

- وذكره الشبلنجي في كتابه «نور الأبصار»: محمّد بن الحسن العسكري، وأُمّه أمّ ولد يقال لها: نرجس، أو صقيل، أو سوسن، وكنيته أبو القاسم، وتقول الإمامية أنّه الحجّة والمهدي والخلف الصالح والقائم المنتظر وصاحب الزمان[٢].

- كما ذكره ابن حجر في كتابه «الصواعق المحرقة» بعد بيان أحوال أبيه، وأنّ الحسن لم يخلف غيره، وكنيته أبو القاسم، وكان له من العمر خمس سنوات عند وفاة أبيه[٣].

- وذكره أيضاً محمّد أمين البغدادي في «سبائك الذهب»:... ومحمّد الذي يدعى بالمهدي كان له خمس سنين عند وفاة والده[٤].

- وأورد ذلك ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: أبو القاسم محمّد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر لدى الإمامية، يعتقد الشيعة أنّه المنتظر والقائم والمهدي[٥].

- وذكره الشعراني في «اليواقيت والجواهر»: المهدي ابن الإمام الحسن العسكري ولد في النصف من شعبان سنة **٢٥٥** هـ، وأنه حيّ وسيبقى حتّى نزول عيسى وقد مضى له من العمر حتى سنة **٩٥٨** هـ **٧٠٣** أعوام[٦].

---

(١) الفصول المهمّة: ٢٧٣ و ٢٨٦، ط. ٢.

(٢) نور الأبصار: ١٦٨، ط. مصر.

(٣) الصواعق المحرقة: ٢٠٦.

(٤) سبائك الذهب: ٧٨.

(٥) وفيات الأعيان: ٢/٢٤، ط. سنة ١٢٨٤.

(٦) اليواقيت والجواهر / الشعراني: ٢/١٤٣، ط. ١ / ١٣٥١.

وأورد الشعراني ما ذكره ابن عربي في « الفتوحات المكّية »[١].

وذكره الخواجة پارسا في كتاب « فصل الخطاب » وذكر ولادتـه وعـمره حـين وفاة والده وغيبته فهو غائب من ذلك الزمان ، وهو الإمـام المـنتظر لدى الشـيعة ، وقد ثبت وجوده لدى الخواص والثقات من أهله ، وقد مدّ الله في عمره كـما مـدّ في عمر الخضر وإلياس[٢].

كما ذكره الحنبلي « أبو الفلاح » في « شذرات الذهب »[٣].

والذهبي في « العبر في خبر من غبر »[٤].

والحموي ، وأثبت ولادته في سنة **٢٥٩** في سامراء[٥]، وغيرهم[٦].

حركة هادئة في العمق

في ظروف سياسية وفكرية عاصفة منذ مصرع الخليفة المتوكل سنة **٢٤٧** وحتىٰ سنة **٣٢٩**هـ وهي السنة التي شهدت فيها بغداد انقضاض الشهب منذ المساء وحتىٰ مطلع الفجر واجتياح دجلة في فيضان مدمّر منازل بغداد[٧] التي اتّسمت بالفوضى وغياب الاستقرار ، نجد حركة هادئة تتّسم بالثبات والتوازن والعـمق ، هـي حـركة

---

(١) اليواقيت والجواهر / الشعراني : ٤٣/٢ ، ط . ١ / ١٣٥١ .

(٢) ينابيع المودّة : ١٢٦/٢ .

(٣) شذرات الذهب : ١٤١/٢ ، ط . بيروت .

(٤) العبر في خبر من غبر : ٣١/٢ ، ط . الكويت .

(٥) تاريخ المنصوري (نسخة مصوّرة عن نسخة موسكو) : ١١٤ .

(٦) انظر كفاية الموحدين / اسماعيل بن احمد العلوي النوري الطبرسي : ٢ (قسم الإمامه) .

(٧) تاريخ بغداد : ٧٣/١ ، ط . المكتبة السلفية ، وفيها ضربت صاعقة القبة الخضراء وتـحطم تمثال الفارس الذي يتربع فوقها منذ سنة ١٤٥هـ وهي سنة بناء وتأسيس بغداد في عـهد المنصور ، وهي نفس السنة التي انتهت فيها الغيبة الصغرىٰ .

المهدي التي مرّت بمراحل عديدة فقد كانت منذ تاريخ الرسالة المحمّديّة بشارة بشّر بها النبيّ أُمّته ، وظلّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام يتوارثون هذه البشارة حتى عصر الإمام الهادي عليه السلام الذي أضاف إلى البشارة إجراءات عملية أشرنا إليها في ممارسته الاتّصال من وراء حجاب (عبر الوكلاء) ومنحهم دوراً أكبر وتعزيز ثقة الناس بهم ، وأيضاً شراء دار فخمة توفر أرضية مناسبة لاختفاء وحماية حفيده ، وشراءه جارية تتوفر فيها مواصفات محددة ولتكون زوجة لنجله الحسن عليه السلام ، ثمّ دخلت حركة المهدي مرحلة أُخرى من خلال ولادته في ظروف خطيرة ودخوله ضمير كثير من الأفراد الواعين كحقيقة ساطعة ، ثمّ مرحلة السفارة .

ونحن لا ننكر ظاهرة الحيرة التي وقعت للشيعة ابان وفاة الإمام الحسن عليه السلام ، ولكن من يقرأ تفاصيل تلك الحقبة ينتهي إلى تصوّر أن الحيرة كانت بمثابة سحابة صيف عابرة ، وأن حركة المهدي واصلت مسارها بشكل هادىء رغم تقلبات الظروف ، وهناك بعدان رافقا حركة المهدي في مراحلها كافة هي غيبته الطويلة وعالميته وهذا ما يجعلنا نتفهم أسرار الغياب الطويل ، فالعالم يتحرك نحو العالمية بخطىٰ واسعة وهو أمر لم يكن مفهوماً آنذاك ، لكننا نجد حديث الأرض التي تملأ عدلاً وقسطاً بعد أن تملأ ظلماً وجوراً من أبرز الأحاديث التي ترتبط بالإمام المهدي عليه السلام وتسمه بميسم ثابت .

إنّ حركة أهل البيت عليهم السلام بشكل عام هي حركة مستقرّة في عمق التغيّرات الإنسانيّة بعيداً عن انفعالات السطح ، فالعالم أشبه بالبحر المتلاطم الأمواج فيما مياه الأعماق هادئة دائماً تغمرها سكينة وجلال .

ولعلّ في صمت الإمام عليّ عليه السلام مدّة ربع قرن أكبر دليل على هذه الحركة الهادئة التي تنظر إلى المديات البعيدة حيث يتطلع الأنبياء .

فعليّ بن أبي طالب عليه السلام هو من نهض بمسؤوليته مذ كان صبياً في العاشرة ، وخاض غمار الحروب والمقاومة حتىٰ أصبحت للاسلام دولة ، فكان بطل الإسلام

وسيفه الذي لا يقهر ، لكننا نراه يلوذ بالصمت التام عندما ذرّت الأطماع رؤوسها والنفوس أطماعها في حطام الدنيا .

مسألة الغيبة

إنّ غياب الإمام فجأة ودون مقدّمات سوف تكون له نتائج وخيمة ، فمن الصعب على الناس استيعاب فكرة الغيبة ، ولهذا يمكن القول أن التمهيد لها بدأ منذ عصر النبيّ ﷺ والأئمّة الأطهار ، وكان التأكيد على هذا الجانب في المهدي يلوح بين الفترة والأُخرى ، إضافة إلى بيان ما سيجري في غيابه من مصائب وما يحلّ من ظلم ، وما في انتظار الفرج من ثواب عظيم .

وقد ذكر المسعودي في « إثبات الوصيّة » أنّ الإمام الهادي عليه السلام كان يعتزل عامّة الناس ولا يتصل إلّا بخاصّته من الأصحاب ، وسار على ذلك خليفته الحسن العسكري عليه السلام فكان يحدّث الناس من وراء حجاب ، وكلّ ذلك من أجل التمهيد لظاهره الغيبة القادمة[١] .

ظاهرة الغيبة

وقد أشرنا فيما مضى بأن رسول الله ﷺ قد أخبر بغيبته (المهدي) قال رسول الله ﷺ : **« والذي بعثني بالحقّ بشيراً ليغيبنّ القائم من ولدي بعهد معهود إليه منّي حتّى يقول أكثر الناس : مالله في آل محمّد حاجة ، ويشكّ آخرون في ولادته . فمن أدرك زمانه فليتمسك بدينه ولا يجعل للشيطان عليه سبيلاً بشكه فيزيله عن ملّتي ويخرجه من دينه فقد أخرج أبويكم من الجنّة من قبل ، وإنّ الله عزّ وجلّ جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »**[٢] .

---

(١) إثبات الوصية : ٢٠٦ .

(٢) إثبات الهداة : ٣٨٦/٦ .

وعن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنّه ذكر القائم فقال: **«أما ليغيبنّ حتّى يقول الجاهل: مالله في آل محمّد حاجة»**[١].

وروى محمّد بن مسلم قال: «سمعت أبا عبدالله (الصادق) عليه السلام يقول: **إن بلغكم عن صاحبكم غيبة فلا تنكروها»**[٢].

وهناك ثمانية وثمانون حديثاً في هذا المضمار.

وبناءً على ما تقدّم من الروايات والأحاديث فإنّ مسألة الغيبة تعدّ من علامات المهدي، حتّى أنّهم لا يظنّون بأحد أنّه المهدي حتى يظنّون غيبته، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني عن عيسى بن عبدالله قال: لم يزل محمّد بن عبدالله منذ كان غلاماً إلى أن بلغ يتغيّب ويستخفي، ويسمّى بالمهدي[٣].

يقول السيّد الحميري: «كنت أعتقد غيبة محمّد بن الحنفية، وضللت في ذلك زماناً، فمنّ الله عليَّ بالصادق جعفر بن محمّد، فقلت له: يابن رسول الله، قد روي لنا أخبار عن آبائك في الغيبة وصحة كونها فأخبرني بمن تقع.

فقال: **إنّ الغيبة ستقع بالسادس من ولدي»**[٤].

---

(١) إثبات الهداة: ٦/٣٩٣.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٥٠.

(٣) مقاتل الطالبيّين: ١٦٥.

(٤) وله أشعار يذكر فيها الغيبة؛ منها:

وما كان قولي في ابن خولة مُبطِناً ... معانَدَةً منّي لنسلِ المُطيَّبِ
ولكن رُوينا عن وصيِّ محمدٍ ... وما كان فيما قال بالمتكذّبِ
بأنّ وليَّ الأمر يُفقدُ لا يُرىٰ ... ستيراً كفعل الخائف المترقّبِ
فيقسم أموال الفقيد كأنّما ... تغيّبه بين الصفيح المنصّبِ
فيمكث حيناً ثمّ ينبَعُ نبعةً ... كنبعة جَدْيٍّ من الأُفق كوكبِ
يسير بنصر الله من بيت ربِّه ... على سؤدد منه وأمرٍ مُسبَّبِ
«

وذكر الطبرسي أن اخبار الغيبة متداولة قبل ميلاد الإمام وميلاد أبيه وجدّه، وأنّ رواة الشيعة قد سجّلوا ذلك في كتبهم منذ عصر الصادق والباقر عليهما السلام.

ومن جملة من سجّل ذلك: الحسنُ بن محبوب الذي سبق الغيبة بقرن في تأليف كتابه «المشيخة» الذي أورد فيه أخبار وروايات الغيبة، وقد اشتمل على أحاديث عديدة منها ما ذكره عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام من أنّ للقائم غيبتين صغرى وكبرى، ثمّ يستشهد الطبرسي بذلك كدليل على صحّة الأحاديث[1].

وقد ألّف محمّد بن إبراهيم بن جعفر النعماني كتابه «الغيبة» ابّان الغيبة الصغرى حيث ولد المؤلّف خلالها أيضاً، وذكر في كتابه أخبار الأئمّة حول غيبة الإمام المهدي ويعدّ غيبته تأييداً لعقائد الإمامية؛ وإلّا كان انتفاؤها شهادة على بطلان العقيدة الشيعية.

» يسير إلىٰ أعدائه بلوائِهِ ... فيقتُلُهمْ قتلاً كحرّانَ مغضبِ
فلمّا رُوي أنَّ ابن خولة غائبٌ ... صَرَفنا إليهِ قولنا لم نكذِّبِ
وقلنا هو المهديُّ والقائمُ الذي ... يعيش به من عدلِهِ كلُّ مُجدِبِ
فإن قلت لا فالحقّ قولُكَ والذي ... أمرت فحتمٌ غير ما متعصّبِ
وأُشهِدُ ربِّي أنَّ قولَكَ حُجّةٌ ... على الخلقِ طرّاً من مُطيعٍ ومُذنبِ
بأنَّ وليَّ الأمرِ والقائمَ الذي ... تَطَلَّعُ نفسي نحوَه بتطرُّبِ
له غَيْبَةٌ لابدَّ من أن يغيبها ... فصلّىٰ عليه اللهُ من متغيِّبِ
فَيَمْكثُ حيناً ثمَّ يَظهَرُ حينَه ... فيملأ عدلاً كلَّ شرقٍ ومَغربِ
بذاك أمين الله سرّاً وجهرةً ... ولستُ وإن عوتبتُ فيه بمُعَتّبِ

كمال الدين: ١/١١٢ ـ ١١٥.

(١) إعلام الورى / الطبرسي: ٤١٦، ط. طهران / ١٣٣٨.

كتب عن الغيبة قبل وقوعها

وكثيرة هي الروايات والأحاديث النبوية الشريفة التي أكّدت مسألة الغيبة لدى الإمام الثاني عشر من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وهناك إضافة إلى ذلك أحاديث موثّقة عن الإمام علي عليه السلام والأئمّة الأطهار من بعده كلّها تدور في هذا المجال، وهذه طائفة من رجال الحديث:

- عليّ بن حسن بن محمّد الطائي، كان من أصحاب الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام[١]. ألّف كتاباً في الغيبة وكان من الفقهاء الثقاة.
- علي بن عمر الأعرج الكوفي من أصحاب الكاظم عليه السلام كتب في الغيبة[٢].
- الحسن بن علي بن أبي حمزة، ألّف في الغيبة في عهد الرضا عليه السلام[٣].
- عباس بن هاشم الناشري، وهو رجل جليل القدر، ثقة من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام توفّي سنة ٢٢٠ هـ، ألّف في الغيبة[٤].
- عليّ بن الحسن بن فضال، عالم ثقة، من أصحاب الهادي والعسكري عليهما السلام. ألّف في الغيبة[٥].
- الفضل بن شاذان النيسابوري، فقيه متكلّم من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام. كتب وألّف حول القائم من آل محمّد وغيبته. توفّي سنة ٢٦٠ هـ[٦].

---

(١) رجال النجاشي: ١٩٣. رجال الشيخ الطوسي: ٣٥٧. فهرست الشيخ الطوسي: ١١٨.

(٢) و (٣) رجال النجاشي: ٢٨. فهرست الشيخ الطوسي: ٧٥.

(٤) رجال النجاشي: ٢١٥. رجال الشيخ الطوسي: ٣٨٤. فهرست الشيخ الطوسي: ١٤٧.

(٥) رجال النجاشي: ١٩٥. رجال الشيخ الطوسي: ٤١٩.

(٦) رجال النجاشي: ٢٣٥. رجال الشيخ الطوسي: ٤٢٠، ٤٣٤. فهرست الشيخ الطوسي: ١٥٠.

وظاهرة الغيبة لم تكن طارئة أو وليدة ظرف معيّن بل هي ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإسلامي ، وكانت مفهومة لدى الذين عاشوا في زمن النبيّ والصحابة والتابعين ، ومن هنا فلا يمكن القول أنها مسألة مختلقة من قبل عثمان بـن سـعيد أو غيره .

ولنتأمّل في هذه النقاط الثلاث :

الأولى: إنّ البراهين العقلية والروايات المنقولة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تـؤكّد وجود الإمام الحجّة وأنّ وجوده ضروري لاستمرار النوع البشري بأسره ؛ ولهذا فإنّ أيّ عصر لا يخلو منه .

الثانية: أنّ الأحاديث المتواترة تفيد بوجود اثني عشر إماماً لا غير .

الثالثة: هذه الأحاديث وشهادة التاريخ حول حياة أحد عشـر إمـاماً ووفـياتهم وولادة الإمام الثاني عشر دون ذكر وفاته تؤيّد نظرية وجوده وغيبته .

وطن الإمام عليه السلام

أين يقطن الإمام في زمن الغيبة ؟

ليس هناك مكان محدّد ، وربما لا يوجد له وطن معيّن ، إنّه يعيش بـين النـاس متوارياً ، ولعلّه ينتخب أماكن بعيدة للسكنى ، وهناك روايات تُشير إلى مشاركته في موسم الحجّ وأنّه يعرف الناس وهم لا يعرفونه(١) .

يُتهم الشيعة بأنهم يعتقدون أنّ الإمام المهدي في سامراء وقد دخل السـرداب وغاب هناك ، فكيف يغيب عن الرؤية في هذا المكان ، ثمّ من أين له الماء والغذاء ، أليس في هذا ما يشبه الأساطير كالعنقاء والغول ؟

---

(١) بحار الأنوار : ١٥٢/٥٢ .

إننّا نرفض هذه الأكاذيب ، وإنّها مجرّد اتهامات باطلة ، وليس لدى الشيعة حتّى رواية واحدة تقول بأنّ الإمام يسكن في السرداب ، وكلّ الروايات تؤيّد حياته العادية بين الناس .

عن سدير الصيرفي قال : « سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول : **إن في صاحب هذا الأمر لشبهاً من يوسف .**

فقلت : أفكأنك تخبرنا بغيبة أو حيرة ؟

فقال : **إنّ اخوة يوسف كانوا عقلاء ألبّاء أسباطاً أولاد أنبياء دخلوا عليه فكلّموه وخاطبوه وتاجروه وراَدّوه وكانوا إخوته وهو أخوهم ، لم يعرفوه حتى عرّفهم نفسه ، فعرفوه حينئذ ، فما ينكر هذه الأُمّة المتحيرة أن يكون الله عزّ وجل يريد في وقت أن يستر حجّته عنهم . فما تنكر هذه الأُمّة أن يكون الله يفعل بحجته ما فعل بيوسف أن يكون صاحبكم المظلوم المجحود حقه صاحب هذا الأمر يتردد بينهم ، ويمشي في أسواقهم ، ويطأ فرشهم ، ولا يعرفونه حتّى يأذن الله**»[1] .

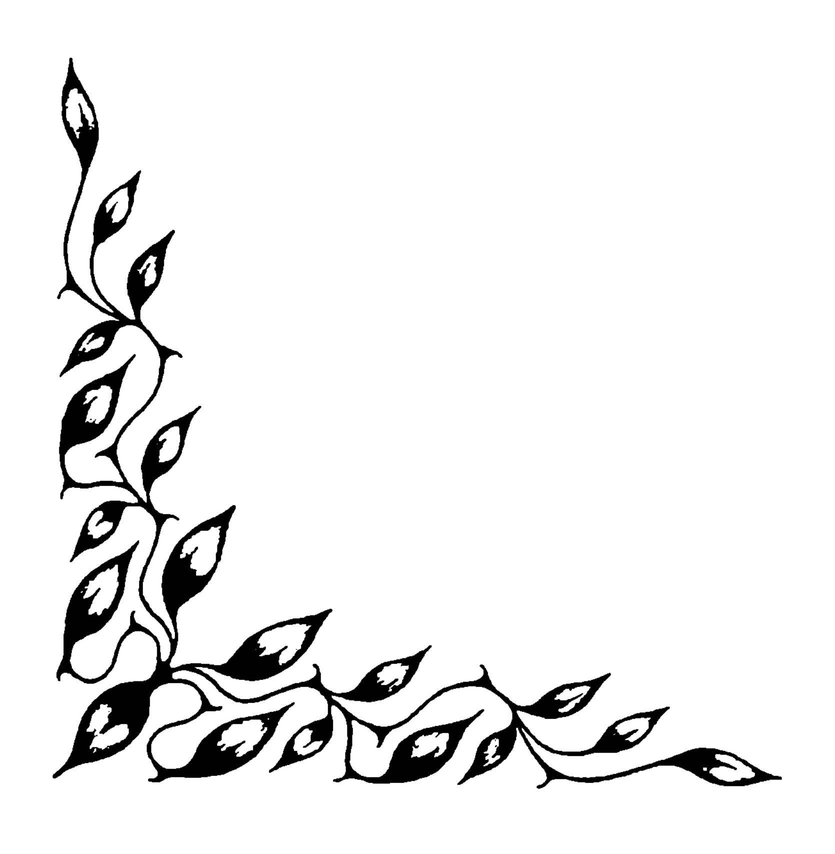
---

(١) بحار الأنوار: ١٥٤/٥٢.



الفصل الثالث

ظاهرة الانتظار



الاشعاع الأخلاقي

من الطبيعي أن تفرز النبوءات التي حملتها الكتب المقدسة والرسالات الإلهيّة حالة من الانتظار والترقب.

وهذه الظاهرة التي ولجت الضمير الإنساني وواكبت تاريخه الطويل تتأثّر دائماً بالإطار البيئي، النفسي والتربوي، وسنلاحظ أنّ الانتظار يفرغ من محتواه الايجابي ليشلّ حركة الإنسان في ضوء الاشعاع الفكري الذي يقعد بالانسان عن القيام بأي خطوة للتغيير بانتظار الذي يأتي وينهض بمهمة الاصلاح، فهذه حالة من الانتظار السلبي تسلب المرء إرادته ومبادرته، فيما نرى إشعاعاً إيجابياً لفكرة الانتظار تنطوي على أمل مشرق يلوح في الأُفق وينعش حالة التحرك نحو تحقيق الهدف وبلوغ الغاية المنشودة.

فالوعد الإلهي الذي يشع من الآية الكريمة في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**[1]، والذي جذّره النبيّ ﷺ بوضوح أكثر في قوله: **«أبشّركم بالمهدي يُبعث في أُمّتي على اختلاف من الناس وزلازل فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»**[2].

هذا الوعد يرسم في الضمير الإسلامي النقي أُفقاً مشرقاً يزخر بالأمل الأخضر

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) مسند أحمد بن حنبل: ٣/٣٩٣، الحديث ١٩٧٤٦.

والخلاص ونهاية مسلسل العذاب الذي يواكب حركة التاريخ البشري الطويل .

ومع هذا فإن الانتظار إذا لم يلج الوجدان الإنساني بنقاء فإنّه يفرز حالة سلبية لا تبعث على الحركة فحسب ، بل وتقضي على أي مخزون للطاقة في التحرك والسعي والتغيير ، وسيكون له دور اصطدامي مع آيات قرآنية صريحة المدلول كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١) .

أمّا الاتّجاه الايجابي في الانتظار فإنّه ينطوي على قيمة حضارية كبرى انطلاقاً من وجود أمل كبير في حتمية تحقق الهدف النهائي والمنشود .

فالانتظار كظاهرة اجتماعية كانت تتأرجح بين كونها عاملاً في الحركة والسعي والتغيير ، وبين صيرورتها أغلالاً تكبل إرادة الإنسان وتدفعه إلى الترقب السلبي وهو انتظار خاو لا ينطوي على أي طاقة حضارية .

والانتظار بشكل عام ولّد تجربة نفسيه غنية تعد « من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين أفراد الإنسان »(٢) .

فالانتظار الذي ينهض على إيمان عميق بمستقبل أخضر للبشرية سيتفجّر عنه ينبوع الأمل ، إذ يتعدى حالة العزاء إلى ما هو أبعد . . إلى صيرورته طاقة حركية تمدّ عملية التغيير الاجتماعي بالروح والقوّة والصبر .

ولعل استقراءً لظاهرة الانتظار يقودنا إلى اعتبارها نزوعاً فطرياً مغروساً في وجدان البشر ، فحتى الماركسية الغارقة في تفكيرها المادي لم تتجاوزها ، يقول برتراند راسل : « الانتظار لا يخص الأديان فحسب ، بل المدارس والمذاهب أيضاً تنتظر منقذاً ينشر العدل » فهو يكاد يوازي النزوع الوجداني للايمان .

---

(١) الرعد : ١١ .

(٢) بحث حول المهدي / محمّد باقر الصدر : ٥٤ ، ط دارالغدير / ١٩٩٦ .

الانتظار السلبي

ليس هناك شك في أن مسألة غيبة الإمام المهدي عليه السلام تفرز في بعض الظـروف حالة من الانتظار السلبي ، وهذه الحالة لا ترتبط بجوهر المسألة وإنّما تحددها ظروف بيئية وثقافية تفضي عادة إلى الانتظار الذي يسلب الإنسان إرادته وحقه في التغيير ، وبذلك يتعطل دور الآيات القرآنية التي تخاطب الإنسان وتطالبه بأداء دوره العبادي في الأرض ، ومن التعسّف أن نعلّق حالة الانتظار السلبي على ظاهرة الانتظار بشكل لا يترك قدراً من المسؤولية الأخلاقية للإنسان نفسه .

ومن المؤسف أن نجعل هذه الحالة وليدة الإيمان بالإمام الغائب الذي يـجعل المرء في حالة انتظار سلبية ريثما يظهر الغائب .

ومع أن هذه الحالة قد تركت آثاراً تاريخية طبعت مسار المؤمنين بالإمام الغائب بطابعها ، وعطلت دورهم الاجتماعي والسياسي ، ولكـن هـذه الظـاهرة يـجب أن تناقش في إطار الفهم البشري الذي يخطئ ويصيب وينمو وينحسر متأثراً بالظروف العامة .

ومع أن نصوص الانتظار لا تحمل في طيّاتها هذا الاتجاه في التفسير السلبي .

كما ينطوي بعضها عـلى حـالة إخـبارية أي التـنبوء بـفشل وإخـفاق الحـركات التغييرية التي تسبق ظهور الإمام الغائب ، وهذا لا يعني بالضرورة إدانتها فأي إدانة مثلاً في هذا النص : « **والله لا يخرج أحد منّا قبل خروج القائم عليه السلام ، إلّا كان مثَله مثل فرخ طار من وكره قبل أن يستوي جناحاه فأخذه الصـبيان فـعبثوا بـه** »[1] فكـم مـن النظريات من حلق في سماءالفكر والسياسة والإدارة ثمّ هوى على الأرض صريعاً ؟ !

وهناك مساحة للعمل التغييري في اتجاه التمهيد لعملية التغيير الكبرى المنتظرة .

---

(١) الكافي : ٢٦٤/٨ ، الحديث ٣٨٢ . وسائل الشيعة : ٥١/١٥ ، الحديث ١٩٩٦٥ .

ونموذجاً على ذلك ما قام به الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر الذي ألّف في مسألة المهدي بحثه الرائد، لم يفهم من الانتظار الجانب السلبي منه وأقدم على خطوة استشهادية مستلهماً فيها ثقافة عاشوراء التي تخطط للأجيال والمستقبل.

وتزامنت خطوته مع ثورة الإمام الخميني الذي يؤمن بالمهدي أعمق الإيمان فلم تكن ولاية الفقيه سوى نيابة عن الإمام الغائب في قيادة العمل التغييري نحو الأمام باتجاه التكامل الإنساني.

ومن هنا فإن مسألة الانتظار في جوهرها تنطوي على إشعاع أخلاقي ودور اجتماعي إيجابي يرشّد العمل التغييري ويدفعه باتجاه الهدف المنشود.

المخزون الايجابي للانتظار

يعبر ابن خلدون في مقدمته الشهيرة: ان المشهور من الكافة من أهل الإسلام على مرّ الأعصار، انه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، يستولي على الممالك الإسلاميّة ويسمّى بـ« المهدي، ويكون خروج الدجّال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وان عيسى عليه السلام ينزل من بعده فيقتل الدجّال أو ينزل معه فيساعده على قتله ويأتمّ بالمهدي في صلاته »[1].

وهذا النص يترجم قوّة النقل الحديثي في النصوص الإسلاميّة حول مسألة المهدي التي ينبغي أن تجتاز لدى العالم السنّي حالة النصّ التاريخي المغيّب في بطون الكتب لتتحول إلى هاجس مستقبلي، فما دامت القضية ترتبط بآخر الزمان، فهي قضية مستقبلية تتطلب التفكير الجادّ على أساس أنّ المهدي يقود مستقبل الإسلام في نهاية المطاف.

---

(١) مقدّمة ابن خلدون: ٣١١.

وهنا يكمن الفرق بين العالم الشيعي الذي عاش قضية المهدي وجدانياً فتعثر حيناً ومشى يقطع أشواطاً في أحيان أُخرى وأخطأ وأصاب قاطعاً خطوات هامّة في طريق التكامل والتعامل مع هذه القضية بشكل إيجابي فيما يتعامل العالم السني معها باعتبارها إرثاً فكرياً وجزءاً من التراث الإسلامي العريق .

والانتظار يتحول من خلال مخزونه الايجابي إلى دافع للحركة والنموّ ، وهذا يتوقف بطبيعة الحال على دخوله دائرة الضمير كأمل أخضر ودائرة العقل كأسلوب للتفكير وبالتالي استحالته إلى رؤية للمستقبل القادم .

ومن هنا يكون للانتظار قيمة حضارية بنّاءة ومؤثّرة ، وفي أدبيات المذهب الإمامي يدخل الانتظار في صياغة البعد الروحي من خلال الارتباط الوثيق بالغائب ودعوته إلى الظهور ، ولعلّ في « دعاء الندبة » شاهداً ثقافياً جلياً يكشف عن صياغة روحية للإنسان الذي يعلن عن استعداده الكامل في خوض عملية التغيير الكبرى .

إن « انتظار الانقاذ في ما ليس بوسع الإنسان أن يقدّمه أو يؤخّره ، كما لو كان الغريق ينتظر وصول فريق الانقاذ إليه من الساحل ويراهم مقبلين إليه لإنقاذه ، فإنّه من المؤكد أنّ الغريق لا يستطيع أن يقدّم وصول فريق الانقاذ إليه ، إلّا أنه من المؤكد أيضاً أن هذا الانتظار يبعث في الغريق أملاً قوياً في النجاة ، ويدخل نور الأمل على ظلمات اليأس التي تحيط به من كل جانب »[(١)].

فهنا يدخل الأمل كعنصر أساس في بعث روح المقاومة فيما يدخل اليأس كعامل انهيار وهزيمة .

فالانتظار يؤدي إلى انبعاث الأمل والأمل يبعث روح المقاومة وبالتالي الحركة[(٢)].

وهناك نقطة جديرة بالتأمل وهي أن ظاهرة الانتظار وبالرغم من كونها ظاهرة عامّة

---

(١) الانتظار الموجّه / الشيخ الآصفي : ١٣ ، ط . دار الغدير ـ بيروت / ١٩٩٧ .

(٢) المصدر المتقدّم : ١٤ و ١٥ .

واكبت التاريخ الإنساني ولكنها تعرّضت إلى تغير جوهري لدى الإماميّة بعد الإيمان بولادته سنة **٢٥٦**هـ وهذا التغير ينطلق من توقع ظهور الغائب في أية لحظة ، وما يزال الاشعاع الفكري مستمراً حتى الآن .

فهناك إيمان عام بحتمية الظهور ذات يوم ثمّ انتقل منذ ذلك التاريخ إلى هاجس زمني بعد توفر المصداق خاصّة لدى جماهير الإمامية .

ولدى استقراء التاريخ الإسلامي بشكل عام والشيعي بشكل خاص نجد خطّاً بيانياً يتصاعد مضطرداً في الاهتمام بهذه المسألة .

فلم تكن في زمن النبيّ لتتعدّى بضعة أحاديث تنتقل عبر صدور الرواة ثمّ ما لبث أن أخذت مساراً جديداً عبر الزمن إلى مطلع العصر العباسي الثاني واشتداد المحن التي ألمّت بالعالم الإسلامي وبالخصوص القواعد الشعبية للمذهب الإمامي .

إنّ مسألة الانتظار لدى الشيعة الإماميّة هي موقفهم خلال فترة الغيبة الكبرى ، ودورهم الاجتماعي وبوضوح أكثر مسألة الجهاد والحكم .

إنّ وهج الآيات القرآنية لا يمكن أن يخبو في ظلّ أي من الظروف فقوله تعالى : **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ ﴾**(١) ، وقوله تعالى : **﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾**(٢) .

يشير إلىٰ أن القرآن الكريم يؤكد استمرار خط الرسالات الإلهيّة حتى في غياب النبوات بنفس الاتجاه الذي انطلقت فيه وهو هداية الإنسانيّة نحو الكمال وبناء حياة

---

(١) الأنفال : ٦٠.

(٢) التوبة : ١١١.

تحقق إنسانية الإنسان وكرامته ، وهذا يستلزم استمرار حركة الجهاد وتزعم عـملية البناء الاجتماعي وقيادته .

غير أن هناك نقطة جديرة بالاهتمام وهي أنّ الجهاد لا يعني دائماً رفع السلاح فالجهاد له أساليب متنوعة تمتد لتشمل حالات العصيان المدني .

وقد أثبتت تجارب الأُمم المعاصرة وبما اصطلح عليه بالنضال السلبي جدوى مثل هذا الأُسلوب ، ولعلّ أبرز أمثلته التجربة الهندية في الاستقلال على يد داعية اللاعنف غاندي .

غير أنّ تضخيم هذه الحالة ومحاولة التأسيس لهـا بشكـل يـلغي أو يسـيء إلى الأساليب الجهادية الأُخرى أمر تعسفي مجانب للمنطق . « .. فإنّ العزلة عـلى أي حال تعني السلبية والانسحاب والسلبية في الأعمّ الأغلب تعني الراحة والاستقرار . ومن الواضح جداً أن الفرد لا يتكامل إخلاصه ووعيه الإسلامي إلّا بالعمل والتضحية ومواجهة الصعوبات »[١] .

ذلك ان الجهاد الايجابي تكاد تكون له الكفة الراجحة في ظـل الارث الروائـي الذي يشير إلى وجود من يخرج قبل عصر الظهور ليمهد للثورة الكـبرى : « يـخرج أُناس من المشرق فيوطئون للمهدي سلطانه »[٢] .

ومن هنا فإنّ مسألة الانتظار الايجابي تكتسب من الأصالة ما يجعلها قوية ومنطقية حتى مع وجود زخم إخباري يؤكد فشل وإخفاق جميع نظريات الحكم : « **ما يكون هذا الأمر** (دولة المـهدي) **حتى لا يبقى صنف من الناس إلّا وقد ولّوا علىٰ النـاس ، حتى لا يقول قائل : إنّا لو ولينا لعدلنا . ثمّ يقوم القائم بالحق و العدل** »[٣] .

---

(١) بحث حول المهدي / محمّد باقر الصدر : ٨٥ ـ ٨٩.

(٢) بحار الأنوار : ٥١/٨٧.

(٣) الغيبة / النعماني : ١٤٦.

«إنّ دولتنا آخر الدول. ولم يبق أهل بيت لهم دولة إلّا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: لو ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾»[1].

فهذه التجارب الإنسانيّة على تعددها تنطوي على عناصر التكامل البشري الذي يمهد الأرضية المناسبة لعملية التغيير الكبرى التي تتوقف على وجود إنسان فذّ واكب مسار الحضارات وتشرّب قوانين التاريخ والزمن.

يقول الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر: ومن الواضح أن الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسي يتناسب مع حجم التغيير نفسه، وما يُراد القضاء عليه من حضارة وكيان، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر ولحضارة أرسخ وأشمخ تطلّبت زخماً أكبر من هذا الشعور النفسي المفعم.

ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم مليء بالظلم وبالجور، تغييراً شاملاً بكل قيمه الحضارية وكياناته المتنوعة، فمن الطبيعي أن تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر في شعوره النفسي من ذلك العالم كله، عن شخص ليس من مواليد ذلك العالم الذين نشأوا في ظل تلك الحضارة التي يُراد تقويضها واستبدال حضارة العدل والحق بها؛ لأنّ من ينشأ في ظل حضارة راسخة، تغمر الدنيا بسلطانها وقيمها وأفكارها، يعيش وفي نفسه الشعور بالهيبة تجاهها؛ لأنه ولد وهي قائمة، ونشأ صغيراً وهي جبارة، وفتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة.

وخلافاً لذلك، شخص يتوغل في التاريخ عاش الدنيا قبل أن ترى تلك الحضارة النور، ورأى الحضارات الكبيرة سادت العالم الواحدة تلو الأُخرى، ثمّ تداعت وانهارت، رأى ذلك بعينيه ولم يقرأه في كتاب تاريخ..

---

(١) إعلام الورى: ٤٣٢ و الآية في سورة الأعراف: ١٢٨ و القصص: ٨٣.

ثمّ رأى الحضارة التي يقدّر لها أن تكوّن الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود ، رآها وهي بذور صغيرة لا تكاد تتبين . .

ثمّ شاهدها وقد اتّخذت مواقعها في أحشاء المجتمع البشري تتربّص الفرصة لكي تنمو وتظهر . .

ثمّ عاصرها وقد بدأت تنمو وتزحف وتصاب بالنكسة تارة ويحالفها التوفيق تارة أُخرى . .

ثمّ واكبها وهي تزدهر وتتعملق وتسيطر بالتدريج على مقدّرات عالم بكامله ، فإنّ شخصاً من هذا القبيل عاش كلّ هذه المراحل بفطنة وانتباه كاملين ينظر إلى هذا العملاق ـ الذي يريد أن يصارعه ـ من زاوية ذلك الامتداد التاريخي الطويل الذي عاشه بحسّه لا في بطون كتب التاريخ فحسب ، ينظر إليه لا بوصفه قدراً محتوماً ، ولا كما كان ينظر (جان جاك روسو) إلى الملكية في فرنسا ، فقد جاء عنه أنه كان يرعبه مجرد أن يتصور فرنسا بدون ملك ، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكرياً وفلسفياً إلى تطوير الوضع السياسي القائم وقتئذ ؛ لأن (روسو) هذا نشأ في ظل الملَكية ، وتنفس هواءها طيلة حياته ، وأما هذا الشخص المتوغل في التاريخ ، فله هيبة التاريخ ، وقوة التاريخ ، والشعور المفعم بأنّ ما حوله من كيان وحضارة وليد يوم من أيام التاريخ ، تهيأت له الأسباب فوُجِد ، وستتهيأ الأسباب فيزول ، فلا يبقى منه شيء كما لم يكن يوجد منه شيء بالأمس القريب أو البعيد ، وأنّ الأعمار التاريخية للحضارات والكيانات مهما طالت فهي ليست إلّا أياماً قصيرة في عمر التاريخ الطويل .

هل قرأت سورة الكهف ؟

وهل قرأت عن أُولئك الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى ؟ وواجهوا كياناً وثنياً حاكماً ، لا يرحم ولا يتردّد في خنق أي بذرة من بذور التوحيد والارتفاع

عن وهدة الشرك ، فضاقت نفوسهم ودبّ إليها اليأس وسدّت منافذ الأمل أمام أعينهم ، ولجأوا إلى الكهف يطلبون من الله حلاً لمشكلتهم بعد أن أعيتهم الحلول ، وكبر في نفوسهم أن يظلّ الباطل يحكم ويظلم ويقهر الحق ويُصفّي كلّ من يخفق قلبه للحق .

هل تعلم ماذا صنع الله تعالى بهم ؟

إنه أنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين في ذلك الكهف ، ثمّ بعثهم من نومهم ودفع بهم إلى مسرح الحياة ، بعد أن كان ذلك الكيان الذي بهرهم بقوته وظلمه قد تداعى وسقط ، وأصبح تاريخاً لا يُرعِبُ أحداً ولا يُحرك ساكناً ،كلّ ذلك لكي يشهدَ هؤلاء الفتية مصرع ذلك الباطل الذي كبر عليهم امتداده وقوته واستمراره ، ويروا انتهاء أمره بأعينهم ويتصاغر الباطل في نفوسهم .

ولئن تحققت لأصحاب الكهف هذه الرؤية الواضحة بكلّ ما تحمل من زخم وشموخ نفسيّيْن من خلال ذلك الحدث الفريد الذي مدّد حياتهم ثلاثمائة سنة ، فإن الشيء نفسه يتحقق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذي يتيح له أن يشهد العملاق وهو قزم والشجرة الباسقة وهي بذرة والإعصار وهو مجرد نسمة .

أضف إلى ذلك ، أن التجربة التي تتيحها مواكبة تلك الحضارات المتعاقبة ، والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوراتها لها أثر كبير في الإعداد الفكري وتعميق الخبرة القيادية لليوم الموعود ؛ لأنها تضع الشخص المدّخَر أمام ممارسات كثيرة للآخرين بكلّ ما فيها من نقاط الضعف والقوة ، ومن ألوان الخطأ والصواب ، وتعطي لهذا الشخص قدرة أكبر على تقييم الظواهر الاجتماعية بالوعي الكامل على أسبابها ، وكل ملابساتها التاريخية .

ثمّ إنّ عملية التغيير المدّخرة للقائدة المنتظر تقوم على أساس رسالة معينة هي رسالة الإسلام ، ومن الطبيعي أن تتطلب العملية في هذه الحالة قائداً قريباً من مصادر

الإسلام الأُولى ، قد بُنيت شخصيته بناءاً كاملاً بصورة مستقلة ومنفصلة عن مؤثرات الحضارة التي يُقدّر لليوم الموعود أن يحاربها .

وخلافاً لذلك ، الشخص الذي يولد وينشأ في كنف هذه الحضارة وتنفتح أفكاره ومشاعره في إطارها ، فإنّه لا يتخلص غالباً من رواسب تلك الحضارة ومرتكزاتها ، وإن قاد حملة تغييرية ضدها .

فلكي يُضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التي أُعدّ لاستبدالها لابدّ أن تكون شخصيته قد بُنيت بناءً كاملاً في مرحلة حضارية سابقة هي أقرب ما تكون في الروح العامّة ومن ناحية المبدأ إلى الحالة الحضارية التي يتجه اليوم الموعود إلى تحقيقها بقيادته[١] .

ومن هنا يدخل الانتظار قيمة حضارية تخلق « الأمل » و« المقاومة » و« الحركة » التي تؤدي في غالبية الأحوال إلى الخلاص أو التمهيد للخلاص فالأمل يسلح المرء برؤية تخترق قضبان الزمن إلى المستقبل المشرق فتستحيل عذابات الحاضر إلى اختبار وامتحان يلزمه الصمود والصبر والمقاومة ويكون صبره لاخنوعاً ومقاومته لا تحملاً فقط وإنّما مواجهة حقيقية لتغيير الواقع .

ونحن ندرك أن قانون التغيير يعتمد معادلة طرفاها الله سبحانه والإنسان : ﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[٢] فالفعل التغييري يتوقف على حركة الإنسان هذه الحركة التي تؤهله لعملية التغيير .

ونذكّر مرّة أُخرى بالحركة التمهيدية التي تسبق ظهور الإمام الغائب والتي تنسجم تمام الانسجام مع فكرة الانتظار بمعناها الايجابي ومخزونها الحضاري .

---

(١) بحث حول المهدي / محمّد باقر الصدر : ٨٥ ـ ٨٩.

(٢) الرعد : ١١ .

ومراجعة للأحاديث التي تتعلق بجهود الموطئين توضح المساحات الجغرافية المترامية التي تنهض بهذه المهمّة التغييرية .

فهناك رايات سود تظهر في الشرق تتقدم نحو النصر بخطى ثابتة حتى تسلّم اللواء إلى رجل من أهل البيت[١] .

وهناك راية تظهر في خراسان تقاتل السفياني حتى تصل بيت المقدس تمهد للمهدي حكومته[٢] .

وتمتد هذه الحركة من إيران إلى اليمن[٣] لتتكلل فيما بعد في الحجاز والعراق ومشاريع التمهيد ستكون واسعة وكبيرة جداً ومصيرية وسيحتدم الصراع في البداية مع ثقافة الاستكبار التي تحاول قهر العالم الإسلامي وتذويب شخصيته وكيانه قبل أن يتطور الصراع إلى مواجهة تظهر فيها المدافع والطائرات من مخابئها .

وستكون هناك استجابة حقيقية لنداء القرآن الكريم : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ** ﴾ .

وفي هذا الفصل من فصول التاريخ الإنساني ستبرز بشكل واضح ومدهش ثقافة الاستشهاد بعد هزيمة الثقافة التخاذلية التساومية .

وفي هذه المرحلة من تاريخ البشر سيتجلى أيضاً الحبّ الالهي ، هذا الحبّ الذي يرشّد حركة الإنسان مذ كان طفلاً يحب والديه ثمّ إخوته وأخواته وأصدقاءه ، ومن ثمّ إلى الحب الطاهر الذي يقوده إلى نصفه الآخر ليتكامل في ظل الشرعية والسير في الطريق المضيء طريق الفضيلة والخير والسلام .

---

(١) المستدرك على الصحيحين : ٤٦٤ . بحار الأنوار : ٢٤٣/٥٢.

(٢) عصر الظهور : ٢٠٦.

(٣) بحار الأنوار : ٢٣٢/٥٢.

ولدينا نموذج متألق في ما حدث في إيران فثقافة الانتظار الايـجابي والإيـمان الراسخ بالمصلح الغائب وحضور النائب هي وراء انتصار الثورة الإسلاميّة بـقيادة السيّد الخميني .

وليس هناك من ينكر أن الدعاء وخاصّة الدعاء من أجل المهدي !

اللّهُمَّ كُنْ لِوَلِيّكَ الْحُجَّةِ بْنِ الْحَسَنِ صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَعَلىٰ آبائِهِ، في هٰذِهِ السّاعَةِ، وَفي كُلِّ ساعَةٍ، وَلِيّاً وَحافِظاً، وَقائِداً وناصِراً، وَدَليلاً وَعَـيْناً، حَـتّىٰ تُسْكِـنَهُ أَرْضَكَ طَوْعاً، وَتُمَتِّعَهُ فيها طَويلاً».[1]

وكذا دعاء الشكوى والألم والاستعانة من أجل التغيير :

اللّهُمَّ إِنّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقْدَ نَبِيِّنا، وَ غَيْبَةَ وَلِيِّنا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنا، وَقِلَّةَ عَدَدِنا، وَشِدَّةَ الْفِتَنِ بِنا، وَتَظاهُرَ الزَّمانِ عَلَيْنا...

اللّهُمَّ إِنّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ في دَوْلَةٍ كَريمةٍ، تُعِزُّ بِهَا الْإِسْلامَ وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِـهَا النِّـفاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنا فِيها مِنَ الدُّعاةِ إِلىٰ طاعَتِكَ، وَالْقادَةِ إِلىٰ سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنا بِها كَرامَةَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ»[2] .

وغيرهما يشكل جزءً من المخزون الروحي الذي أهّل الشعب الايراني وقاده في دروب الجهاد والثورة .

وفي ضوء ما تقدّم نستوعب ما روي عن النبيّ ﷺ قـوله : « **أفضل أعمال أمّـتي انتظار الفرج** »[3] .

فالانتظار حركة باتجاه التغيير وليس توقفاً بانتظار الخلاص .

---

(١) مصباح المتهجّد : ٦٣٠ . الكافي : ١٦٢/٤ .

(٢) مصباح المتهجّد : ٥٨١ .

(٣) كمال الدين وتمام النعمة : ٦٤٤ ، الحديث ٣ . مناقب آل أبي طالب : ٥٢٧/٣ .

عالم الغد

ليست هناك من حدود فاصلة بين ما نطلق عليه الماضي والحاضر والمستقبل ، ذلك أنّ مسار الزمن يبقى متصلاً حتى يبلغ الكتاب أجله .

إنّه لا يعني أن ما يقع فيه من حوادث سيكون متكرّراً بصورة وأُخرى ، فهو ينطوي في حركته على غائية ما نجهلها ونحاول الكشف عنها .

من هنا وبسبب ميل فطري لدى الإنسان قديماً وتجسّد في محاولات الكشف عن أستار الغيب وحوادث الغد ظهرت أخيراً مراكز علمية لاستشراف المستقبل .

وتنامى الاهتمام بالدراسات المستقبلية في عالم اليوم فأصبحت لدى بعض الأُمم جزءاً حياتياً من نشاطها وكفاحها ، فهناك رغبة قوية في استشراف المستقبل للتحكم فيه والسيطرة عليه في عملية التغيير الاجتماعي .

مع التأكيد على أن الدراسات الاستشرافية عادة ما تنهض على مجموعة من الأهداف والغايات وفي ضوئها تصاغ الخطط المستقبلية .

وبالرغم من أنّ الدراسات تهتم بالمستقبل على مديات زمنية متفاوتة ولكن الاهتمام ينصب على الحاضر لاكتشاف جهة ما في حركة الواقع وقد يدخل الماضي أو التاريخ في صميم الدراسات لاستكشاف بعض القوانين الاجتماعية التي تدخل في صياغة المستقبل أو التأثير فيه .

ويتضمن الخطاب القرآني دعوة قوية لدراسة التاريخ للاعتبار ، والاعتبار يعني اكتشاف البدائل والافادة من أخطاء الأُمم السابقة . ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ١٣٧ .

وفي نفس الوقت نلاحظ وعداً إلهياً عن المستقبل أنّ الساعة آتية لاريب فيها ؛ وقد ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ** ﴾[(١)].

وسوف يحصل هذا ضمن قوانين اجتماعية وتاريخية لا تقبل التغيير ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾[(٢)].

ومسألة التخطيط ينبغي أن تتضمن نقطتين جوهريتين ، هما : تحديد الغاية والوسيلة إضافة إلى تعيين إطار أخلاقي يرشدهما معاً ، فالوسيلة يجب أن تكون بمستوى الهدف ، ولذا فإنّ معادلة أخلاقية دقيقة جداً تربط بينهما ؛ ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن نبرر وسيلة ما بسمو الغاية مهما بلغت من درجة السمو .

وقد مرّت الإنسانيّة في القرنين الأخيرين بعدّة تجارب تألقت في أحلامها وأمانيها وطموحاتها لافتات متألقة ومؤثرة ، الديمقراطية ، الاشتراكية .

ثمّ نرى من ناحية أُخرى فكرة ثالثة بدأت دوراً كبيراً لا تنقص أهميتها عن دور الديمقراطية والاشتراكية في العالم .

يقول المفكر الجزائري الراحل مالك بن نبي « فنحن نرى فكرة السلام قد دخلت المجال القومي والدولي ، وأصبحت في كل مكان شعاراً للسياسة ومنبهاً للأفكار في مختلف البلدان . نرى صوتها يرتفع في كل مناسبة ، ونرى الأفراد والشعوب تصغي إليه بكل خشوع ، لأنه يعبر أيضاً عن حاجة للإنسانية في القرن العشرين . فقد باتت اليوم كل سياسة ترفع لواء السلم مهما كانت النوايا وراء الكلمات والمواقف الظاهرة . إنها كحاجة تفرض نفسها . . سواء في المجال السياسي أو المجال الأدبي .

فكل لسان اليوم حينما يتكلم ، وكل قلم حينما يكتب فإنما ليعبّر عنها طوعاً

---

(١) النور : ٥٥ .

(٢) الأحزاب : ٦٢ . الفتح : ٢٣ .

أو كرهاً . ولا يقوم من يهدد السلام بتصرفاته إلّا باسم السلم في أقواله .

هذا هو واقع العالم اليوم ، الواقع الجبار الذي يجذب إليه طـاقات الإنسـانيّة ، وقوى التاريخ إلى مستقر لا يعلمه إلّا الله .

والآن ينبغي لنا أن نتساءل : ما هو موقفنا من هذا الواقع ، حتى نعلم ما هو مركزنا وما سوف يكون عليه في العالم الجديد ؟

إن علينا أن نفكر في طريقة تصوغ الجواب على هذا السؤال في صورة محسوسة بقدر الإمكان . ونحن نستطيع أن نصل إلى هذا الهدف إذا جعلنا للكلام الذي تقدم صورة جغرافية . . . فنعطي لكل حاجة من الحاجات الثلاثة التي كشف عنها بحثنا لوناً خاصاً . وذلك بأن نجعل اللون الأزرق ـ مثلاً ـ يعبر عن الديـمقراطـية ، واللـون الأحمر عن الاشتراكية ، واللون الأخضر عن السلام .

فإذا ما وضعنا هذه الألوان الثلاثة على الخريطة متبعين مـبدأ الأولويـة ، اتـباعاً يكون معه في المكان الواحد لون واحد يعبر عن الحاجة الشائعة هناك ، أو عـلى النزعة السائدة في ذلك المكان ، ثمّ استفتينا مـعلوماتنا العـادية فـي هـذه الأمـور والتاريخ والصحافة اليومية أيضاً في توزيع هذه الألوان ، فإن الجواب سيجعل كـل لون يستقر في رقعة معينة . ويحدد لنا قارة أيديولوجيّة مـعيّنة مـطابقة لمـبدأ مـن المبادئ الثـلاثة التـي وزعـنا بـمقتضاها الألوان . وهكـذا نـرى فـي النـهاية أن لون الديمقراطية قد استقر على مساحة الرقعة الجغرافـية التـي تـطابق رقـعة الحـضارة الغـربية ، أي الرقـعة التـي تشـمل أوربـا الغـربية وأمـيركا . وأن اللـون الأحـمر لون الاشتراكية قد جعل من الرقعة التي تنتشر عليها البـلاد الشـيوعية مـقاماً . وأن لون السلام الأخضر قد أوى إلى شبه القارة الهندية .

وليس هذا يعني بـالطبع أن روح الديـمقراطـية الخـالصة تـقطن البـلاد الغـربية وأميركا . . تلك البلاد التي انبعثت منها روح الاستعمار الخبيث ورائحته . وأن روح

الاشتراكية لا توجد إلّا في البلاد الشيوعية ، فلقد نعلم أن بلاداً أُخرى كالبلاد الاسكندنافية قد تحققت فيها أروع التجارب الاشتراكية ، دون أي تعد على حريات الفرد ودون أي عنف .

كما أننا لا نعترف أن الهند تمثل روح السلم الصرف دون استثناء ، فلقد انبعثت منها أحياناً أنفاس لا تليق بروح المهاتما غاندي ، روح اللاعنف ، وذلك في بعض المشاكل كمشكلة كشمير . ومع ذلك فإنه لا مجال للإنكار في أن الإنسانيّة اليوم تشعر بأنها تصغي لصوت السلام حينما يرتفع صوت نهرو في نيودلهي ، أو صوت كريشنامينون في الأُمم المتحدة . ولقد أظهرت الأزمة الأخيرة التي أثارتها السياسة الصينية على حدود الهند أن الإنسانيّة لم تخطئ في شعورها هذا ، بل إننا لندهش إذ نرى الهند لم تغير موقفها إزاء الصين في الوقت الذي تطأ فيه الجنود الصينية ترابها .

وليس من خطأ التقدير أن نقول أيضاً إن البلاد الغربية تمثل الديمقراطية في العالم الجديد ، مع علمنا بما في هذا التقدير من نسبية . وإن البلاد الشيوعية تمثل اليوم الفكرة الاشتراكية مع التنبيه أيضاً على نسبية هذا التقدير .

هذا هو واقع العالم اليوم ، فإذا أردنا أن نعلم مكاننا الآن منه فإنّ علينا أن نرجع إلى الخريطة الأيديولوجية التي رسمناها ونبحث عن لوننا أين هو ؟ ولن نلبث حتى نجد رقعتنا على هذه الخريطة بيضاء كتلك المساحات التي كانت تبقى بيضاء على خرائط القرن التاسع عشر . إشارة إلى أنها لا تزال مجاهيل ، لم يكتشفها علماء الجغرافية ولم يمسحوها . فرقعتنا إذن بحسب منطق حديثنا ذات لون أبيض ، لأنها لا تمثل حاجة من حاجات الإنسانيّة الكبرى في القرن العشرين . فنحن في حالة تغيب عن العالم الجديد لأننا لا نرى لوناً على الخريطة يدل على وجودنا فيه .

فإذا ما شئنا الجواب على السؤال الذي أوردناه في صدر الحديث ، فإننا سنعترف بأن مكاننا في المجتمع العالمي سوف يكون تافهاً ، لأننا لا نمثل مصلحة ذات أهمية عالمية .

وهنا يبدو سؤال جديد : هل هناك مخرج من مأزق كهذا ؟ أم لابد أن نستسلم لليأس فنطأطىء الرأس أمام هذا الواقع ؟ ونقتنع بوظيفة فراش في المجتمع العالمي ؟

ويبدو لي أنه من اللائق أن نفكر في الأسباب التي أدخلتنا إلى هذا المأزق ، قبل أن نفكر في الأسباب التي يمكننا بها الخروج منه . إن دوافع الحياة هي التي ورطتنا في الأزمة التي نحاول منها الخروج . ورطتنا منذ أكثر من نصف قرن ، حينما استيقظت الشعوب العربية الإسلامية على خطر الاستعمار ، فقد كانت يقظتنا الفجائية دافعاً من دوافع الحياة وفي الوقت نفسه دافعاً من دوافع الخطأ .

فكان مثلنا كنائم استيقظ فجأة فوجد النار في غرفته ، ودون أي تفكير ألقى بنفسه من نافذة الغرفة التي هي في الدور الرابع أو الخامس لينجو من النار .

فنحن قد ألقينا بأنفسنا من حيث لا نريد في هوة التقليد حتى ننجو من الاستعمار . إننا نفكر في الخلاص تفكيراً معقداً ؛ وإنما دفعتنا دوافع لا شعورية لتقليد حضارة الاستعمار حتى نعصم أنفسنا منه . ولقد دعانا هذا إلى السير في الطريق التي شقّتها الشعوب الغربية أمامنا على أنه يوصلنا إلى ما وصلوا إليه .

ولا شك أن هذا ممكن لو أننا نسير جميعاً دون دخل للوقت والتطور في حياتنا .

ولكننا نتطور نحن ومن نقلده . وعليه فإذا سرنا على مبدأ تقليده فسوف نقلده إلى ما لا نهاية . وهكذا كان الدافع الذي دفعنا في مطلع هذا القرن إلى الحياة قد دفعنا في الوقت نفسه إلى الخطأ فبتنا نسير في هذا الطريق ، لأن السابق إلى الشيء دائماً أولى به . ومن المسلم به أن من نقلده أسبق منا في هذا المضمار .

فلو أننا افترضنا أن الصاروخ هو في النهاية الغاية التي تريد الإنسانيّة تحقيقها وهذا افتراض لا نسلّم به إلّا جدلاً ، فإن المجتمعات التي سارت قبلنا على طريق الحضارة المادية سوف تصل حتماً إلى تلك الغاية قبلنا . وهكذا نصبح في النهاية

نسير إلى غير غاية حققها غيرنا قبلنا .

فالخطأ إذن بيّن ، ويزيده وضوحاً أن تخرج القضية من إطار المنطق البسيط إلى منطق الواقع الصحيح : فنحن لا نرى أن الذي قد حصل على الصاروخ قبلنا ونقتفي أثره عن طريق الحياة المادية ، حقق بذلك غاية الإنسانيّة ، فأشبع حاجة من الحاجات الكبرى التي نريد إشباعها ، بل نراه هو نفسه يخشى الصاروخ الذي في يمينه والقنبلة الذرية التي في يساره ، فهو يلوّح بها لخصومه وأعدائه بيد ترتعش خوفاً مما تحمل ، فهل نؤمن ـ والحالة كما ذكرنا ـ أنه بما حصل عليه في طريق الحضارة المادية ، قد أسعد نفسه أو أسعد الإنسانيّة ؟

فالخطأ واضح إذن من الجانب النفسي والأخلاقي والمنطقي معاً . وبهذا يتبين لنا كيف دخلنا في المأزق ، وبقي أن نتساءل : كيف نخرج منه ؟

قد وضح مما بينا أننا دخلنا إليه عن طريق التقليد ، فلم نفكر في مسلكنا حينما استيقظنا بل سرنا مقلّدين لا مبتكرين ؛ وأرى الآن أن نتمهل فنراجع أنفسنا ، فإن الاعتبارات التي قدّمناها لا تدلّنا على أنه ينبغي علينا أن نستغني عن نتائج الحضارة المادية ، وإنما أن نقدّرها بالنسبة لوضعنا ، في عالم أصبح فيه نوع جديد من التخصص . لا تتخصص فيه الأفراد فحسب كما كان الأمر من قبل ، لإشباع حاجات الحياة المادية ، ولكن تتخصص الكتل البشريّة لتسد كل حاجة من الحاجات التي تتضمنها الحياة الإنسانيّة الأيديولوجية . . وتحقق لها في المجتمع العالمي مكاناً . .

فإذا ملكنا الصاروخ فمرحباً به لخدمة الإنسانيّة ، ولكن مع العلم أنه قد وصل إلى يد غيرنا قبلنا . وإنه مع ذلك لا يشبع حاجة من الحاجات الإنسانيّة .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، علينا أن نراجع أنفسنا ونتساءل : ما هو المخرج ؟ إنّه في أن يكون في نشاطنا الروحي ما تعترف به الإنسانيّة كحاجة مثل الديمقراطية والاشتراكية والسلم ، حاجة لا بد من إشباعها .

ونحن حين نضع المشكلة هكذا فإنه يبقى أن نعلم هل لهذه المشكلة حلّ في هذه الصورة ؟ وبتعبير آخر ، هل فـي أنـفسنا بـصفتنا عـرباً وفـي أرواحـنا بـوصفنا مسلمين منبع ينبع منه خير للإنسانية ؟

إنّه يمكن الخطأ في الجواب ، ولكن هذا لن يقلل من أهمية السؤال . يمكن لي أن أخطئ في رأيي الخاص أمام هذا السؤال ، ولكن هذا لا يغير من صورة القضية ، فإنه يجب أن يكون في نشاطنا شيء تعترف به الإنسانيّة بوصفه حاجة من حـاجاتها ، شيء يضمن لنا مركزاً كريماً في المجتمع العالمي .

وأنا هنا سوف أبدي مجرد رأي . . ولا ضير أن يأتي غـيري بـرأي أحسـن مـنه شريطة أن نظل في صلب القضية ، فإن حاجة الإنسانيّة لا تتمثل في الديمقراطـية وحدها ، التي فيما يبدو قد استأثر بها الغرب ، ولا الاشتراكية وحدها التي ـ فيما يبدو ـ قد تخصصت بها البلاد الشيوعية ولا السلم وحده الذي قد رفعت رايـته الهـند ، فهناك في نظري مجال نستطيع فيه أن نسجل بلون خاص وجودنا عـلى الخـريطة الأيديولوجية . إن الإنسـانيّة فـي حـاجة ـ عـامة ـ إلى صـوت يـناديها إلى الخـير ، وإلى الكف عن جميع الشرور ، وإنها الحاجة أكثر إلحاحاً من سواها ، لأن الإنسـان تـوّاق إلى الخير بـفطرته ، وإنـما تـحرمه مـنه مـعوقات مـختلفة تكـونها الظـروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحياناً ، غير أنه حينما تؤثر هذه المعوقات في سلوكه فتجعله يكذب أو يسرق أو يظلم أو يقتل فإنه يشعر بالحرمان .

إن الطيار الأمريكي الذي ألقى القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما ، قد دفعته إلى عمله دوافع مختلفة يسميها البطولة الوطنية ، دوافع كـونتها فـي نـفسه ثـقافته وبيئته . غير أنه حينما انجلى الانفجار الهائل في الأفق ، وكشف عن أطلال مـدينة كاملة ، وظهرت الأكداس من الجثث الممزقة الموقوذة المشوهة ، ظهر بـين تـلك الأطلال الحزينة وفوق تلك الأكداس الرهيبة وجه الشر ، وكأنما ارتفعت منه ضحكة نكراء ، إنها ضحكة الشر المنتصر ، قد وصل صداها إلى أذني ذلك (البطل) الذي

سحق المدينة بقنبلته الفتاكة .

ولقد حاول أن يتوارى عن ذلك الوجه المفزع ، وأن يُصم أُذنيه عن تلك الضحكة المزعجة ، فأطلق لطائرته سرعتها حتى يغير من ذلك المنظر ويبدل من ذلك الصوت ، ولكن هيهات أن يزايل المشهد مخيلته أو يهدأ رنين الصوت في أذنه ، فإنه يحمله في نفسه ، في فطرته ، في ضميره الذي تحرك حينما رأى سوء عمله .. لقد فر وأمعن في الفرار ، ولكن ذلك لم يجعله في نجوة من شعوره بالإثم ، ومن رؤيته لوجه الشر سافراً فوق الأطلال المحطمة ، ومن سماع ضحكته الصاخبة فوق الجثث الهامدة .

فرّ من الجيش ، من الحياة العائلية ، من الأصدقاء ، من الملذات ، وأوى أخيراً إلى دير علّه يجد في العزلة تسلية .

إن في هذه الحادثة لعبرة . إنها تشير إلى أن الإنسان لا يفقد من نفسه معنى الخير كله مهما أحاطت به دوافع الشر . لأن الأصل في قلبه الخير والشر عارض . وإن هذا ليعني أن الخير حاجة تشعر بها النفس شعوراً عنيفاً ، كذلك العنف الذي تجلى في سلوك الطائر الأمريكي بعد عودته من هيروشيما [١] .

ويخلص المفكر الراحل إلى مشروع إنساني جديد قائلاً :

« ونحن حينما ندقق الأشياء نرى أن الدوافع النفسية التي تعبر عنها فكرة الديمقراطية أو فكرة السلام ، إنما هي في الواقع دوافع واحدة في صور مختلفة : إنها دوافع الخير في نفوس مختلفة . وإن هذا يعني « بعدما تصح هذه الملاحظة » أن في النفس مجالاً لفكرة الخير ، وأن من يرفع راية الخير قد يسد حاجة تشعر بها الإنسانيّة في أعماقها ، ويحقّق لنفسه مكاناً كريماً في المجتمع العالمي .

---

(١) تأملات / مالك بن نبي : ٢١٠ ـ ٢١٦ .

وفي هذا المجال يمكن أن يكـون مـجالنا إذا حـققنا فـي سـلوكنا مـعنى الآيـة الكريمة : ﴿ وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ ﴾[(١)].

فإذا ما تحققت هذه الآية في سلوكنا العام ، بوصفها تخصصاً لمجتمعنا بالنسبة لحاجة الإنسانيّة ، فسوف نكون قد لقينا على الخريطة الإيديولوجية لوناً يجعلنا من أكرم سكان المجتمع العالمي . وأنا أتعمد شيئاً حينما أقرن الخير بالسلوك ، فالسلوك هو الذي يحقّق في الواقع معنى الخير المجرد . فليس الخير مجرد حقيقة نـعلمها أو نقولها ، مجرد حقيقة تقبلها العقول ، وربما تنفر منها الأنفس أحـياناً إذا لم يكـن الخير في صورة محببة للناس ، إذ ربما يحدث دوافع سلبية لا تشبع فـي أنـفسهم حاجة لخير ، بل تحدث فيها حالة حرمان .

وقد كرر القرآن الكريم النصائح في هذا الاتجاه إذ يقول للنبي : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[(٢)] . أو حينما يقول له بصفة عامة ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[(٣)].

فهذا هو ـ فيما أرى ـ شرط دخولنا في المجتمع العالمي . ونحن حينما ندخل إلى هذا المجتمع غير مقلدين ، فإننا سنكون أسبق من غيرنا إلى وظيفة ، تسد حاجة من حاجات الإنسانيّة الكبرى في القرن العشرين ، ولحققنا بذلك لأنفسنا مكاناً كـريماً في العالم الجديد[(٤)].

ولكن أيّة لافتة يمكن أن ترفع بعد أن تبدد بريق اللافتات الأُخرى وما الذي يمكن أن يصبح هاجس الضمير العالمي في هذا المقطع من تاريخه المرير ؟

---

(١) آل عمران : ١٠٤.

(٢) آل عمران : ١٥٩.

(٣) فصّلت : ٣٤.

(٤) تأمّلات / مالك بن نبي : ٢١٦ و ٢١٧.

خاصّة وإنّ لافتة جديدة هي « العولمة » باتت تثير مخاوف الأُمم والشعوب وتدفع شبابها إلى التظاهر ضدها كخطر يهدد كيان الشعوب وهويتها !

ولقد أنّت البشريّة من الاستبداد فظهرت الديمقراطية كنافذة للخلاص ثمّ ضغطت الرأسمالية بشدّة على الضمير الإنساني فتألقت الاشتراكية كطريق مضيء ، وتعذّبت بسبب الحروب والصراع فأشرقت فكرة السلام في ضميرها ووعيها . .

وها هي الإنسانيّة تعيش الظلم بكل مستوياته وأصعدته وأصبحت العدالة هاجساً يراود أحلام المظلومين في كل مكان .

وهناك نقطة ينبغي إثارتها في الدراسات المستقبلية وهي تجاوزها حالة الاستشراف الذي ينجم عادة عن الاعتراف بالواقع ، فيما المطلوب التخطيط لصياغة مستقبل أفضل فالـ« سوبرمان » الذي أفرزته الحضارة الغربية فلسفياً هو إنسان خارق يقوم بدور إنقاذي محدود جداً لأنه لا يستطيع التدخل في مسار التاريخ .

ولذا نجد الدراسات المستقبلية في الغرب تتضمن الاعتراف بالواقع الحضاري الغربي ومحاولة صياغة عالم ينسجم ويستجيب للنمط الغربي وسلطته .

وقد اخترنا دراسة الأُستاذ نادر فرجاني[١] القيّمة مصدراً فيما سنورده في هذه السطور حول الدراسات المستقبلية وقد استهل دراسته بالاشارة إلى خطوة لها مغزاها وهي اجتماع ثلاثين شخصية علمية في « روما » لمناقشة المعضلات الحالية والمستقبلية التي تواجه البشريّة .

واستهدفت هذه الخطوة العلمية الهامة دراسة المشاكل المعقدة التي تواجه البشر في العالم وهي : الفاقة ، تدمير البيئة ، فقدان الثقة بالمؤسسات ، الانتشار الحضري

---

(١) عالم الفكر ١٩٨٨ المجلد ١٨ ـ مستقبل البشريّة بين رؤى العالم الثالث وفظاظة العالم « نموذج باريلوتشي » .

المنفلت ، اغتراب الشباب ، رفض القيم التقليدية ، التضخم والاضطرابات النقدية والاقتصادية الأُخرى ، واصطلح على تسميتها مجموعةً « مشكلة العالم » ومن المهم كما يقول الأُستاذ : الإشارة إلى أن التوصيف المقدم أعلاه لمشاكل العالم يأتي من منظور الغرب المصنِّع وهو بالتأكيد لا ينطلق من الهموم الجوهرية لغالبية البشريّة .

وتنتقل الدراسة إلى « نموذج باريلوتشي » للعالم ومن الضرورة الإشارة إلى موطنها في العالم الثالث وهو مشروع تخطيطي أكثر من استشرافي معياري أي « يحاول رسم طريق يوصل إلى غاية محددة سلفاً . وهذه الغاية هي عالم متحرر من التخلف والبؤس » .

وكلمة « نموذج » التي استعملت في المشروع تتضمن إشارة إلى مفهوم « المجتمع المثالي » .

كما أنّ الدراسة التي أنجزها العلماء جاءت ردّاً على المدرسة الفكرية للغرب والتي ترجع مشكلة العالم إلى النمو السكاني ، لكن نموذج باريلوتشي يختلف جذرياً وهي لديه « ليست حدوداً طبيعية تتعارض مع النمو السريع للسكان ، ولكنها اجتماعية ـ سياسية تنجم عن التوزيع غير المتكافئ للقوة بين خارج البلاد وداخلها . ومن ثمّ فإنّ المجتمع المثالي الموصوف يقوم على أن الإنسان لن يتحرر من القهر والتخلف في نهاية المطاف إلّا عن طريق تغييرات جذرية في التنظيم الاجتماعي السياسي للعالم »[(١)] .

وينتقد النموذج بداية نموذجي التنظيم الاجتماعي السياسي السائدين في العالم المعاصر الرأسمالي والاشتراكي بتنويعاتهما القائمة حالياً .

فالنموذج الرأسمالي يقوم على الملكية الخاصة والربح ويؤدي إلى طبقية تدمّر

---

(١) عالم الفكر ١٩٨٨ المجلد ٤٢ ـ مستقبل البشريّة بين رؤى العالم الثالث وفظاظة العالم « نموذج باريلوتشي » .

أسس المساواة وتنمّي نوازع السيطرة والاستغلال والمزيد من اغتراب الإنسان .

كما أنّ النموذج الاشتراكي قـد عـرّته التجربة التـاريخية وكشـفت عـن ظـهور بيروقراطيات الحزب والدولة التي تحولت إلى مراكز سـلطوية أفـضت إلى فـروق اجتماعية تنهض على مدى الانتماء إلى الاقلية الحزبية التي تمسك بأزمّة السـلطة والحكم .

ونموذج باريلوتشي يتبنى قيمتين أساسيتين في رؤيته للمجتمع المـنشود هـي المساواة الأساسية بين البشر ، ومفهوم التاريخ كعملية لا حدّ لها يتوقف اتجاهها في التحليل الأخير على رغبات وأفعال البشر . الأُولى تشكّل الأساس الصالح الوحيد لبناء عالم يسوده الوفاق ، والثانية شرط أساسي لتحقيق هذا العالم[١] .

ومن المهم هنا أن نثبّت ما ورد في النقطة الرابعة والأخيرة من الوصف الاجمالي للمجتمع الجديد : « يوفّر تطبيق هذا النموذج في عدد متزايد من بلاد العالم الظروف الأساسية لخلق نظام عالمي متوافق قادر على نشر العدالة ، الرفاهية والديمقراطية وعلى اقتلاع جذور الحرب ويمكن أن يؤدي إلى نشوء شكل من التـنظيم الدولي يحترم حرّية وذاتية كل الدول ، ويروّج للاندماج التدريجي في جماعة دولية متحررة من النزعات الإقليمية[٢] .

ويؤكد النموذج على ضرورة مراجعة المفهوم الشائع الذي يفترض أنّه ما دامت الأرض محدودة ، فلا بد أن تكون مواردها محدودة كذلك . وهذا بالقطع صحيح . ولكن المغالطة التي تقدّم كبرهان دامغ على الكارثة القادمة التي ستحلّ بالعالم نتيجة لاستمرار تزايد السكان ، تخلط بين المحدودية والنفاد .

---

(١) عالم الفكر ١٩٨٨ المجلد ٤٣ ـ مستقبل البشريّة بين رؤى العالم الثالث وفـظاظة العـالم « نموذج باريلوتشي » .

(٢) المصدر المتقدّم : ٤٤.

بخلاف استثناءات قليلة ، لا تفقد الكميات الهائلة من المعادن في قشرة الأرض بمجرد تعدينها واستعمالها ، ولكنها تستمر لتكون جزءً لا يتجزأ من الموارد المعدنية للكوكب . فقد تدخل مؤقتاً في سلع رأسمالية أو استهلاكية ، وقد تدمج كيميائياً مع عناصر أُخرى . ولكن ، على الرغم من هذا ، تبقى ولا تفنى . وقد أثبت الفن الانتاجي الحديث قدرته على إيجاد طرق لاستخلاص الموارد من أكثر التركيبات الجيولوجية تنوعاً ، وعلى تدوير المواد التي استخدمت قبلاً ، مرة أو أكثر في استخدامات جديدة .

أما بالنسبة لموارد الطاقة ، فقد أظهرت دراسات باريلوتشي أن الهيدروكاربونات ، في صورة سوائل وغازات ، يحتمل أن تبقى لمدة مائة عام تقريباً ، بينما قدر أن هناك ما يكفي من الفحم ، على معدلات الاستهلاك الحالية لمدة حوالي أربعة قرون . ولكن مصدر الطاقة المستقبلي الأهم هو الوقود النووي . وكان التقدير أن الاحتياطيات المحتملة من اليورانيوم والثوريوم تكفي لسدّ الاحتياجات من الطاقة إلى الأبد تقريباً . وعليه ، فإنه لا يوجد داع ، من منظور التوافر المادي ، لتوقع مشاكل في مصادر الطاقة في المستقبل المنظور . وتؤكد الدراسة أن أزمة الطاقة التي ركز عليها الغرب المصنِّع هي ، في المنظور التاريخي ، ذات طابع عرضي .

وتفرّق دراسات باريلوتشي بين التلوّث في البلدان الغنية والفقيرة . في الأولى يقترن التلوّث بتوسع النشاط الصناعي ، والأعداد المتزايدة من السيارات وغيرها من معالم معدلات الاستهلاك المرتفعة . وضبط هذا النوع من التلوّث ممكن شرط وجود سياسات مكافحة مناسبة . أما في البلاد المتخلّفة ، فينتج التلوّث من الفاقة : تلوّث الماء ، أوضاع سكن سيّئة ، غياب الصرف الصحّي ، الخ . . . والحدّ من هذا النوع من التلوّث رهن بإشباع الحاجات الأساسية . وختاماً ، فإن النموّ الاقتصادي لا يرتبط بالضرورة بزيادة التلوّث . وعليه فإنه يمكن ضبط كل أنواع التلوّث تقريباً إذا تمّ اتّخاذ القرارات المطلوبة ، وتنفيذ الإجراءات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة .

وإحدى السمات الرئيسية للنموذج ، التي تميّزه عن أغلب النماذج التي بنيت حتى وقت إعداده ، وخاصة تلك التي تمّت في إطار نادي روما ، هي أن حجم السكان يولد داخلياً بواسطة نموذج فرعي يربط المتغيرات السكانية بالمتغيرات الاجتماعية ـ الاقتصادية . ويعكس هذا النموذج الفرعي إحدى المقومات الأساسية لمشروع باريلوتشي ، وهو أن الطريقة الوحيدة الكافية لضبط نمو السكان هي تحسين مستويات المعيشة .

لا ريب أن مشروع باريلوتشي هو من أهم الأعمال في مجال الدراسات المستقبلية التي تناقش مصير البشريّة . وتعود أهمية هذا العمل إلى تبنّيه صراحة ، لوجهة نظر اجتماعية ـ سياسية محددة ، وإلى بعض النواحي الفنية ، التي ألمحنا لبعضها فيما سبق .

ولكن مشروع باريلوتشي يكتسب قيمة كبيرة من حيث كونه العمل الكبير الوحيد في ميدان الدراسات المستقبلية الذي نبع من العالم الثالث تعبيراً عن رفض كثير من الأوضاع السائدة في العالم وقت إعداده ، بما في ذلك الدراسات المستقبلية ، وكشفاً لخلفيات هذه الأوضاع ، واستشرافاً لمستقبل أفضل وأكرم لكل البشر .

لقد بيّن النموذج الرياضي إمكانية إشباع الحاجات الأساسية لأغلب سكان العالم حول مطلع القرن القادم ، إذ ما طبّقت السياسات المقترحة للوصول إلى المجتمع المثالي في رؤى باريلوتشي . وأظهر مشروع باريلوتشي برمّته أن العقبات التي تقف حالياً في سبيل تحرر البشريّة من الفاقة والبؤس ليست طبيعية أو اقتصادية بالمعنى الضيّق ، وليست النمو السريع في حجم السكان . ولكنها في الأساس ، اجتماعية ـ سياسية .

وعليه ، فإنّ مشروع باريلوتشي قد أكّد لنا أن مستقبل البشريّة لا يتوقف في النهاية على عقبات طبيعية لا تذلل ، وإنما على عوامل اجتماعية وسياسية هي

من صنع البشر ، وبالتالي فإن في مقدورهم تعديلها وصولاً لوجود إنسان أغنى ، ولكن أين العالم من هذا المسعى ، بعد أكثر من سنوات عشر على نشر نتائج المشروع ؟ هل اقترب العالم من مجتمع باريلوتشي الجديد ؟ أم زاد احتمال الكارثة ؟

وليس مشروع باريلوتشي ، للأسف ، الأكثر انتشاراً في مجال الدراسات المستقبلية لمصير البشريّة ، حتى في العالم الثالث . وإن كان في هذا الأمر مدعاة للأسف ، إلّا أنه ليس بمستغرب . فمشروع باريلوتشي قام ضدّ كل العناصر المهيمنة في بنى القوة الحالية في العالم . ومن الطبيعي أن تحارب هذه العناصر انتشار مثل هذه الرؤى التي تنتصر للفقراء وتدعو لتقويض أركان الهيمنة والاستغلال في العالم .

فما زلنا نعيش في عالم يعاني فيه الكثير من سكان الجنوب من نقص وسوء التغذية ، بينما يشكو الغرب المصنّع من عبء بحيرات الحليب وجبال الزبد ، أما عن تردّي أوضاع التعليم والسكن في البلدان النامية فحدّث ولا حرج ، وعوضاً عن تكريس المشاركة والمساواة نجد اتّجاهاً متعاظماً لتكريس القهر وتهميش الناس خاصة في بلدان العالم الثالث . وبدلاً من تعميق قيم المساواة ، نواجه استقطاباً متزايداً داخل مجتمعات العالم الثالث ، وعلى صعيد النظام الدولي .

ويرتبط ذلك كله بموجة قويّة من زيادة الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي عمّت العالم منذ منتصف السبعينات تحت شعار « الانفتاح الاقتصادي » ، حتى قاربت الاشتراكية أن تكون كلمة قذرة ، وفي النهاية ، فإن محصلة هذا كله هي مزيد من تبنّي مُثُل المجتمع الرأسمالي الغربي ، ونمطه الاستهلاكي المدمّر ، وخاصة بعد أن اهتزّت أهم المحاولات المعاصرة لبناء « الإنسان الاشتراكي » في الصين الشعبية .

والخلاصة ، أننا نقدّر أن العالم يقترب من الكارثة التي تنبأت بها دراسات نادي روما ، ولكن لأسباب غير تلك التي زعمتها هذه الدراسات . إن الاقتراب من الكارثة

يعود كما بينت دراسة باريلوتشي ، إلى أسباب كامنة في أشكال التنظيم الاجتماعي ـ السياسي في العالم المعاصر .

ولا يمكن الاجتماع بواقع الحال في العالم على مشروع باريلوتشي . فالمشروع لم يحاول التنبّؤ بمستقبل البشريّة ، وإنّما قدّم توقّعات بما يمكن أن يكون عليه الأمر إذا تحقّقت افتراضات معيّنة حول السياسات الكفيلة بالتحرّك صوب المجتمع المنشود . وحيث إن الافتراضات لم تحقّق ، فلا يتصوّر عاقل أن تحقّق النتائج المترتّبة عليها .

إنّ رؤى باريلوتشي تبدو لنا كمولود بهيّ الطلعة ، مبشّر بالخبر ، ما لبث أن عصفت به تصاريف واقع غاشم لكن يبقى الأمل ما بقيت الذكرى ، والمذكّرون[١] .

إنّ هذه الدراسة التي أنجزها فريق باريلوتشي تنطوي على قيمة بالغة الأهمّيّة ذلك أنها لاتستشرف المستقبل على أساس مجريات الواقع ومعطيات الظروف وإنّما هي محاولة رسم مستقبل جديد . . مستقبل يتوقف على إجراء تغييرات جوهرية اجتماعية وسياسية وهي مهمّة إصلاحية كبرىٰ تستلزم توفّر شروط روحية وشعور عميق بالمسؤولية الأخلاقية ازاء المصير الإنساني .

يقول الإمام الشهيد محمّد باقر الصدر : « إنّ إقامة الحقّ والعدل وتحمّل مشاقّ البناء الصالح ، بحاجة إلى دوافع تنبع من الشعور بالمسؤولية والاحساس بالواجب . وهذه الدوافع تواجه دائماً عقبة تحول دون تكوّنها أو نموّها .

وهذه العقبة هي الانشداد إلى الدنيا وزينتها والتعلق بالحياة على هذه الأرض مهما كان شكلها ، فإن هذا الانشداد والتعلق يجمّد الإنسان في كثير من الأحيان ويوقف مساهمته في عملية البناء الصالح ، لأنّ المساهمة في كل بناء كبير ، تعني كثيراً من ألوان الجهد والعطاء وأشكالاً من التضحية والأذىٰ في سبيل الواجب

---

(١) مجلة عالم الفكر المجلّد ١٨ ، العدد ٤ ـ مستقبل البشريّة : ٩٩٧ ـ ١٠٠٤ .

وتحملاً شجاعاً للحرمان من أجل سعادة الجماعة البشريّة ورخائها .

وليس بإمكان الإنسان المشدود إلى زخارف الدنيا والمتعلق بأهداب الحياة الأرضية أن يتنازل عن هذه الطيبات الرخيصة ويخرج عن نطاق همومه اليومية الصغيرة إلى هموم البناء الكبيرة ، فلابدّ لكي تجند طاقات كل فرد للبناء الكبير ، من تركيب عقائدي له أخلاقية خاصة تربي الفرد على أن يكون سيّداً للدنيا لا عبداً لها ، ومالكاً للطيبات لا مملوكاً لها ، ومتطلعاً إلى حياة أوسع وأغنى على الأرض هي تحضير بالنسبة إلى تلك الحياة التي أعدها الله للمتقين من عباده » .

وتبقى الإشارة إلى سبب اختيار هذه الدراسة ونجمله في نقاط ، منها : أنّها دراسة أكاديمية علمية كما أن ظهورها خارج العالم الإسلامي يشكل بعداً آخر في أهميتها على أساس تحررها الكامل من أية تأثيرات مسبقة من قبيل النبوءات الدينية والمؤثرات الفكرية والأسطورية .

المستقبل .. تأملات في حشد من المؤشرات

نحاول أن نلج هذا الفصل من خلال النبوءة القرآنية في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾[١] .

ومن خلال هذه النبوءة نتصور اتجاه البشريّة إلى يوم موعود ووراثة الإنسان الصالح الأرض وفاعلية القانون الاجتماعي الذي حدّدته آية قرآنية أُخرى وهي قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾[٢] .

ونحن نعرف جميعاً أن البشارة والنبوءة تتمحور حول ظهور الإنسان المنقذ في فصل تاريخي تئنّ فيه الأرض من ويلات الظلم والعذاب ، فيرفع راية العدالة ،

---

(١) الأنبياء : ١٠٥ .

(٢) الرعد : ١١ .

ويملأ الأرض خيراً بعد أن يطهرها من الشرور.

كما نعرف أيضاً أن هناك دائرتين واسعتين تكادان تتقاسمان العالم هما: الدائرة الغربية بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكيّة والكيان اليهودي السياسي الغاصب في فلسطين، ودائرة العالم الإسلامي والتي ينتمي إليها المستضعفون في الأرض على أساس المساحة الإنسانيّة المشتركة وهموم المصير.

ولأنّ أميركا في الوقت الحاضر تمثّل أو تحاول الظهور بمظهر القطب الأكبر في العالم بعد انهيار منافسها التقليدي، فستكون نموذجاً عند الحديث عن الغرب، إضافة إلى علاقتها الاستراتيجية مع إسرائيل، هذه العلاقة التي تكتسب أهمية بالغة لارتباطها الوثيق بمصير الأُمّة الإسلاميّة واحتمالات نشوب صدام مصيري مع الكيان الإسرائيلي.

أميركا هي تطوّر، سيّء للحضارة الغربية، التي تعاني من تمزّقات في نسيجها الداخلي يهددها بالأُفول.

وبالرغم من أن العلم الذي نهضت عليه الحضارة الغربية في انطلاقتها وتفوّقها المادي فإنّه بالذات قد استحال غدّة سرطانية يهددها بالموت.

ذلك أن انفصالاً رهيباً قد وقع بين الضمير الإنساني والعلم، ولأنّ الحضارة الغربية كانت مفتونة بالعلم الذي أضحىٰ لديها كعجل السامريّ، فقد انتهىٰ دور الضمير في بلورة قيم أخلاقية يمكنها أن ترشّد أو تحدّ من جموح حضارة مجنونة بكشوفها وآلاتها.

وأُصيبت الحضارة الغربية بتضخم الذات أو بنرجسية خطيرة.

« ولكن هذه (الذات) قد قامت في الواقع بدور « تلميذ الساحر »، فلقد أبدعت آلات لم تستطع السيطرة عليها، ثمّ استنامت لتلك الآلات تقودها بعقل آلي، وتزدردها في أحشائها من جديد فصارت الحياة أرقاماً، وأضحت السعادة مقيسة

بعدد ما لديها من وحدات حرارية وهرمونات ، وصار العصر عـصر (كـم) يـخضع الضمير فيه للنزعة الكمية ، كما صار عصر النسبية الأخلاقية ، حيث استهل قـرنه بالمبدأ القائل : «كل شيء في الحياة نسبي » ، فلم يعد أحد يدرك معنى « الفضيلة المطلقة » ، بل إن الكلمة نفسها قد أضحت مـن المـعمّيات ، أضـحت كـلمة مـيتة لا معنى لها ، لأن القرن العشرين وهو قرن العقل الوضعي الذي يشبه عـقل الآلة ، لم يعد يفهم شيئاً وراء التصورات النسبية للمادة .

لقد مات معنى الفضيلة « المطلقة » ، من الوجه الذي مات منه مفهوم « العدالة » في قول أحد الأوربيين : « إن تسوية جائرة خير من قضية عادلة » ، وسارت الحـياة الاقتصادية نفسها إلى مصيرها ، يوم وجد بعض النـاس فـي أنـفسهم قـحة وجـرأة ليؤكدوا أن « التجارة هي السرقة الحلال » .

وهكذا نجد أن أوربا النازعة إلى « الكم » وإلى « النسبية » قد قتلت عدداً كبيراً من المفاهيم الأخلاقية ، حين جردتها من أرديتها النبيلة ، وأحالتها ضروباً من الصعلكة ، وكلمات منبوذة في اللغة ، طريدة من الاستعمال ومـن الضـمير ، وكأنـما صـارت القواميس « أحياناً » مقابر لكلمات لا توحي بشيء ، لأن مفهومها لا ينبض بالحياة .

ولقد تعاظم خطر تلك النزعة الكمية في أُوربا طبقاً « للعامل المضاعف » المتمثل في القوة الفنية ، والذي تملكه صناعة غزت العالم ، كأنها أُخطبوط يضاعف بصورة هائلة شهوة الإنسان إلى المادة ، فهي تملي على الطفل اتجاهه في الحياة ، بحيث لا يختار طريقه فيها إلّا وقد وضع نصب عينيه ما يأخذ من المجتمع لا ما يعطي ، إنّه يبحث عن حظّه لا عن رسالته ، وتلك طريقة جيدة لإعـداد مـدير المسـتقبل فـي المستعمرات ، لأن ذلك الموظف لم يعد لديه أدنى قدر من التحفظ الذي يحول بينه وبين الأخذ بمبدأ النسبية الأخلاقية في بلاده ، بل والمضي فيه إلى أبـعد مـدى . فهناك في المستعمرات تسلك الأخلاق النسبية في نفوس النـاس بـاسم « السـيادة القومية » ، وبذلك يسقط قناع « التحفظ » كأنه مسحوق يذوب بحرارة الشمس ، في

جوّ حميت فيه الشهوات المنطلقة ، والغرائز المطلقة ، فالناس ما بين راغب وآخذ .

والناس في أوربا ذاتها ، قد لزمهم ما درجوا عليه في حياة المستعمرات من عادات وأذواق وأفكار ، فلم تعد مطامحهم تسعى لإدراك « علة » الشيء ، ولا «كيفية » حدوثه ، وإنما هي متعلقة بالبحث عن « الكم » ، غير أنهم يحاولون نفاقاً أن يستروا هذه النزعة بما يتيسر لهم من البلاغة واللسن ، لكن هذه البلاغة سرعان ما تختفي لتنكشف الأمور على حقيقتها ، وتتسمّى بأسمائها ، فإذا بالقطّ قطّ ، وقد كان منذ قليل نمراً ، وإذا بالنزعة الكمية تشمل مرافق الحياة الاجتماعية جميعاً ، في الإنتاج ، وفي عمليات الدفع والشراء ، بل وفي عملية الأكل أيضاً ، فالحياة تجري على سنن « الكم » وحده .

لقد أصبح « الرقم » سلطاناً في المجتمع الفني الآلي الذي قام بأوربا منذ عام ١٩٠٠ ، وصار الإحصاء لا معقب لحكمه ، فليس للفطرة الإنسانيّة ، أعني الضمير الإنساني ذاته ، دخل في الحياة الجديدة ، شأنه في ذلك شأن ما لا يدخل في عداد الأرقام ، ولا يقاس بالكميات . وبذلك أصبحت حياة الإنسان وظيفة تكمل الأرقام فالماكينات هي التي تحرر وتحسب ، بل وتسخر الإنسان في حركة أجهزتها »[(١)] .

وهذا ما جعل مبدع « الساعة الخامسة والعشرون »[(٢)] يسجل هذه النبوءة : « إنّ انهيار المجتمع التكني هذا ، سيعقبه اعتراف بالموهبات الإنسانيّة والعقلية ، وسيشرق هذا النور العظيم من الشرق ولا شكّ . . من آسيا . .

ولكن ليس من روسيا . . إنّ الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائي . .

لذلك لن يعيشوا ليروا الاشراق . . سيكتسح الإنسان الشرقي المجتمع التكني ،

---

(١) وجهة العالم الإسلامي / مالك بن نبي : ١١٧ و ١١٨ .

(٢) الروائي الروماني كونستانين جوريجو .

وسيستعمل النور الكهربائي لإنارة الشوارع والبيوت . . لكنه لن يصير له عبداً أبداً . . . ولن يقيم الهياكل كما هو الحال اليوم في بربرية المجتمع التكني الغربي . .

إنّه لن يضيء بنور « النيون » خطوط الفكر والقلب . . إنّ إنسان الشرق سيجعل من نفسه سيّداً للآلات وللمجتمع التكني ، مستعيناً بعقله كما يستعين رئيس الفرقة الموسيقية بعبقريته المستمدّة من الجرس الموسيقي . . » .

ومالك بن نبي يشير إلى نقطة هامة هي : « أن العالم الإسلامي لا يستطيع في غمرة هذه الفوضى أن يجد هداه خارج حدوده ، بل لا يمكنه في كل حال أن يلتمسه في العالم الغربي الذي اقتربت قيامته ، ولكن عليه أن يبحث عن طريق جديد ليكشف عن ينابيع إلهامه الخاصّة »(١) .

ومن خلال رمزية بعض الأخبار الواردة عن النبيّ ﷺ يمكننا أن نتصور الدجّال الأعور هو هذه الحضارة الغربية المادّية والتي نهضت بعين مفتوحة هي العلم وعين أُخرى مفقودة هي الضمير فهي « تنظر الكون بعين واحدة تنظر إلى مادته دون الروح والخلق الرفيع والمثل العليا »(٢) .

ويسجّل المفكّر مالك بن نبي ملاحظة أثبتها نموذج باريلوتشي عندما يقول : ولكن سخرية مؤسية خيمت على هذا البؤس ، فلأول مرّة في التاريخ الإنساني تصبح علّة البؤس وفرة الانتاج ، لا قلّة الثروات ، وتلك أمارة عبقرة القرن العشرين ، فلقد استطاعت بعلمها أن تجعل من أسباب الرفاهية عوامل فاقة وشقاء . فأين إذاً مكان الداء . . ؟ هل هو في تفوّق المنحنى البياني للإنتاج على منحنى الاستهلاك . . ؟ هذه مسألة صبيانية ! ! فالفنّيون الذين يلمّون بمعرفة الحساب يعرفون كيف يصححون المسائل ، ويعيدون المنحنيات إلى مستوى معين ، وبذلك يكون الحلّ رياضياً

---

(١) وجهة العالم الإسلامي : ١٢٧ و ١٢٨ .

(٢) تاريخ الغيبة الكبرىٰ : ٥٢٦ .

يتلخص في إعدام الفائض ، فهذا أبسط شيء ، وبهذه الصورة تم إحراق القطن والقمح والبن ، على الرغم من أن شعوباً كثيرة لا تجد أثراً منها في بلادها . وهكذا وجدنا أن الحضارة التي أبدعت نظرية « مالتوس » القائلة بتحديد النسل للموازنة بين الثروة وبين مستهلكيها ، تشرع في تطبيق هذا التحديد على الأشياء المستهلكة لا على المستهلكين .

لم تنهض أية سلطة روحية للتنديد بتلك الفضيحة ، فأُولئك الذين كانوا يستطيعون إنقاذ أوربا من فوضاها الاقتصادية لم تكن حاجات الشعوب لديهم مربحة ، فإنّ الشعوب المستعمرة العارية الجائعة لم تكن تستطيع أن تشتري شيئاً ، فلقد اعتبرها المستعمرون مجرد أدوات للعمل ، فخرجت بذلك من عداد المستهلكين .

إن النظام الذي خلق الفوضى في أُوربا ذو صبغتين : فهو علمي واستعماري في آن واحد ، فإذا ما كان في أُوربا فكّر بمنطق العالِم ، أما إذا انساح في العالم فإنه يفكر بعقلية الاستعمار ، حتى إذا وافى إبّان الأزمة عام **١٩٣٠** كان المنطقان قد امتزجا ، وبلغ الوحش بهذا الامتزاج أبلغ أحوال الضراوة .

وبتأملنا للظواهر في تخلقها ، نجد أن حريق عام **١٩٣٩** ، لم يكن سوى عودة للضرام ، في لحظة نقم فيها ميكيافيلي على نفسه ، وسخط الشيطان على عمله ، فهدم ما كان قد بناه ، وتلك لحظة تهب فيها ريح القضاء المبرم على شراع الإنسانيّة المشرع ، حتى يبلغ القدر مداه ، لقد علّمنا وصيّ رسول الله الإمام علي عليه السلام وهو المصلح الاجتماعي الكبير درساً قال فيه : **« من حفر بئراً لأخيه وقع فيها »**[1] ، وكان أخوف ما يخاف على أُمّة الإسلام ما ترتكب من مظالم لا ما تتعرض له منها .

---

(١) الكافي : ١٩/٨ ، الحديث ٤. تحف العقول : ٨٨. بحار الأنوار : ٣٢١/٧٢ ، الحديث ٥٠. مستدرك الوسائل : ١٠٢/١٢ ، الحديث ١٣٦٣٣ .

ولقد صدق تاريخ عصرنا لسوء الحظ هذا الحكم ، فأوربا التي كان عليها أن تهدي سعي الإنسانيّة ، قد اتّخذت من مشاعل الحضارة « فتيلاً » يحرق بدل أن يضيء ، وفي ضوء ما أشعلت من نار أشاعت وهجها في المستعمرات حتى جارت على أرضها هي ؛ أوربا هذه رأينا الفوضى تنتشر فيها ؛ نفس الفوضى التي أشاعتها في بقية أجزاء الأرض ، ونفس الضلال . بل إنها قد تجرعت نفس الكأس المحتوم ؛ كأس الاستسلام لقوى الشرّ الأُسطورية ، نعم . . الأُسطورية »[١] .

الدائرة الإسلامية

إنّ وجود إسرائيل في قلب العالم الإسلامي يؤكد الحالة المرضية التي تعيشها أُمتنا ، كما أن غطرستها ومحاولاتها في فرض هيمنتها على الصعيدين السياسي والاقتصادي يكشف عن ضعف شديد في البنية الاجتماعية لدى المسلمين والعرب خصوصاً .

هذا الوجود الذي يجعل من الجمل العربي لعبة بيد صبيّ يهودي معتوه !

ومن المفيد أن نعرف أن مجموع الأخبار الواردة حول خطوة المهدي الاصلاحية تشير إلى أن جهوده « في أول ظهوره تكون مبذولة على الأُمّة الإسلاميّة أكثر من أي أُمّة أُخرى ، يصنع منها في فترة قصيرة أُمّة قائدة للعالم ورائدة للحقّ »[٢] .

وهناك ما ينبغي قوله في سطور هذا الفصل و هو أن الوعي الامامي ونعني وعي أتباع هذا المذهب هو كأيّ وعي بشري ينمو ويتبلور ويتكامل ويتأثر بحركة التاريخ والزمن ، ويكون للتجارب دورها في مساره ، وهو يمتاز عن غيره بما أفرده من منزلة كبرىٰ للعقل ، فالفكر الامامي يمجّد العقل الإنساني ويرفعه إلى أعلى ذروة يمكن أن

---

(١) وجهة العالم الإسلامي : ١٢٠ و ١٢١ .

(٢) تاريخ ما بعد الظهور : ٣٠ .

يبلغها ، ومن غير المنطقي أن يركن إلى أساطير يخلقها وينحتها ويجمد عليها .

ومن اللافت للنظر في أدبيات مسألة المهدي وجود روايات تذكر صراحة أنّ دولة المهدي هي آخر الدول :

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام ، أنّه قال : **« ما يكون هذا الأمر حتىٰ لا يبقىٰ صنف من الناس إلّا وقد ولّوا على الناس حتىٰ لا يقول قائل : إن ولّينا لعدلنا ، ثمّ يقوم القائم بالحق والعدل »**[1] .

وعن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : **« دولتنا آخر الدول ، ولا يبقىٰ أهل بيت لهم دولة إلّا ملكوا قبلنا ، حتىٰ لا يقولوا إذا رأوا سيرتنا : إذا ما ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء ، وهو قول الله عزّ وجلّ : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ »**[2] .

فليس هناك استثناء لأيّ من نظريات الحكم مهما بلغت من نقائها وقوّتها ، ومسألة تشكيل الحكومة الإسلاميّة في عصر الغيبة يجب ألّا تنطلق في مشروعيتها على أساس نيابة المعصوم في غيابه فقط ، بل على وجوب تطبيق شريعة الله وعلى ضرورة الحكومة في إدارة الحياة الاجتماعية .

وأدبيات المسألة تتضمن تأكيداً على فشل وإخفاق ـ وبمستويات مختلفة ـ نظريات الحكم التي تعدّ إرهاصات سابقة تهيىء الأرضية المناسبة للنجاح النهائي .

فالنضج الفكري في التنظير والتطبيق لا يحدث فجأة ، بل إنّه عملية تبلور تتمّ ببطء وهدوء ، والإنسانيّة تتعلم من تجاربها الطويلة وترقى شيئاً فشيئاً سلّم الرشد والكمال ، فالربط بين مسألة المهدي وأيّ من نظريات الحكم في حقّانيّتها ومشروعيتها هو ربط فيه تعسّف لا مبرّر له .

إنّ أية دراسة للحركات الإسلاميّة في البحث عن جذور نشوئها ومبررات

---

(١) بحار الأنوار : ٥٢/٢٤٤.

(٢) المصدر المتقدّم : ٣٣٢.

استمرارها لابدّ وأن تخلص في التحليل إلى عـنصرين : الأوّل : الخـطاب القـرآنـي الصريح في وجـوب إقـامة الصـلاة ، وجـوب الجـهاد ، وسـائر الواجـبات الفـردية والاجتماعية التي لا يمكن أداؤها إلّا من خلال نظام سياسي واجتماعي وإداري .

والعنصر الثاني : هـو بـداهـة وضـرورة وجـود نـظام الحكـم لإدارة دفّـة الحـياة الاجتماعية ، وأيّة محاولة لإقامة نظام إسلامي إنّما تكتسب مشروعيتها القانونية في هذا الاطار بغضّ النظر عن الفاصلة التي تبعدها وتقرّبها من الصوابية .

ولذا سيكون من العدوان والظلم الهجوم على مشروعية نظرية للحكم الإسلامي انطلاقاً من التشكيك في ولادة الإمام المهدي عليه السلام وغيبته ، لأن مسألة ميلاد الإمام وغيابه مسألة مستقلّة تماماً عن أيّ من نظريات الحكم مهما بلغت الذروة في النقاء النظري ، ذلك أن أسباب الإخفاق لا تنحصر في الخطأ النـظري وإنّـما تـتعدّاه إلى الخطأ والخلل في التطبيق .

والإمام الشهيد محمّد باقر الصدر الذي نهض بمسؤوليته كثائر يهدف إلى تطبيق وإقامة حكم إسلامي فذّ وشريف[١] يعلن صراحة : إنّ العلم لا يصنع حـقيقة إنّـما يكشف عنها ، وانّه لا يحلّ مشكلة إنّما ينبّه لها فقط .

بل إنّنا نجد عاملاً ثالثاً في الإخفاق لا يعود إلى خلل في النـظرية أو تـعثّر فـي التطبيق وإنّما إلى غياب الظروف المؤاتية التي تساعد على النجاح .

فالخطة الاقتصادية التي نهضت بالاقتصاد الألمـاني مـن تـحت أنـقاض حـرب مدمّرة ، فشلت فشلاً ذريعاً فـي أول مـحاولة لتـطبيقها خـارج بـيئتها الأصـلية[٢] ، لأن ظروف ألمانيا العامّة تختلف جوهرياً عن ظروف البلدان الأُخرى .

وفي عالم الطبيعة كم هي البذور الكامنة في الأرض غافية تترقب المناخ الملائم

---

(١) كما ورد ذلك في نداءاته الأخيرة قبيل استشهاده.

(٢) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي / مالك بن نبي : ١١٤ و ١١٥ ، ط . دار الفكر .

للإنبات حتّىٰ إذا توفّرت الظروف المؤاتية اهتزّت وتحركت جذورها ، ثمّ ظهرت أوراقها لتنمو وتنشر ظلالها الوارفة وتؤتي أُكلها ولو بعد حين .

العصر الجديد

حشد من الروايات والأخبار يؤكّد خطوة التجديد الكبرى التي تتمّ على يدي الإمام المهدي عليه السلام هذه الخطوة التي ستأتي في أعقاب فراغ حضاري هائل وأزمة أخلاقية تعصف بالعالم .

يقول الإمام محمّد باقر الصدر في ختام بحثه حول المهدي : « هناك افتراض أساسيّ واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث التي تحدّثت عنه ، والتجارب التي لوحظت لعمليات التغيير الكبرىٰ في التاريخ ، وهو ظهور المهدي عليه السلام في أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة . وذلك الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتدّ ، وهذه النكسة تهيّء الجوّ النفسيّ لقبولها ، وليست هذه النكسة مجرّد حادثة تقع صدفة في تاريخ الحضارة الإنسانيّة ، وإنما هي نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي لا تجدُ لها في نهاية المطاف حلّاً حاسماً ، فتشتعل النار التي لا تُبقي ولا تذر ، ويبرز النور في تلك اللحظة ؛ ليطفىء النار ويقيم على الأرض عدل السماء »[(١)] .

وعن الإمام الصادق عليه السلام : **« كأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد »**[(٢)] .

الإمام الباقر عليه السلام : **« يقوم بأمر جديد »**[(٣)] .

---

(١) بحث حول المهدي : ١٢٨ .

(٢) الغيبة / النعماني : ١٩٤ ، الباب ١١ ، الحديث ١ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٥٣ ، الباب ١٤ ، الحديث ١٣ .

الإمام الباقرعليه السلام : « **يبايع الناس بأمر جديد** »[١].

وهناك أخبار أُخرى تؤكد الظاهرة الجديدة التي قد تصل إلى حدّ المفاجأة كما هو الحال في ظهور الدعوة الإسلاميّة في العصر الجاهلي وحدوث التغيرات الكبرى ، وهذا ما يكشف عنه حديث الإمام الباقر في قوله عليه السلام : « **إنّ قائمنا إذا قام دعا الناس إلى أمر جديد كما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبىٰ للغرباء** »[٢].

وهذا التجديد القادم سوف يطال كلّ شؤون الحياة الإنسانيّة ، لخّصتها الأخبار وعبّرت عنها بالأمر الجديد ، بل إنّ الكتاب الجديد لا يعني ابتداع كتاب آخر غير القرآن ، لأنّ هذا غير وارد بالمرّة ؛ فحديث النبيّ صلى الله عليه وآله يؤكد مواكبة أهل البيت لحركة القرآن إلى يوم القيامة وحديث الثقلين صريح ومعبّر : « **إنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض** »[٣].

واشتهر عن الإمام علي عليه السلام في أزمة تدوين القرآن الكريم : « **لا يهاج القرآن اليوم** »[٤].

ونحن ندرك اليوم وأكثر من أيّ وقت آخر أنّ مشكلة المسلمين هي في تفسير القرآن أو ما يدعى اليوم بالقراءة الدينية ، وإنّنا لنشهد في العصر الحاضر جدلاً حول قراءة الدين ، وتعدّدية القراءة . . ولا شكّ أنّ الاختلاف في القراءات يعني وجود مسافات متباينة بين قراءة وأُخرى ، وأنّ نسبة ما من التعثّر والخطأ في القراءة موجود

---

(١) الغيبة / النعماني : ٢٦٢ الباب ١٤ ، الحديث ٢٢.

(٢) الغيبة / النعماني : ٣٢٠ ، الباب ٢٢ ، الحديث ١.

(٣) أمالي الطوسي : الحديث ١١٦٨.

(٤) تفسير القرطبي : ٢٠٨/١٧. الدرّ المنثور / السيوطي : ١٥٧/٦. كنز العمال : ٥١٩/٢ ، الحديث ٤٦٤٨.

ويعود إلى مستويات الإدراك البشري .

من هنا نفهم وجود قراءة تمثّل عين الحقيقة والصواب وهذه متوفّرة لدى الإمام المعصوم ، وهذا ما تشير إليه الآية في قوله تعالىٰ : ﴿ **لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾[(١)].

وآية أُخرى تشهد لأهل البيت بالطهارة : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[(٢)].

فالسيرة الجديدة التي يظهر فيها الإمام المهدي عليه‌السلام تمثّل استئنافاً لسيرة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ، يقول صلى‌الله‌عليه‌وآله عن الإمام المهدي عليه‌السلام : « **هو رجل من عترتي يقاتل على سنّتي كما قاتلت أنا على الوحي** »[(٣)].

ويقول عليه الصلاة والسلام : « **يقفو أثري لا يخطئ** »[(٤)].

وهذا يشير إلى أنّ سنّة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله سيطالها التغييب والتعطيل والإقصاء ، ولعلّ هذا يحصل ، وربما من المؤكّد على أيدي الفقهاء « **فقهاء ذلك الزمان شرّ فقهاء تحت ظلّ السماء ، منهم خرجت الفتنة وإليهم تعود** »[(٥)].

كما روي عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : « **سيجيءُ أقوامٌ فِي آخرِ الزَّمَن وجُوهُهُم وجوهُ الآدميين ، وقلوبُهُم قلوبُ الشياطين ... السُّنَّةُ فيهِم بِدْعَةٌ ، والبِدْعَةُ فِيهم سنَّةٌ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُسَلِّطُ اللهُ عَلَيْهِم شِرَارَهُمْ ، فَيَدْعُو خِيارُهُمْ فَلا يُستجَابُ لَهُم** »[(٦)].

---

(١) الواقعة : ٧٩.

(٢) الأحزاب : ٣٣.

(٣) معجم أحاديث الإمام المهدي : ١/٢٢٤.

(٤) الفتوحات المكّية : ٣/٣٣٢.

(٥) بحار الأنوار : ٥٢/١٩٠ ، الباب ٢٥.

(٦) المعجم الصغير / الطبراني : ٢/٣٩. مجمع الزوائد : ٧/٣٢٦. كنز العمال : ١١/٢٥٠ ، الحديث ٣١٤١٣.

وذمّ العلماء بلحاظ ما لهم من قدرة على التأثير في الناس من جهة ومن حيث قدرتهم على التلاعب في التشريعات ،كما حصل هذا الشيء في برهات عديدة من تاريخ الشريعة الإسلاميّة ، لقد دوّن التاريخ نماذج عديدة من علماء الدين الذين باعوا دينهم بدنياهم ، وبرّروا جرائم ومجازر الطغاة بتبريرات دينية ، واعتبروا مواقف هؤلاء الطغاة جزءً من الدين ، وسلوكهم تطبيقاً لما أنزل الله .

إضافة إلى هذا انّنا لا نشكّ بوجود البدع والاضافات على الشريعة الإسلاميّة الأصلية ؛ وأنّ ظاهرة البدعة بدرجة من الرواج قلّما يخلو منها مذهب ، وهي ظاهرة مارستها المذاهب عمداً للتمييز بينها وبين باقي المذاهب تارة وقصوراً وجهلاً تارة أُخرى .

إنّ الاختلاف بين المذاهب الإسلاميّة يصل تارة إلى مستوى التناقض والتضادّ ، وهو أمر يجعلنا نطمئنّ بسقم واحد من الرأيين المتناقضين ، ولا يمكن الحكم بصحة كل من الرأيين المعتمدين في كلا المذهبين .

كما أنّ الروايات التي تحكي قتال المهدي عليه السلام على سنّة الرسول صلى الله عليه وآله مثل الرواية التالية : « **هو رجل من عترتي يقاتل على سنّتي كما قاتلت على الوحي** »[1] كما تحتمل قتاله ونضاله لأجل إحياء السنّة المندثرة تحتمل قتاله لأجل تصحيحها وتقويمها[2].

وتطال خطوة التجديد دائرة القضاء والتي تأتي بعد فترة النضال وتثبيت دعائم الحكم العادل . يقول الإمام الصادق عليه السلام : « **يحكم بحكومة آل داود ، لا يسأل عن بينة يعطي كل نفس حكمها** »[3] .

---

(١) كتاب الفتن / نعيم بن حماد : ٢٢٩ . الملاحم والفتن / ابن طاووس : ١٧٨ ، الحديث ٢٤٢ .

(٢) مجموعة مقالات : ١٦٤ و ١٦٥ (بالفارسية) .

(٣) الكافي : ٣٩٧/١ ، الحديث ٢ .

«إذا قام قضىٰ بين الناس بعلمه كقضاء داود عليه السلام لا يسأل البينة»[١].

ويحتمل «أن المعروف بقضاء داود قضاء يعتمد آلية علمية متقدمة لم تكتشف بعد، وتكتشف بعد الظهور، من حيث تطور العلوم آنذاك على يد الإمام عليه السلام، وعلى أساس هذا التطور يتمكّن القضاة آنذاك ـ ولو كانوا غير معصومين ـ الكشف عن الحقائق مستغنين في ذلك عن الأدلّة الظنّية مثل الشهود والبيّنات، وغير ذلك.

ولا يبعد هذا، حيث إنّ الآليات والتقنيات المستعملة في الوقت الحاضر لكشف الجرائم ومعرفة الحقائق، بدرجة كبيرة من الدقّة، بحيث قلّما يصعب على العاملين في هذا المجال معرفة آثار المجرمين، فكيف بها إذا تطوّرت بتطور العلوم أضعافاً مضاعفة!

إنّ الاعتماد على الكلاب البوليسية والميكرسكوب والمختبرات والكامبيوتر وبصمات الأصابع و... هذه كلها تقنيات تمكّن المحقّق من الوصول إلى الحقيقة في الوقت الحاضر رغم أنّ العلم لم يبلغ الكمال بعد، وهناك مشوار طويل لم يجتزه العلم لبلوغ الكمال؛ فكيف إذا كمل وبلغ قمّته؟! طبيعي أن يتطور كل شي ومنه ما يتعلق بالقضاء والبحث الجنائي[٢].

وفي العصر الجديد تتجلى العدالة في ربوع العالم وينشر الأمان أجنحته البيضاء، وتشهد الإنسانيّة ثورة علمية تؤتي ثمارها حلوة في خدمة البشر جميعاً، وعندها **«يرضىٰ عنه ساكن السماء، وساكن الأرض، لا تدع السماء من قطرها شيئاً إلّا وهبته، ولا الأرض من نباتها إلّا أخرجته، حتّى يتمنّى الأحياء الأموات»**[٣].

وتستحيل الأرض التي أحرقتها الحروب على مرّ الزمن إلى أرض خضراء معطاء.

---

(١) الكافي: ١/٥٠٩، الحديث ١٣.

(٢) الجديد في ثورة الإمام المهدي (مجموعة مقالات) / تحسين البدري: ١٦٧.

(٣) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ١/٢٢٩.

وتشهد الإنسانيّة تكاملاً عقلياً وأخلاقياً على درجة كبيرة من الرقـي والحـضارة والتقدم : «**إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد ، فجمع بها عقولهم ، وكملت به أحلامهم**»[١].

وتتحقّق يومئذ كل الطـموحات الإنسـانيّة والخيالات التـي داعبت أحـلامهم وتطلّعاتهم : «**العلم سبعة وعشرون جزءً جميع ما جاءت به الرسل جزءان ، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الجزءين .**

فإذا قام القائم أخرج الخمسة والعشرين جـزءً ، فـبثّها فـي النـاس وضـم إليـها الجزءين ، حتى يبعثها سبعة وعشرين جزءً»[٢].

ولا شكّ أن هذا النجاح الذي يحرزه المهدي في تنفيذ العدالة مردّه إلى أنّ النظام الاداري الذي سيعتمده سيكون على درجـة عـالية مـن الرقـي والدقـة والنـزاهـة ، ما يجعلنا نتصور نظاماً أخلاقياً يبلغ درجات غاية في السمو والنقاء .

ولنا أن نتصور عناء الإنسانيّة من الويلات والحروب والدمـار ، وتـعسّف النـظم الإداريّة ، وبطش الحكومات ، واستعباد الشعوب ، ثمّ إذا بالسماء تنفتح على الأرض بأمطار الخير والبركات . . أمطار غزيرة تحيي الأرض بعد موتها ، هذه الأمطار التي تجعل الناس يتطلعون بأمل إلى الخلاص في وجود من يفكر باستثمار هذا الفيض السماوي بدلاً من العدوان وشنّ الحروب وتغذية الصراعات الدامية .

يقول الإمام الصادق عليه السلام : «**إذا آن قيامه ، مطر الناس في جمادى الآخرة وعشـرة أيام من رجب مطراً لم ير مثله**»[٣].

وقد أورد الشيخ المفيد مجموعة من العلامات الدالّة على الظهور تُختتم بهطول :

---

(١) معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام : ٣٢٥/٣.

(٢) بحار الأنوار : ٣٣٦/٥٢.

(٣) إلزام الناصب : ١٥٩/٢.

« أربع وعشرين مطرة تتصل فتحيا بها الأرض بعد موتها وتعرف بركاتها »[١].

وقد أثبت « التلمود » ملامح مذهلة عن عالم المستقبل خاصّة في الميدان الزراعي حيث الأشجار المثمرة تهب ثمارها كل شهرين فيما تهب الحقول حبوبها كل أُسبوعين مرّة[٢]، وتدفق الينابيع[٣].

وستشرق شمس العدالة »[٤].

على أن السعادة التي يبشّر بها التلمود ستعني فقط بني إسرائيل أتباع دين موسىٰ ، وعندما « يأتي الوثنيون لاعتناق دين اليهود فإنّهم سيطردونهم »[٥].

وهذه النظرة العنصرية ينضح بها الفكر اليهودي حيث الحقد على الأُمم والشعوب والتخطيط لدمارها مبثوث في التلمود الذي يتمتع بالقداسة لديهم أكثر من التوراة .

---

(١) الإرشاد : ٢/٣٧٠.

(٢) گنجينه تلمود (بالفارسية) : ٣٥٧ (يروشلمى تغيث).

(٣) المصدر المتقدّم : ٣٥٨ (حزقيال : ١٢/٤٧).

(٤) گنجينه تلمود (بالفارسية) : ٣٥٨ (ملاكي ٢/٤ ، ٣/١٩).

(٥) المصدر المتقدّم : ٣٦٠ (عو ودازارا ، ٣ب)

الحرب والسلام

الصراع الإسلامي الإسرائيلي / المسألة اليهودية

من السذاجة بمكان أن نتصور ولو على مستوى الاحتمال الضعيف جداً إمكانية حلّ المشكلة الفلسطينيّة سلمياً ، ذلك أن الكيان الصهيوني الذي نهض على جماجم أطفال فلسطين لا يعرف غير منطق القوة ولغة الرصاص ، وأن التناقض من الحدّة بحيث لا يمكن استبعاد انفجار الوضع بشكل حرب ضارية وأن المعركة الفاصلة قادمة لا محالة .

وهذا ما يجعلنا نعتقد أن المسألة الفلسطينية ليست محنة عربية ولا حتىٰ إسلامية فحسب ، بل إنّها قضية مصيرية تهدد سلام العالم واستقراره .

إنّ عالمنا اليوم يعيش هاجس العدالة والسلام ، ومن المؤكد أيضاً وجود قوىٰ خيرة في كل العالم تطمح إلى أرض يغمرها النور والدفء والسلام .

ومن المؤكد أيضاً وجود قوى شرّيرة تريد الاستيلاء على العالم وتسخيره إذا لم نقل تدميره ، وفي مقدمة قوى الشرّ الحركة الصهيونية التي تسيطر اليوم بقوة على مقدرات دولة عظمىٰ هي الولايات المتحدة الأمريكيّة .

فالعلاقات الأمريكيّة الإسرائيليّة هي أوسع من تحالف سياسي وعسكري ، بل إنّ هناك من التوحد في النسيج الشيطاني ما يعزز القول إنّ أمريكا مستعمرة ذليلة تابعة لإسرائيل والحركة الصهيونية .

فالفلسطينيون الذين اكتووا بنار الصهيونية هم أوعىٰ شعوب الأرض بحقيقة أمريكا :

إنها امبراطورية نمت فوق مزبلة ليس فيها ما يشرّف البشريّة ، وما زالت تتآمر

حتّى الآن وتتفنن بتصدير العذابات إلى شعوب العالم .

وليس بدعاً أن يرىٰ جيفارا ذلك الثائر الباسل أنّ رسالته الإنسانيّة في الحياة هي محاربة الولايات المتحدة الأمريكيّة عدوة الجنس البشري .

وبلغ الإمام الخميني الراحل الذروة في إيمانه العميق والراسخ حول طبيعة النسيج الأمريكي الإسرائيلي ، يقول ﷺ : « على المسلمين أن يعلموا جيداً أن العدوّ للإسلام والقرآن والنبيّ الكريم هي القوى الكبرى لا سيّما أمريكا ووليدتها الفاسدة إسرائيل »[١] .

« ليعلم إخوتنا أن أمريكا وإسرائيل تعاديان أساس الإسلام ، لأنهما تريان أنّ الإسلام والكتاب والسنّة شوكة في طريقهما وعقبة دون نهبهما »[٢] .

ويقول ﷺ : « إنّ أميركا دولة إرهابية بطبيعتها ، وهي الدولة التي أشعلت النيران في أرجاء العالم كلّه ، وحليفتها الصهيونية العالمية هي التي ترتكب من أجل بلوغ مطامعها جرائم تخجل حتى الأقلام عن تسطيرها ، والألسن عن النطق بها ، وإنّ الأوهام التي يسعون لتحقيقها وهي « إسرائيل الكبرى » تجرّهم إلى ارتكاب كل جريمة »[٣] .

الشخصية الصهيونية

لعلّ أوضح وأعمق ما كتب عن الصهيونية قد جاء في المادّة **٢٢** من الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يقول :

« إنّ الصهيونيّة حركة سياسية مرتبطة عضوياً بالامبريالية العالمية ، ومعادية لكلّ الحركات التحررية والتقدمية في العالم ، وهذه الحركة ذات تركيبة عنصرية متعصبة

---

(١) و (٢) صحيفة نور : ٤٦/١٩ .

(٣) المصدر المتقدّم : ١٧٢/٢١ من وصيته ﷺ التي قرئت في مجلس الشورى سنة ١٩٨٩ .

وأهداف عدوانيّة وتوسعية واستعمارية وأساليب فاشية ونازية .

إن إسرائيل يد الحركة الصهيونيّة وذراعها ، وقاعدة بشرية وجغرافية للامبرياليّة العالميَّة ، ومحل تمركز وانطلاق لها في قلب الوطن العربي ، يستهدف القضاء على تطلعات الأُمّة العربية في الحرية والوحدة والتقدم .

إنّ إسرائيل مصدر دائم لتهديد السلام في الشرق الأوسط والعالم برمّته ، ولماكان تحرير فلسطين ينهي الوجود الصهيونيّ والامبرياليّ ، ويساهم في إحلال السلام في الشرق الأوسط ، لذا فإنّ الشعب الفلسطيني يتوقَّع من كل قوى التقدم والسلام ويطلب إليها أن تقدّم ـ دون النظر إلى القومية والمعتقدات ـ كلّ أنواع العون والاسناد للكفاح العادل الذي يخوضه هذا الشعب من أجل تحرير وطنه » .

يكفي أن نعرف أن إسرائيل بدأت نشاطها الذري بعيد الاعلان عن قيامها ، وبدأت عزمها في إنتاج القنبلة الذرّيّة ، وها هي الآن تمتلك أكثر من ٣٠٠ رأس نووي موجهة إلى نقاط محددة .

إنّ الوهم الصهيوني بإقامة إسرائيل الكبرى من « دلتا النيل إلى نهر الفرات » يوجه الخطط الإسرائيليّة ، كما أنّ انتخاب شارون لرئاسة الحكومة يكشف عن المخزون الدموي الفظيع لهذه الحركة الهدّامة .

واليهودي التلمودي يعيش عقدة التفوق ، ويرى نفسه وحده الجدير بالحياة في الأرض ، ويبرر التلمود هذه الأفضلية بقوله : إنّ الله تجوّل في كل القرى وعرض على الشعوب التوراة فرفضتها إلّا قوم إسرائيل[(١)] .

والتلمود يردّد أكثر من مرّة هذه المقولة : «كما أنّ العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء ، فإنّه لا يمكن أن يعيش بدون إسرائيل »[(٢)] .

---

(١) التلمود بميدبار رب ٤/١٠ ـ ٢٢.

(٢) الشخصيّة الإسرائيليّة / حسن ظاظا ـ عالم الفكر : ١٣ ، عن التلمود البابلي عبود زاده : ١٠.

وهذا يتضمن نزعة عنصرية موغلة وعقدة لا يمكن الخلاص منها .

فهم أبناء الله وهم شعب الله المختار ، فهم « عام عولام » أو الشعب الأزلي ، و« عام نيصح » أو الشعب الأبدي .

وفي تعبيراتهم الشعرية يرون أنّ الربّ قد اتّخذ أُمتهم عشيقة له ، بل إنّه تزوجها زواجاً أبدياً ، حتى انّها إذا خانته ودنست شرف العلاقة التي بينها وبينه لم يطلقها كما يفعل أحقر مخلوق من البشر ، ولكنه يكتفي بأن يغضب ثمّ يرضى ، وأن يعاقب ثمّ يصفح . فهي الأُمّة الحبيبة المعشوقة المدلّلة ، التي تعلم مقدماً أن الربّ لن يجرؤ يوماً ما على قتلها مهما أجرمت .

ويصف نبي اليهود هوشع هذا الموقف بقوله على لسان الرب : « سأكشف الآن عورتها على مرأى من عشاقها ، ولن ينقذها أحد من يدي . فأبطل كل أفراحها وأعيادها وغرر شهورها وسبوتها وكل حفلاتها ، وأدمر كرمها وتينها ؛ إذ قالت هو أجري جعله لي عشاقي ، فأصيّر ذلك أجمة يأكلها وحش الصحراء ، وأحاسبها على أيّام الأصنام التي بخرت لها ، وتزيّنت بأقراطها وحليها وانطلقت وراء عشاقها ونسيتني ، يقول الرب . ثمّ إنّني أتملقها وآتي بها إلى البرية ، وأخاطب قلبها ، وأعطيها كرومها من هناك ، مع وادي عكور ، بابا للامل . فتغني هناك كما في أيام صباها ، وفي يوم صعودها من أرض مصر » . (هوشع ٢ : ١٠ ـ ١٥) . وتكثر في مثل هذا المعنى أقوال الأنبياء والكهنة والشعراء والحالمين والصوفية على مدى أجيال إسرائيل .

ومن هنا لا يتردّد اليهود في تسمية أنفسهم « شعب الله المختار » . ويفسّرون هذا الاختيار الإلهي بأنه تفضيل للأقوى والأصلح ، ويردّونه إلى ليلة المصارعة العجيبة التي أدى فيها جدهم يعقوب ـ إسرائيل ـ امتحان القوة والصبر على المكاره بنجاح باهر ، ويرون أنّ هذا الاختيار قد تختفي دلائله عندما يضعف اليهود ويذلّون ،

ولكنهم يعودون إلى الجبروت والسطوة من جديد » ، لأن الرب سيرحم يعقوب ، ويعود فيصطفي إسرائيل ، ويريحهم في أرضهم ، وينضم الغريب إليهم ، ويتصل ببيت يعقوب . وتأخذهم الشعوب وتحضرهم إلى مكانهم فيمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وجواري ، فيأسرون الذين أسروهم ، ويستولون على من سخروهم » . (اشعيا ١٤ : ١ ، ٢) .

وواضح من مثل تلك النصوص أن اعتقاد اليهود في اختيار الرب لهم ليس مجرد مفخرة يتشدقون بها ، بل هو برنامج ؛ فبهم يعاقب الله الأُمم الأُخرى ، وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان ، متسلّطين على رقاب العالم ، وهم باختصار الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل ، مسرح التاريخ ، والأمم الأُخرى ليست إلّا أشخاصاً ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها ، على نحو تظل فيه البطولة لإسرائيل . ومن هنا تبرز خطورة النفسية الإسرائيليّة على أُمم العالم ، ويتّضح مدى احتياجها لعلاج ناجع ـ لا بد أن يكون مرّاً ـ حتى تصحو من غرورها لتندمج في أُمم العالم .

والداء الذي نشير إليه مزمن عند القوم . ففي مصطلحاتهم نجدهم يسمّون أنفسهم أيضاً « الشعب الأزلي ـ بالعبرية : عام عولام ـ كما يسمّون أنفسهم « الشعب الأبدي » بالعبرية : عام نيصح ـ وهكذا تطاولوا على الرب ـ ولو مجازاً ـ فتخيلوا أنّهم يشاركونه في أزليته وأبديته ، وأنّهم مثله لا أوّل لهم ولا آخر ، ولا بداية ولا نهاية . وهو قول كبير ، أحسّ بعض مفكّريهم بفداحته ، ففسّروه على أنهم من أقدم شعوب العالم ، وهو المقصود بالأزلية ، ومن أدوم شعوب العالم ، وهو المقصود بالأبدية .

وهي دعوى خرافية حتى بعد هذا التخفيف الشديد ، فاليهود كما يعلم الجميع ليسوا أقدم من الفراعنة ، ولا من سومر وبابل وآشور ، ولا من الهنود أو الصينيين ، ولا من العرب . وهم أيضا ليسوا أطول دواماً من كثير من تلك الأُمم . وهم وراء ذلك

كله: أمة لا حضارة لها[١].

ويطول بناء الحديث لو أننا أردنا تتبع كل آثار هذا الأدب الفنائي عند اليهود. فأكثر سفر النبيّ حزقيال من قبيل هذه الرؤى النهائية الحتميّة، تشبّ فيها حروب، تبدأ بتطهير المجتمع اليهودي نفسه من الدنس الذي كان قد غرق فيه إلى الأذقان. وهو تطهير يتم بالحرب والحصار والموت. يسلّط فيه الله غضبه على أُورشليم وساكنيها «ثلث يموت بالوباء وبالجوع يهلكون في وسط المدينة، وثلث يسقط بالسيف من حولهم، وثلث يذريه الرب في كل ريح، ويرفع من ورائهم سيفاً مسلولاً» - (انظر حزقيال، الإصحاح الخمس). وبعد هذا التطهير يكون الشعب المختار - أو من بقي منه - قد أصبح جديراً بخوض المعركة النهائية التي ينتصر فيها على العالم ويخضعه لإرادته[٢].

ويكمن الخطر في تلك الأوهام التي تتخذ شكل النبوءات وقد عشنا جميعاً دوي الكتاب الذي ترجمه محمّد خليفة التونسي «برتوكولات حكماء صهيون» والذي كشف عن وجود حكومة سرّية. هدفها السيطرة على العالم وتسخيره للأطماع والأوهام اليهودية المريضة وما تنطوي عليه من خطط تفوح برائحة الدم.

«من ذا، وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتنا الآن. إنّ المحفل الماسوني المنتشر في كل أنحاء العالم لا يعمل في غفلة كقناع لأغراضنا. ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة في خطة عملنا، وفي مركز قيادتنا، ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيراً.

يمكن ألّا يكون للحرية ضرر، وأن تقوم في الحكومات والبلدان من غير أن تكون ضارّة بسعادة الناس، لو أنّ الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله، وعلى الاخوة والإنسانيّة، نقية من أفكار المساواة التي هي مناقضة مباشرة لقوانين الخلق،

---

(١) و (٢) مجلة عالم الفكر المجلّد ١٠، العدد ٤، ١٩٨٠ - الشخصية الإسرائيليّة: ٢٥ و ٢٦.

والتـي فـرضت التسـليم . إنّ النـاس ـ مـحكومين بـمثل هـذا الإيـمان ـ سـيكونون مـوضوعين تـحت حـماية كـنائسهم (هـيئاتهم الديـنية) ، وسـيعيشون فـي هـدوء واطمئنان وثقة ، تحت إرشاد أئـمّتهم الروحـيّين ، وسـيخضعون لمشـيئة الله عـلى الأرض . وهذا هو السبب الذي يحتّم عـلينا أن نـنتزع فكـرة الله ذاتـها مـن عـقول المسيحيين ، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورية مادية . ثـمّ لكـي نـحول عقول المسيحيين عن سياستنا ، سيكون حتماً علينا أن نبقيهم منهمكين في الصناعة والتجارة ، وهكذا ستنصرف كل الأُمم إلى مصالحها ، ولن تفطن ، في هذا الصـراع العـالمي ، إلى عـدوّها المشـترك . ولكـن لكـي تـزلزل الحـرية حـياة « الجـوييم » الاجتماعية زلزالاً ، وتدمّرها تدميراً ، يـجب عـلينا أن نـضع التـجارة عـلى أسـاس المضاربة . وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة الاستثمار ، لن تستقر في أيدي الأمميين (غير اليهود) ، بل ستعبر خلال المضاربات إلى خزائننا .

إنّ الصراع من أجل التفوق ، والمضاربة في عالم الأعمال ، سـيخلقان مـجتمعاً أنانياً ، غليظ القلب ، منحل الأخلاق . هذا المجتمع سيصير منحلاً كلّ الانحلال ، ومبغضاً أيضاً للدين والسياسة ، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد ، وسيكافح هذا المجتمع من أجل الذهب ، متخذاً اللذات المادية التي يستطيع أن يمدّه بـها الذهب ، مذهباً أصيلاً . وحينئذ ستنضم إلينا الطبقات الوضيعة ، ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين ، دون احتجاج بدافع نبيل ، ولا رغبة في الثورات أيضاً ، بل تنفيساً عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا .

بهذا ينتهي البروتوكول الرابع الذي يصف فنّ اليهود في انتهاز كلّ الفرص : الحرية والاسـتبداد ، السـلم والحـرب ، المـادّية والروحـية ، التـقوى والالحـاد ، الأغـنياء والفقراء . كل ذلك يستغلّونه لمصلحتهم هم بوصفهم شعب الله المختار ، وبـفضل حكومة سرّية في أيام الشتات ، قد لا تكون دائماً الماسونية ، أو قد تكون بجانبها قوى رهيبة ظاهرة أو باطنة مثل القهيلة ، أو السنهدرين ، أو الرأسـمالية اليـهودية ،

أو الشيوعية اليهودية أيضاً ، أو دولة الصحافة والاعلام والملاهي ـ وبخاصة السينما ـ وكذلك الكتب التي تمجها المطابع بغزارة ، لا للتثقيف ولكن لقتل الوقت والهاب النفوس بانفعالات مدمرة : جنسية وخرافية واجراميّة ، وما إلى ذلك[١] .

العدوان

إنّ الحقد هو الابن الشرعي للشعور بالاضطهاد ، فالأحقاد الصهيونية تجاه العالم نابعة من هذا الشعور مع أنّ الاضطهاد في الواقع كان نتيجة طبيعية لتلك الأحقاد الهائلة التي يكنّها اليهود للعالم ، إنّك تراهم لا يندمجون مع المجتمع الإنساني أينما كان وفي أية دولة ، ولا يمارسون عملاً زراعياً مفيداً ، بل ينصرفون إلى إدارة أعمال الصيرفة والربا الفاحش لتدمير اقتصاد البلدان التي يعيشون فيها والسيطرة عليها .

وبعد قيام إسرائيل ظهرت الشخصية الإسرائيلية على حقيقتها ، وكشفت عن كائن تلمودي مريض ، فلا نعجب أن نرى على شاشات التلفاز ذلك المشهد الفظيع في قيام مجموعة جنود إسرائيليّين بالانقضاض على فتى فلسطيني وقتله بطريقة مؤسفة وأليمة فيما كانت عدسة صحافي تلتقط تفاصيل هذا المشهد الأليم عن بعد !

وقد أوردت دراسة « أدب الحرب بين العهد القديم والقرآن الكريم » التي تقدّم بها الباحث وجيه محمّد عوض[٢] لنيل الدكتوراه حقائق مذهلة عن طبيعة النفسية التلمودية .

وتنقل الدراسة عن التلمود أيضاً أنّ « الشفقة والرحمة ممنوعة بالنسبة لغير اليهود ؛ لأن اليهودي إذا رأى أحداً واقعاً في نهر أو مهدداً بخطر فيحرم عليه أن ينقذه

---

(١) مجلة عالم الفكر المجلّد ١٠ ، العدد ٤ ، ١٩٨٠ ـ الشخصية الإسرائيليّة : ٥٨ .

(٢) الدعوة صوت الحق والقوة والحرية ـ العدد ١١١ / ربيع الأوّل ١٤٢٢ ـ يونيو ٢٠٠١ ـ عرض وتقديم خالد الأصور : ٣٥ ـ ٣٧ .

منه ؛ لأن الشعوب السبعة الذين كانوا في أرض كنعان ، والمراد قتلهم من اليهود لم يقتلوا عن آخرهم ، بل هرب بعضهم واختلط بباقي أُمم الأرض ، وعليه يلزم قتل الأجنبي ومحاربته ؛ لأنه من المحتمل أن يكون من نسل الشعوب السبعة ، وعلى اليهودي أن يقتل من تمكّن من قتله ، وإذا لم يقتله يخالف الشرع ؛ لأنه جاء في الكتب : كيف لا أبغض يا إلهي من يبغضك ؟ » .

جذور الارهاب

وتشير الدراسة إلى أن محاربة وقتل « الأجنبي » ـ أي غير اليهودي ـ عند بني إسرائيل تعدّ من الفضائل حتى إنهم يسامحون القاتل في هذه الحالة ، وقد ورد في التلمود كذلك : « أن من يقتل مسيحياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس الأعلى » ، ومن مظاهر الحرب من خلال العهد القديم الزعم بأنّ شمعون ولاوي ابنا يعقوب « أخذ كل واحد منهما سيفه وأتيا إلى المدينة بأمن وقتلا كل ذكر بحد السيف » وتبع ذلك سلب ونهب المدينة (سفر التكوين : **٢٥/٢٤ ـ ٢٩**) .

ويصور سفر الخروج ـ في مواضع مختلفة ـ أعمال الرب تجاه الأُمم الأُخرى فهو يقتل كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم (التكوين : **١٥/١٣**) فهو رجل الحرب (التكوين : **٣/١٥**) ، ويطرد الأُمم الأُخرى دون حلّ وسط من أمثال الكنعانيين الحثيين (التكوين : **٢/٢٣**) تمهيداً لإحلال بني إسرائيل محلّهم .

وترجع الدراسة أُصول وجذور الإرهاب لدى بني إسرائيل وسفك الدماء إلى ما ورد في سفر العدد من وصف للشعب اليهودي « هو ذا شعب يقوم كلبؤة ، ويرتفع كأسد لا ينام حتى يأكل فريسة ، ويشرب دم قتلى » (**٢٤/٢٢**) ،كما يصوّر سفر التثنية الإرهاب الفظيع للغاية لدى اليهود ، فهو موجّه لا للإنسانية فحسب ، بل لكل ما هو على وجه الأرض : « إلهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض » (**٢٥/١١**) .

وتلفت إلى ما تميزت به حروب اليهود من أعمال عنف وإرهاب بشعة بقسوتها

ووحشيتها في تاريخ البشريّة جمعاء في مختلف العهود، منذ النصف الأوّل من القرن الثاني قبل الميلاد مع الاستعانة بما أورده المؤرخ اليهودي الشهير «فلافيوس يوسفوس» وهو أقدم مؤرخ يهودي عاش في القرن الميلادي الأوّل.

وترصد الدراسة طبيعة الحرب في عقيدة بني إسرائيل ـ قديماً وحديثاً ـ فالحرب عندهم عمل مقدّس وقائد هذه الحرب في زعمهم هو «ربّ إسرائيل» فهو «رجل حرب» و«ربّ الجنود» في حين آخر، و«إله سلام» فكيف يتمّ التوفيق بين هذه المتناقضات!

وعلى عكس منهج اليهود في الحرب ـ استناداً إلى العهد القديم المحرف ـ والذي يقوم على القسوة والهمجية والظلم أوردت الدراسة منهج الحرب في القرآن ـ وعماده العدل والرحمة ـ موضحة مفهوم الحرب وحكمة مشروعيتها وأنواعها وفرضية الحرب، وتدرج التشريع في الحرب وشروط المحارب في الإسلام في دراسة مقارنة بما جاء في العهد القديم.

كما ألقت الدراسة الضوء على تعريف الغنيمة وبيان دليل مشروعيتها، وكيفية تقسيم الغنيمة، وحكم أربعة أخماس الغنيمة وتقسيمها، وأحكام معاملة الأسرى من حيث حكم قتل الأسرى وحكم استرقاقهم والمنّ والفداء، وبيان المدى البعيد للشريعة الراحمة للإسلام حتى في المعارك الحربية، وذلك على عكس الطبيعة العدوانية لبني إسرائيل من خلال العهد القديم واستخدامهم لأبشع وأفظع الوسائل الوحشية من العنف والإرهاب المتأصل في دمائهم منذ أن وجدوا على مسرح التاريخ وحقدهم المتجذر دينياً وتاريخياً على الفلسطينيين بصفة خاصة، وبقية الشعوب الأُخرى بوجه عام عن طريق الاحتلال والتوسّع والسيطرة والاستيطان، أو سياسة الاعتماد على الغير ـ اليونان والرومان قديماً وبريطانياً وأمريكا حديثاً ـ والحرب الجماعية أو الأُمّة المسلّحة، مع تحقيق الأفكار التي يحتويها العهد القديم، وبيان الحقائق التي يكشفها القرآن الكريم على ضوء مصداقيته الحقّة تجاه ما يتصل

بهذا الموضوع من مصادر يهودية وخاصة التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون ، وتكوين فكرة شاملة عميقة عن تأثير التعاليم الدينية اليهودية التوراتية والتلمودية في تكوين العقيدة العسكرية الصهيونية .

وإذا كانت الدراسة قد أثبتت الجذور « النظرية » للإرهاب الصهيوني من خلال نصوص التوراة ـ المحرفة ـ والتلمود ، فإنّ الممارسة « العملية » لليهود على مرّ التاريخ وخاصة في العصر الحديث تنسجم مع معتقداتهم وتصوراتهم الشائعة ، حيث يعتبر العنف والارهاب ركيزة من أهم ركائز الفكر الصهيوني وأحد مقومات الأيديولوجية الصهيونية ، فمنذ أن بدأت أفواج المهاجرين اليهود بالزحف إلى فلسطين بدأ الصهاينة في ممارسة الإرهاب بشكل منظم ومدروس ، فمارسوا القتل والتدمير ضدّ الشعب الفلسطيني لطرده من دياره وإحلال المهاجرين اليهود مكانه .

وقد مارس اليهود الارهاب من خلال منظمات إرهابية مثل : « الهاجانا شتيرن ، والأرغون » ، وغيرها ثمّ مارس الصهاينة بعد قيام « الكيان الصهيوني » كدولة من خلال أجهزة مخابرات الصهيونية المختلفة مثل : « الموساد ، والشين بيت » ، وغيرها بالإضافة إلى عمل المنظمات الصهيونية المتطرفة ، والمستوطنين ، فالصهاينة يجدون في جميع صنوف الإرهاب عملاً مشروعاً ـ استناداً إلى كتبهم ـ لتحقيق أهدافهم ، في حين يعتبرون مقاومة الشعب الفلسطيني لهم والتي أقرتها كل الشرائع والمواثيق الدولية « إرهاباً » يجب محاربته والقضاء عليه .

وبعد قيام الكيان الصهيوني عام **١٩٤٨** أصبح الإرهاب والقتل الجماعي « حرفة يهودية » يقوم بها عبدة « العجل » وقتلة الأنبياء ، فتم تنظيم هدم المنازل وتدمير القرى ، وتشريد السكان ، ومصادرة أراضيهم لإقامة المستوطنات الجديدة لليهود القادمين ، وأصبح هذا سياسة عامة للحكومة والجيش الصهيوني الذي ضمّ جميع العصابات الصهيونية الإجرامية التي ارتكبت أعمال القتل والتدمير والنهب قبل قيام الكيان الصهيوني وتحت حماية قوات الانتداب البريطاني .

وقد ارتكب الصهاينة خلال الحقبة ما بين **١٩٤٨ ـ ١٩٦٧** عدداً كبيراً من الأعمال الإرهابية زاد عددها ـ في هذه الفترة فقط ـ عن **٢١** ألف حادثة إرهابية حسب سجلات الأُمم المتحدة ، أي بمعدل أكثر من ألف حادثة سنوياً أي نحو ثلاث حوادث يومياً .

ومن أخطر الأعمال الارهابية التي ارتكبها الصهاينة سواء أيام الانتداب البريطاني أو بعد قيام الدولة الصهيونية في فلسطين هي المجازر والمذابح الجماعية ضدّ المدنيّين العزل لبث الرعب والخوف في نفوس السكان لإجبارهم على ترك أوطانهم .

ويلاحظ أن هذا الأسلوب لم يتغير منذ ارتكاب أول مجزرة كبيرة في دير ياسين في **١٩٤٨/٤/٦** تلك البلدة الواقعة على مشارف « القدس الشريف » ، والتي راح ضحيتها **٢٥٤** فلسطينياً معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ ، مروراً بمذبحة « صبرا وشاتيلا » في المخيمات الفلسطينية بجنوب لبنان حيث تم إطلاق نيران المدافع الرشاشة الثقيلة والقذائف والقنابل ، وجرى قصف مئات المنازل واستمرت المجزرة على مدى أربعين ساعة متواصلة .

وقدر عدد الضحايا الذين سقطوا في أيام **١٦** و**١٧** و**١٨** من « ايلول » عام **١٩٨٢**م بأكثر من **٢٠٠٠** ضحية ، انتهاءاً ـ وليس نهاية ـ بمذبحة الحرم الإبراهيمي عام **١٩٩٤** حيث استشهد أكثر من **٦٠** مصلياً في ساحة المسجد ، ومذبحة « قانا » بجنوب لبنان في نيسان / أبريل أيضاً عام **١٩٩٦** .

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ السلسلة المتواصلة للمذابح الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني الصابر في انتفاضته المباركة الحالية والتي راح ضحيتها أكثر من **٤٠٠** شهيد ـ وما زالت قوافل الشهداء تترى ـ وعشرة آلاف مصاب ومعوق باستخدام قذائف المدفعية والدبابات والطائرات ، كل هذا ضد المدنيين العزّل ، وصدق الله

تعالى إذا يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ (١) .

هذه هي إسرائيل التي ظهرت ككائن تلمودي مخيف مثقل بعقد نفسية تجعله مسخاً (٢) منسلخاً عن الطبيعة الإنسانيّة وقيمها الأخلاقية النبيلة .

آفاق الحل !

والسؤال هنا هل ثمّة حلّ أو علاج لهذه الظاهرة المرضية ؟

يرى الأُستاذ حسن ظاظا الكيان السياسي في إسرائيل التي جاءت كحلّ استعماري للحركة الصهيونية حالة مرضية إجرامية تمثل نتيجة لسلسلة من الاصابات العميقة ، وتحمل اضطرابات في الشخصية سببها وراثة ثقيلة من أمراض الأسلاف ، ثمّ حالة من الصحة النفسية والاجتماعية تأبى الانخراط في الحياة العادية للمجتمع الإنساني .

وفي جميع التشريعات نجد القضاة يضعون موضع الاعتبار كون التصرّفات الإجرامية صادرة عن شخصيات مريضة ، ويعتبرون ذلك ظرفاً مخففاً ، بحيث يكون حكمهم في النهاية وافياً بغرضين : الحدّ من الجريمة ، والعلاج من المرض .

وفي رأينا أنّ الشخصية الإسرائيليّة من هذا النوع . وقد استفحل مرضها ، حتى وصل في بعض الأحيان إلى الجنون المطبق ، بسبب أفواج المتطرفين والحمقى ، والمصابين بالهستريا والهلوسة ، وجنون العظمة ، وأحلام اليقظة ، وأزمات الاكتئاب واليأس والبكاء ، تولّوا مقاليد هذه الجماعة ومقدراتها قديماً وحديثاً ، فكانت نتيجة كل ذلك ، الصهيونية .

فالصهيونية فكراً وسلوكاً وتطبيقاً موبوءة بالتعصب العنصري والتعصب الديني ،

---

(١) المائدة: ١٣.

(٢) ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ البقرة : ٦٥.

وعقد الشعور بالاضطهاد ، والفزع من اللاسامية ، كما أنّها مصابة بأورام انتقلت عدواها إليهم من طغاة كثيرين فتكوا بالإسرائيليّين ، وتفنّنوا في التنكيل بهم ، وكان من أواخر ذلك البوجروم واللاسامية الهتلرية . فراح الغلاة من الصهاينة يقلدون أُولئك السفّاحين .

والعلاج من هذه المجموعة من الأمراض ـ ماكان منها وراثياً ، وما أخذ بالعدوىٰ ، وما تحوصل في ثنايا الشخصية الإسرائيليّة في الظروف التي شاء اليهود أن يعيشوا فيها ، أو التي أُجبروا عليها ـ لا بد أن يكون طويلاً يحتاج إلى صدق نية منهم في الشفاء ، وإلى نظرة إنسانيّة شاملة من جميع النفوس المحبة للخير . وهي تجربة ليست بالسهلة . فمن السمات المميزة للشخصية الإسرائيليّة ، العناد ، والاسراع إلى الارتداد عن طريق الخير . وصفهم ربّهم في التوراة بأنهم شعب صلب الرقبة ، ابعد الناس عن الطاعة وعن لين الجانب (الخروج ٣٢ : ٩ و٣٣ : ٣ ، ٥ و٣٤ : ٩ التثنية ٩ : ٦ ، ١٣) ، كما أكثر أنبياؤهم الشكوى من كفرهم وعنادهم وقسوتهم ، ويكفي في ذلك أن نسوق سطوراً من كلمة طويلة للنبي ارميا يقول فيها : « مثل خزي اللصّ إذا وقع ، هكذا خزي آل إسرائيل ، هم وملؤهم ورؤساؤهم وكهنتهم وأنبياؤهم ، إذ يقولون للخشب أنت أبي ، وللحجر أنت والدي ، لأنّهم أداروا نحوي قفاهم لا وجههم ، وفي وقت مصيبتهم يقولون قم وخلّصنا . فأين آلهتك التي صنعت لنفسك ؟ فليقوموا إن استطاعوا أن يخلّصوك في وقت بليتك ، لأنه قد صارت آلهتك بعدد مدنك ، يا يهوذا . لماذا تخاصمونني ؟ كلّكم عصيتموني ، يقول الربّ : ضربت أبناءكم بلا فائدة ، إذ لم يقبلوا تأديباً . سيفكم أكل أنبياءكم كأسد مفترس » (ارميا ٢ : ٢٦ ـ ٣٠) .

وقد حاول مفكرون من عظماء اليهود على مرّ الأجيال أن يعالجوا الأُمة المريضة من دائها القديم فلم ينجحوا . كان كلام بعضهم يفسر على غير ما أُريد به ، إمّا لكي يتجه بتفسيره المفتعل نحو أهدافهم ومآربهم ، كما صنعوا بفكر الطبيب موسى بن

ميمون ، وإمّا للتشنيع والتجريح والافتراء على روّاد الاصلاح من إخوانهم ،كما فعلوا بصاحبهم موسى مندلسون ،أحد الانسانيين الكبار في القرن الثامن عشر . فقد ذهب هذا المصلح اليهودي إلى أنّ مشكلة اليهود الحقيقية تكمن في أن شخصيتهم قد تبلورت وراء أسوار الجيتو ، وأن فكرهم نفسه قد أُقيمت من حوله حواجز أقوى من أسرار الجيتو ، صنعوها هم بأنفسهم وتحصّنوا في داخلها ، وتعودوا على ظلامها الدامس .

ورأى أن الخروج من هذا الحبس الاجتماعي والفكري لا يكون إلّا باعتبار اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقاً ونمطاً في المعيشة ، لا دخل فيها للعنصرية ولا للكبرياء النابعة من الخرافات .

هو الذي رفع في قومه الشعار المشهور: «كن يهودياً في بيتك ، ومواطناً مخلصاً في الطريق » . وكان حلّه هذا في حقيقة الأمر متّسقاً مع اتّجاه العالم نحو الحرية ، فقد قامت الثورة الفرنسية ، التي أعلنت فيها حقوق الإنسان بعد موت مندلسون بثلاث سنوات فقط . فما كان جزاؤه من قومه عن هذا الجهد المضني ؟ الكذب والإفك المفترى الذي يخدش الرجل في علمه وعقله وكرامته وعرضه وأُسرته . انبرت له الأقلام اليهودية المسمومة بالتعصّب ، فلم تترك جانباً من جوانب حياته إلّا لوّثته . وتعقب المعاندون من رجال الدين الإسرائيلي كتبه فجمعوها وأحرقوها ، وحرموا على قومهم قراءتها إن ُعيد طبعها ، وجعلوا هذا التحريم مؤبداً إلى يوم القيامة ، لأنهم وصفوا الرجل بالزندقة أيضاً .

وقبل مندلسون ظهر في هولندا الفيلسوف اليهودي المتحرّر باروخ سبينوزا ، في القرن السابع عشر ، وكان هو أيضاً يعتقد أنّ نهاية الشقاء اليهودي ، شقاء اليهود وشقاء العالم باليهود ، تكمن في إيمان هؤلاء الناس بالدين فقط ، وتخلّصهم من النعرة القومية الأُسطورية التي تفسد ما بينهم وبين الإنسانيّة كلها . وكان يرى أن الشخصية الإسرائيليّة يمكن أن تحافظ على فضائلها لو أنّها لزمت شرائع الدين ، دون

أن تفكر في الاتجاه نحو أرض معينة مثل فلسطين بحجّة أنّها أرض الآباء والأجداد. ففي يقينه أنّ الله لا يشترط لعبادته مكاناً جغرافيّاً معيّناً، وأنّه يقبل الصلاة ويسمع الدعاء من أيّ مكان على ظهر الأرض. وكان يوضح منطقه هذا بقوله إنّه هولندي يؤمن بشريعة موسى، والمعبد اليهودي في امستردام هو بالنسبة له كهيكل سليمان في أُورشليم بالنسبة لسليمان. ولم يكن الحلّ يقتصر على تعليم اليهود وحدهم، بل كان يشجع كل من قصده ليتلقّى عنه العلم، لأنه لم يكن من ضيق الأُفق بحيث يحصر نفسه في نطاق التلمود والمدراش. كان مفكّراً وفيلسوفاً يؤمن بوحدة الوجود: فالله سرّ كبير يسري في الخليقة كلّها. وهكذا يستحيل أن يكون له «شعب مختار» دون سائر الشعوب.

فماذا كان جزاء هذا المصلح اليهودي من قومه؟ أعلنت السلطات الدينية الإسرائيليّة طرده من الدين، وألصقت به من التهم ما أمدّهم به خيالهم الخصب. ولم يحاول الرجل أن يتصدى لهذه الغوغائية في الفكر، وانصرف إلى العلم، وإلى عمله الذي يكتسب منه رزقه، وهو صناعة العدسات البلورية. وإذا بالقهل يحاول إرهابه، ثمّ يحاول قتله، لولا أن تداركه بعض المعجبين به من تلاميذه ومحبيه، فنصحوه بأن يترك امستردام، ليعيش في بعض الأرياف القريبة منها، حتى يتمكّن هو وأصدقاؤه من تمييز الارهابيين والسفاحين والقتلة لو أنّ بعضهم حدثته نفسه بالمجيء إليه في المكان الذي اعتزل فيه.

ولم نشأ أن نذكر في تلك الزمرة سيّدنا المسيح عليه السلام، لأنّ دعوته كانت من نوع آخر، ليست اجتهاداً عقلياً فلسفياً، ولكنها وحي من السماء. لقد تعب المسيح مع اليهود. حاول في أوّل الأمر أن يجعل دعوته بينهم هم وحدهم، فأخذهم العناد، وتصلّبت أعناقهم، وكابروا وتآمروا، وطالبوا بقتله. فلمّا رآى ذلك منهم حطّم أُسطورة العنصر، وجعل الشريعة للناس كافة. ويرمز الإنجيل إلى هذا الانتقال بقصته مع امرأة من غير بني إسرائيل، يصفها القديس متى بأنها كنعانية، ويزيد القديس

مرقس ذلك تحديداً فيقول إنّها كانت من الجوييم « أمـمية ، وفـي جـنسها فـينيقية سورية » ، (انجيل مرقص ٧: ٢٦). وقد بدأ المسيح كلامه مـعها بـقوله : « إنّـني لم أبعث إلّا للخراف الضالّة من بني إسرائيل » ، (انجيل متى ١٥: ٢٤). ولكن المـرأة ألحّت عليه ، مما تأكد معه أنّه تؤمن ببركته ، وكانت تـطلب مـنه أن يـدعو لابـنتها المريضة حتى تشفى . فشفاها ، وأعلن بعد ذلك أنّه بالايمان وحده ، لا بـالنسب ، يدخل الإنسان في ملكوت السماء .

ومع ذلك بقي اليهود مرضى حتى الآن .

وبعد ، فهل هناك من حلّ ؟ إنّ بداية الحل في استئصال أسباب المرض . وهذه الأسباب تحوصلت في العصر الحديث في الصهيونية ، التي تلعب بالمريض لعب الساحر الدجّال في المجتمعات الجاهلة المتخلفة ، الذي يعد بالشفاء والعافية عن طريق تحضير الجنّ ، وإطلاق البخور ، وتكثيف الظلمات ، وإصدار القعقعة الشديدة التي تصمّ الآذان ، ليشعر المريض شعوراً وهمياً بأن القوى الخفية قد انطلقت لتحل له جميع مشاكله . لقد دأبت الصهيونية على أن توسوس في صدور أُولئك الناس بأوهام الغزو والفتح والانتصار والسيطرة على العالم العربي والوصاية عـلى أرزاقـه ومقدراته »[١] .

ومن هنا يمثل صعود شارون السفاح (بطل) مجازر صبرا وشاتيلا مؤشراً عـلى استفحال المرض وضرورة حصول عملية جراحية عـاجلة لاسـتئصال هـذه الغـدة السرطانية ، وعندها فقط سيعي المريض قوّته الحقيقية وخلاصه من أوهام القدرة وجنون العظمة .

فالحرب القادمة مهما كانت بواعثها وأسبابها المباشرة هي حرب من أجل السلام العادل ومعالجة مريض يستحوذ على أسلحة الدمار الشامل !

---

(١) مجلة عالم الفكر : ٦٠ ـ ٦٢ المجلّد ١٠ ، العدد ٤ / ١٩٨٠ .

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[(١)].

المسيح الدجّال.. نبوءة أُخرى

«إنّ عاد، ضربها الله أوّل الزمان، وآخر الزمان سيأتي يوم الله القادر على كل شيء، لتنهار عاد التي حملت آمال صهيون، ستنهار رغم مشاريع حرب النجوم! ستنهار على أيدي أُناس بسطاء.

وهكذا صنع اليهود الزيت الذي يحترق على خطاهم!!

ولأنه من المعتاد، أن لا يرقص أحد على أنغام الأرغن والآلات الموسيقية التي تعزف في الكنائس[(٢)] وهي تشدو أيّام الشمس التي هي أيّام الآحاد. إلّا أن اليهود يحقّ لهم أن يرقصوا، لأن عالمهم تحصنت طرقاته!! حتى اللصوص عندهم أمسكوا في أيديهم القنابل الذرية!!

إنّ النصارى لا يقرأون في كتابهم المقدس، وإذا قرأوا لا يحقّ لهم أن يسألوا أنفسهم عن معنى الذي قرأوه، لأنّ تفسيره لا يعلمه حتى رسل المسيح، ولأنه كذلك، احتفظت الكنيسة بحقوق التفسير.

إنّ النصارى يطالبون بحق اليهود، ونحن لن نأخذهم إلى كتبنا، بل نقول لهم: اقرأوا ما بين أيديكم، إنّ نصوصكم توصيكم آخر الزمان بالفرار من اليهودية..

[... عندئذ ليهرب الذين في المنطقة اليهودية إلى الجبال، ومن كان على السطح فلا ينزل ليأخذ ما في بيته، ومن كان في الحقل فلا يرجع ليأخذ ثوبه..][(٣)].

---

(١) الإسراء: ٤ ـ ٧.

(٢) مواقف من تاريخ الكنيسة: ٩٧.

(٣) تفسير متى ١٧/١٦/٢٤.

قال المفسرون : [إنّنا أُمرنا أن نتوقع هذا ، فاليهود يجب أن يعاقبوا ، والخراب يجب أن يحل بهم ، بهذا يثبت عدل الله . ولقد خرجت الكلمة من الله وسوف تتم حينها [١] وهذه الحوادث لا بد أن تتم كوسيلة لغاية سامية ، يجب أن يهدم المسكن القديم قبل إقامة الجديد ، يجب إزالة الأشياء المتزعزعة لكي تبقى التي لا تزعزع . .] [٢].

قد يقال : إنّ هذا حدث في الماضي في تدمير ٦٦ ميلادية ، فإذا كان هكذا فمن صاحب المسكن الجديد الذي يجاء بعد هذا التدمير (؟) إن الأسلم هو أن نتوقع سنوياً أنّ هذا سيحدث مستقبلاً ، فإذا كان هذا سيحدث مستقبلاً لليهود ، فكيف يستقيم مع دعوتهم بأن لهم ملكاً آخر الزمان ، ثمّ لننظر إلى هذا النص أيضاً :

[. . . وأجمع كل الأُمم على أورشاليم فتؤخذ المدينة . . .] [٣].

تؤخذ ممن ؟ وتعطى لمن ؟

قال المفسرون : « إنّ اليهود سيخرجون من نار فتأكلهم نار . هذا ما تم مع هذه المدينة المذنبة أُورشليم في كل تاريخها الماضي والحاضر (والمستقبل) ، ففي الماضي جاء نبوخذ نصّر على أُورشليم ، وفي المستقبل ستجتمع عليها كلّ الأُمم للمحاربة . . وتؤخذ المدينة » [٤].

تؤخذ المدينة من اليهود ! ! وتعطى لمن ؟ !

ثمّ لننظر أيضاً ونتدبر هذا النص :

[. . . يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً ، وملكها لا يترك لشعب آخر

---

(١) تفسير متى / متى هنري : ٣٢٢.

(٢) المصدر المتقدّم : ٣٢٣.

(٣) تفسير دانيال : ٢/٤٥.

(٤) تفسير حزقيال / رشاد فكري : ١٢٦.

وتسحق وتفنى كل الممالك وهي تثبت إلى الأبد][(١)].

- ألم تنقرض مملكة اليهود ؟ ألم يسحقوا ؟ أليسوا هم عار الإنسانيّة في الماضي والحاضر والمستقبل باعتراف مفسّري أهل الكتاب ؟ إذن فمن هم أصحاب هذه المملكة ، هل هم النصارى ؟ فإذا كانوا هم فعلى أيّ إنجيل يثبتون ؟ وعلى أيّ قانون إيمان الذي زاد فيه قسطنطين أم السابق عليه ؟

إنّ أصحاب هذه الدولة قوم آخرون !! صحيح أن اليهود الآن يعيشون على أرض اغتصبوها ولنقرأ ما يقوله المفسّرون !!

هذه هي جملة أقوال المفسرين في العقاب الذي ينتظر اليهود آخر الزمان .

[... ومرة أُخرى ستذوق أورشاليم غضب الله وقضاءه في نهاية هذا الدهر (الحاضر)[(٢)] ، والمسيحية في الغرب قد انهارت حتى أن الذين كان أجدادهم في القرون الماضية يشنّون الحرب الصليبية بذريعة حماية القدس باعوا فلسطين لليهود في القرن العشرين[(٣)] ، وهنا يجب أن نوجه كلمة تحذير . فليس هناك فرق بين إسرائيل والنصرانية ففي يوم قادم هو قريب جداً ، سيتعامل الرب بقضائه المخيف ولا سيّما مع المسيحية بالاسم (المسيحية بالاسم هي في نظر المفسرين هي مسيحية العصر)[(٤)]].

إنّه لا يصحّ نحن أبناء المسيح أن نقدّس ما قدّسه شعب اليهود من أساطير وملاحم وتعاويذ[(٥)] ، ويجب أن نعلم أنّ الخراب سيتتابع على اليهود أينما كانوا ،

---

(١) دانيال : ٢/٤٥ .

(٢) تفسير حزقيال / الأُستاذ فكري : ٥٩ .

(٣) العلاقة بين اليهود والمسيحيّة / الأب سركيس : ٥٥ .

(٤) تفسير حزقيال / الأُستاذ فكري : ٦٧ .

(٥) خطر اليهودية / الأب طانيوس منعم : ٣٨ .

كما يشمّ النسر الفريسة(١).

إننا نرى الآن أن اليهود قد تجمعوا في فلسطين وجاءوا من أوروبا الشرقية والغربية إلى أرض آبائهم . . . فيا لهذا الشعب التعس المخدوع . فهم يتصورون أنهم وجدوا ملجأً لهم في آخر الأمر ، يكونون فيه بمأمن من الاضطهاد ، وبمأمن من الخطر .

لا ! !

[إنهم يهيئون أنفسهم على غير علم منهم لمعصرة غضب الله](٢).

تلك هي أقوالهم بالحرف الواحد ! ! وفيهم من يعرف الحقيقة ولكن لم يقلها ! !

نعم لقد جاؤوا من أوروبا إلى هذه الديار متصورين أنهم وجدوا ملجأ لهم ! ولكن ! !

إنّ حساب الناس في الدنيا أو الآخرة ليس من شأن العبيد ، إنما هو من شأن الله ، وإنه لممّا يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستبدّ الفاسد ، أو الملحد الكافر ، ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله . ولكن الناس يستعجلون ! ! إنهم يرون أول الطريق أو وسطه . .

ولا يرون نهاية الطريق ، ونهاية الطريق لاترى إلّا بعد أن تجيء(٣).

الارهاب السلفي وانبعاث الإسلام الأموي

من الضروري بمكان الإشارة إلى ما ظهر في الحياة الاجتماعية والنفسية لمسلمي اليوم من وجود تيارات دينية طائفية فوجئ العالم بعنفها وشراستها ووحشيتها واستهدفت بشكل رئيس طائفة بعينها فمارست ضدّها أفظع أنواع الارهاب والقتل

---

(١) تفسير متى / هنري : ٣٤٠.

(٢) تفسير دانيال / هـ. أ. ايرانسايد : ١٣٣.

(٣) عقيدة المسيح الدجّال / سعيد أيّوب : ٨٥ ـ ٨٩.

الجماعي وترويع الناس بقطع الرؤوس.

إنّ ظهور هذه العصابات السلفية التفكيرية يكشف بقوّة عن وجود إسلام أموي حاقد يشتمل على مساحة ثقافية ونفسية عنصرية لا إنسانية تشكل تحدّياً وخطراً كبيراً على مستقبل البشريّة، وإن ما يحصل اليوم في العراق من قتل على الهوية[١] يشير إلى انبعاث وعودة الإسلام الأموي الذي يمثل كابوساً مخيفاً[٢] يقلق الملايين، وإن ما يبعث على القلق أن هذا التيار السلفي التكفيري العنيف يتمدّد على مساحات واسعة من الوطن العربي والإسلامي تبدأ من غرب العراق إلى سوريا والأردن وفلسطين وأجزاء من السعودية والمغرب العربي وصولاً إلى باكستان وأفغانستان.

وهذه الظاهرة التي تشبه الغدد السرطانية والتي تعاني منها المجتمعات في العالم

---

(١) جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «**ويغلب على العراق طوائف من الإسلام مرّاق تضيق بسوء فعالهم على أهله الأرزاق ثمّ تنفرج الغمّة ببوار طاغوت الأشرار يسرّ بهلاكه المتقون**». المزار / الشيخ المفيد: ٨. الاحتجاج: ٢/٣٢٣. بحار الأنوار: ٥٣/١٧٥، الحديث ٧.

«**لم يزل السفياني يقتل من أسمه محمّد وعليّ والحسن والحسين وجعفر وموسى وفاطمة وزينب وخديجة وسكينة حنقاً وبغضاً لآل محمّد**». إلزام الناصب: ٩٩.

(٢) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **رأيت في النوم بني الحكم ـ أو بني العاص ـ ينزون على منبري كما تنزو القردة فأصبح كالمتغيظ**، فما رؤي رسول الله مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتّى توفّي صلى الله عليه وآله. تاريخ مدينة دمشق: ٥٧/٢٦٥. كنز العمال: ١١/٣٥٨، الحديث ٣١٧٣٦، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾ الإسراء: ٦٠.

وفي الدرّ المنثور: عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأبيك: **أنكم الشجرة الملعونة في القرآن**». المصدر المتقدّم.

الإسلامي وخارجه تشكل هي الأُخرى تحدياً ومعضلة ليس من السهل معالجتها أنها واحدة من أمراض الإنسانيّة اليوم والتي لا تملك أزاءها سوى الأماني والدعـوات بأن تنجلي عن سماء الأُمم والشعوب وأن يعود السلام والأمان مرّة اُخرى .

إنّ الإسلام الأموي لم يعد جزءً من الماضي كما يُتصور ، لقد أثبتت فصول التاريخ المتعاقبة أنه ما يزال يمثّل خطّاً قويّاً جدّاً يـتسلّح بـقناع مـن النـفاق والازدواجـية المكثفة ، وأن اليهود قد اكتشفوا مبكراً في بني اُمية الأداة القـاسية والهـدّامـة مـن أجل تدمير الإسلام المحمدي من الداخل ، وكـانت بـاكـورة هـذا الحـلف الدنس قد تجلّت بشكل واضح في غزوة الخندق أو الأحزاب فـقد رأى اليـهود فـي أبـي سفيان الرجل الذي يمكن من خلاله تحقيق أهدافهم ، وفي عـهد الخـليفة الثـالث بدأ التآمر اليهودي يأخذ أبعاده الخطيرة من خلال ملوك بني أمـية وحـتّى عـندما اندثر الأمويون فقد ظلّ خطّهم العنصري اللا إنساني مستمراً مـن خـلال مـوجات الاضطهاد المذهبي والطائفي في العهد العثماني ثمّ في حقبة حكم عصابة البعث الساقط في العراق والشام .

العالم الأخضر

إنّ حصيلة ما يمكن تصوره عن إسرائيل والحركة الصهيونية أنّها حـركة تسـتغل أساطير وأوهام ونبوءات توراتية ، وأنّها عندما أرادت حل المسألة اليهودية جاءت بحلّ استعماري غاية في الدموية والبطش والقسوة ومثقلاً بالأطماع التوسعية وأوهام السيطرة وجنون العظمة . ولذا فإنّ السلام الذي يتحدّث عنه التملود هو سلام القبور والذي لن يتحقق إلّا بقتل الشعوب السبعة وتسخير الذين سينجون من القتل !!

ومن هنا فإنّ حركة كهذه قد نجحت إلى حين في تأسيس كيان يمتلك رؤوسـاً نووية وأسلحة ذرّية ويعاني من عقد نفسية يعني أنه يمثل إرادة الشرّ هـذه الإرادة السلبية التي ستفضي إلى عالم مؤلّف من رماد وأنقاض .

وفي مقابل هذه الإرادة تبرز حركة المهدي التي واكبت التاريخ والحضارات حتى الآن لتمثل إرادة الخير والعدالة، وسنجد في ثناياها عالماً أخضر يمثّل تطلّعات الإنسانيّة وطموحات البشر عبر العصور[١].

ونورد هنا تلخيصاً لما ورد في دراسة مفصلة[٢] تبدأ بتثبيت البواعث النفسية التي تفضي إلى عالم اللامساواة والانحراف، فهناك تثقيف حكومي موجه ينهض على أُسس تتنافى وفطرة الإنسان، وهموم الدولة في دفع رعاياها إلى الطاعة لقوانين تجانب روح العدالة.

وحالة التنافس الماديّ الذي يدفع بالانسان عادة إلى انتهاج كل الأساليب في الحصول على المال.

---

(١) يقول الشاعر العراقي الراحل بدر شاكر السياب في مقدّمة مطوّلته الملحميّة فجر السلام: «لا أظنّ أن بي حاجة إلى شرح أهداف حركة السلام ومراميها وتبيان خطوطها العامة، فذلك ما تولاه الكثيرون من قبلي وما سيتولاه الكثيرون من بعدي، وما جاءت هذه القصيدة تعبر عنه بالمقدار الذي يستطيع أن يشرح به ويبين دون أن يفقد كونه شعراً، ولكن لي رأياً واحداً أود أن أقوله، رأياً يلمسه القارئ في المقطع الأوّل من هذه القصيدة.. إنّ الصراع بين الشرّ والخير، بين الموت والحياة، بين قابيل وهابيل، منذ أقدم الأزمنة، وقد تبلور الآن في هذه الحركة حركة السلام العالمي.. فانقسم العالم ليس إلى آشوريين ومصريين ولا إلى يونان وفرس، ولا إلى مسيحيين ومسلمين ولا إلى دول متقدمة ودول متأخرة، ولا إلى شيوعيّين ورأسماليّين، كما كان يحدث دائماً، وإنما انقسم إلى شيء أهم من ذلك وأشمل وأحفل بالروح الإنسانيّة كما عبر عنها بوذا والمسيح ومحمّد وجميع الأنبياء والمصلحين منذ أقدم العصور حتى الآن.. انقسم العالم إلى أخيار وأشرار. والأخيار كلهم على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأديانهم وعقائدهم السياسية في معسكر واحد هو معسكر السلام، والأشرار كلهم في معسكر آخر هو معسكر أعداء السلام». ديوان بدر شاكر السياب: ٢/٢٣٥.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور / محمّد الصدر: ٧٥٦ ـ ٨٢٠.

إضافة إلى التهافت الاجتماعي وتشرّب الأفراد بثقافة الرفاه الماديّ الذي يختزل السعادة والرفاه بالحصول على أكبر قدر ممكن من وسائل العيش الحديثة من مسكن وملبس ومركب والذي يفرز ضمن تلك الثقافة حالة من النفوذ والمركز الاجتماعي .

وأخيراً اختزل أزمة الحب بمسائل الجنس والاغـراء والاسـتغراق فـي الجـانب الحيواني منه .

وتتداخل هذه الأسباب وتتشابك فيجد المرء نفسه محكوماً بمسار يعتبره قدراً مقدوراً ، وأنّ سعادته وهـناءه يـتوقفان عـليه ، وأنّ تـيار الحـياة هـو هـذا ولا غـير فتضمحل شيئاً فشيئاً جوانب الحياة المعنوية والروحية والأخـلاقية ، وهـنا تكـمن أُولى خطى العملية التغييرية(١) .

ولذا تتضمن الأخبار في هذا المضمار منهجاً تربوياً يحقّق ثقافة نقية تربي الإنسان على طاعة الله وعبادته الحقيقية ، وسلوكاً أخلاقياً رفيعاً يصدر عن أجهزة الإعـلام والمؤسسات التعليمية .

ولأن شعار العملية التغييرية هو تنفيذ العدالة الحـقيقية ، وهـو مـا يـنسجم مـع الطموح الإنساني وتطلّعات البشريّة ، فإنّ أرضية الانحراف والظلم سوف تـتراجـع أمام برامج الخير والصلاح .

حيث التنافس سيكون موجهاً ضمن معادلة أخلاقية تؤدي إلى النفع العام .

كما أنّ نجاح البرامج والخطط والمشاريع الاقتصادية سوف يفرز مسلكاً أخلاقياً رفيعاً وتجربة إنسانيّة نبيلة إذ يحقّق الفائض في الانتاج والعدالة في التوزيع وضعاً اجتماعياً تتراجع فيه بواعث الجريمة ، ولن تكون هناك مبررات للاجرام التي يشكل العوز الاقتصادي والظلم الاجتماعي مساحة كبيرة فيها .

---

(١) لقد تشربنا وعلى مدى سنوات طويلة فكرة خلاصتها أن النمو الاقتصادي خاضع لمتوالية عددية ، فيما النمو السكاني خاضع لمتوالية هندسية ، وهذا يعني ان الكارثة قادمة !

ثمّ تأتي برامج تنظيم العلاقات الإنسانيّة بين الجنسين فـي الإطـار الذي يـحقّق رسالة الدين وأهدافه الإنسانيّة ، على أساس انسجام الجانب التشريعي مع الجانب التكويني ومكافحة كل التقاليد والأعراف التي تتناقض مع رسـالة الديـن وجـوهره الإنساني في تحقيق حياة كريمة تنظر إلى الإنسـان وتـعترف بـميوله وتـرشد هـذه الميول في ما يحقّق إنسانيّته وكرامته .

ومع الإيمان بتوفر عنصرين في ظهور المهدي وهما البرنامج الحـياتي الشـامل والكامل والاستقامة في التنفيذ والتطبيق ، فإنّ توفّر عنصر ثالث وهو تطلع البشريّة إلى خطوة الانقاذ هذه سوف يسهم في تحقيق انسجام كامل مما يساعد في نجاح التجربة بشكل أخّاذ .

فهناك إشارات نكتفي بذكر نموذج يؤكد تنامي الاتجاهات الإنسانيّة وسيادة حالة من الأخوة والتضامن :

عن أبي هـريرة ـفـي حـديث ـ، عـن النـبيّ ﷺ أنّـه قـال : « **لتـذهبن الشـحناء والتباغض** »[١] .

وعن الإمام الباقر عليه السلام ، قال : « **إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم ، وكملت بها أحلامهم** »[٢] .

وفي هذا مـا يـؤشر درجـة الوعـي يـومئذ . وبسـبب نـجاح الخـطط والبـرامـج الاقتصادية والثورة العلمية المذهلة سيتحقق رخاء اقتصادي ، وفائض في الانتاج ، ووفرة في النقد الذي يعني قوة شرائية على درجة كبيرة .

عن النبيّ ﷺ : « **يكون في آخر الزمان خليفة ، يقسم المال ولا يعدّه** »[٣] .

---

(١) صحيح مسلم : ١/٩٤.

(٢) الكافي : ١/٢٥ ، الحديث ٢١. بحار الأنوار : ٥٢/٣٢٨ ، الحديث ٤٧.

(٣) صحيح مسلم : ٤/٤٥٤.

وعنه صلوات الله عليه : «لا تدّخر الأرض من بذرها شيئاً إلّا أخرجته ، ولا السماء من قطرها شيئاً إلّا صبّته عليهم مدراراً »[١].

- « تتنعّم أُمّتي فيه نعمة لم ينعموا مثلها قطّ تؤتي الأرض أكلها »[٢].

- « تكثر الماشية وتعظم الأمّة »[٣].

- «أبشروا بالمهدي! رجل من قريش من عترتي ، يخرج في اختلاف من الناس وزلزال ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً. ويرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض ، ويقسم المال بالسوية ، ويملأ قلوب أُمّة محمّد غناه ، ويسعهم عدله »[٤].

- «إذا قام القائم حكم بالعدل ، وارتفع في أيامه الجور ، وأمنت السبل ، وأخرجت الأرض بركاتها »[٥].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال : « ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها ، ولأخرجت الأرض نباتها ، ولذهبت الشحناء عن قلوب العباد »[٦].

- « تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلّا على النبات »[٧].

فإذا كانت الصحراء بين الشام والعراق المليئة بالرمال تستحيل إلى أرض خضراء يغمرها الأمن والسلام ، فإنّه ليس بوسع الخيال أن يتصوّر الثورة الزراعية التي سيشهدها عصر الظهور.

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين : ٤/٤٦٥.

(٢) المصدر المتقدّم : ٥١٤.

(٣) المصدر المتقدّم : ٥٥٨.

(٤) ينابيع المودّة : ٥٦٢. الحاوي للفتاوي / السيوطي : ٢/١٢٤.

(٥) إعلام الورى : ٤١٣.

(٦) و (٧) بحار الأنوار : ١٣/١٨٢.

وتفنّد دراسة «تاريخ ما بعد الظهور» مقولة الانفجار السكاني الذي يهدّد الأرض بالمجاعة .

فمن السخف أن يقال : إنّ البشريّة متّجهة نحو المجاعة ، وإنّ زيادة النسل يؤدي حتماً إلى قلة الأرزاق في العالم . إنّ ذلك إنما يتحقق ، حين يكون الإخلاص ضئيلاً والعمل مبعثراً والتشريع ظالماً ، كما هو الحال في عصر ما قبل الظهور . وأما حين توجد الدولة المخلصة ، والتشريع العادل ، والأيدي العاملة المجدّة ، والعمل المنظم عالمياً ، فسوف يمكنه أن يحفظ للبشريّة أرزاقها مهما تزايدت وتكاثرت ، بل يمكنها أن تزيد الانتاج إلى أضعاف مقدار الحاجة ، وتُضاعِف الدخل الفردي لكل البشر بشكل لا مثيل له في ما سبق من تاريخ .

وأما المنهج التفصيلي التشريعي والعملي الذي يتبعه المهدي عليه السلام في دولته لنيل هذه النتائج الزراعية الرائعة ، فالتعرف عليه موكول إلى وعي ما بعد الظهور ، وإنما المستطاع التعرف على بعض فقراته من خلال ما بين أيدينا من قواعد وأخبار .

إنّ نفس الأخبار التي سمعناها ، تعطينا بعض الحقائق التي تفيدنا بهذا الصدد . فالإمام المهدي عليه السلام ، سيأمر بحفر نهر خلال الصحراء الواقعة بين كربلاء والنجف ، حتى ينزل الماء في النجف ، ويعمل على فوهته القناطير ، يعني الجسور والأرحاء ـ وهو جمع أرحية وهي المطحنة القديمة للحبّ ـ ومن هنا قال في الرواية : **«فكأني بالعجوز على رأسها مكتل فيه برّ، تأتي تلك الأرحاء فتطحنه بلا كراء»**[1] أي بدون أُجرة .

فإذا علمنا أن ذلك ليس إلّا مجرد مثال ، ذكر طبقاً للفهم القديم ، استطعنا أن نتصور مقدار الأنهر والقنوات الممدودة في الصحاري للري ، ومقدار التجهيز الآلي

---

(١) روضة الواعظين : ٢٦٣ . الإرشاد : ٣٨٠/٢ . الغيبة / الطوسي : ٤٦٩ ، الحديث ٤٨٥ . بحار الأنوار : ٣٣١/٥٢ ، الحديث ٥٣ .

الزراعي المباح للناس التصرّف فيه مجاناً ، ليساعد على سرعة الإنتاج وضخامته ، وعلى سرعة التوزيع والتسويق .

وستؤدي هذه الثورة الزراعية طبقاً لايديولوجية الدولة المهدوية ، إلى عدة نتائج مهمة ، نفهم بعضها :

منهـا : توفر الأطعمة والثمار بكثرة لدى الناس ، مع رخص قيمتها السوقية ، بل توفرها مجاناً للكثير من الناس .

ومنهـا : توفير العمل المنتج للعديد من الأيدي العاملة ، وبالتالي إشباع الملايين من العوائل التي كانت فقيرة ومضطهدة في عهد ما قبل الظهور .

ومنهـا : العمران الواسع خلال هذه الأرض المزروعة ، ذلك العمران الذي ستتميز بعض تفاصيله .

ومنهـا : توفير الفرص الكبيرة لإزجاء الحاجات الحياتية مجاناً ، وبدون عوض وبذلك نستطيع أن نتصور حصول النتيجة المهمّة الكبرى المطلوبة(١) .

وفي مجال التعدين تورد الدراسات ما يلي :

« نصت الأخبار الواردة بطرق الفريقين : بأن الأرض تظهر معادنها وكنوزها على سطحها حتى يراها الناس ، وتلقي بأفلاذ كبدها كأمثال الأُسطوانات من الذهب والفضة .

وهذا يمكن فهمه على أساس إعجازي . بمعنى أن يفترض أن ظهور المعادن على سطح الأرض يكون عن طريق المعجزة ، تأييداً من الله تعالى للمهدي ودولته .

وهذا الفهم محتمل . . إلّا أنه ليس فهماً منحصراً . بل يمكن تقديم فهم آخر لا يكون الفهم الإعجازي أولىٰ بالقبول منه على أقل تقدير .

---

(١) تاريخ ما بعد الظهور / محمّد الصدر : ٧٨٨ ـ ٧٨٩ .

وهو أن نفهم الشكل الطبيعي لظهور المعادن، وهو استخراجها بالآلة، عن طريق تخطيط معين واهتمام خاص من قبل الدولة، حتى تتوفر المعادن بأيدي الكثيرين للقيام بها في الصناعات وإزجاء مختلف الحاجات.

ولا يخفىٰ علينا في هذا الصدد، أن تطبيق الحكم الإسلامي على المعادن يجعلها مملوكة للأفراد لا للدولة، بخلاف القوانين الوضعية التي تعتبرها جميعاً ملكاً للدولة. كما أنه يجعلها منتشرة بأيدي الآلاف لا بأيدي عدد قليل من الناس.

وذلك: بأن نفترض أن الدولة المهدوية هي التي توفر آلات الاستخراج الضخمة، مع تطبيق الحكم الإسلامي القائل: أن كل من استخرج شيئاً من المعدن يجب عليه أن يدفع خمسه إلى الفقراء وهو يملك المقدار الباقي. فينتج أن آلاف العمال العاملين في المعادن سوف يملكون كميات ضخمة من المعدن المستخرج، وملايين من الفقراء سوف تنسدّ حاجتهم عن طريق دفع خمس المقدار المستخرج إليهم.

فإذا ضممنا إلى ذلك الحكم الإسلامي القائل: بأنه لا يجوز للمستخرج أن يزيد مقدار ما يستخرجه وما يملكه من المعدن، على قوت سنته.. عرفنا أنه ليس من حقّ أيّ فرد من العاملين في المعدن أن يثري على حساب الآخرين، وإنما بمجرد أن تصل ثروته إلى حدّ معين يفي بحاجته السنوية له ولعياله بما يناسب حاله اجتماعياً، منعته الدولة عن الحصول على المقدار الزائد من المعدن، فإمّا أن يعتزل العمل ويسمح لغيره بالاستخراج، لكي يملك من المعدن بهذا المقدار أيضاً، أو أن يعمل ويكون الناتج للدولة مباشرة.

وعلى أي حال، فالدولة تملك الكمية الفائضة من المعادن عن كميات العمال، وهي كميات كبيرة، قد تزيد على ما ملكه العمال جميعاً بأضعاف كثيرة. وهذه الكميات تستخدمها الدولة في صناعاتها وسدّ احتياجات العمل فيها.

ومن هنا تكون المعادن تحت الحكم العادل، قد أفادت بطريق مباشر وغير مباشر ملايين الناس، وأغنت ملايين العوائل في العالم.

الجهة السادسة : في السياسة المالية للدولة المهدوية ، كما أشارت الأخبار واقتضتها القواعد الإسلامية العامة .

وهناك فصل جديد يتعلق بصورة العالم في المستقبل ، لقد اعتدنا على أن نتصور التأثيرات الطبيعية في الحياة الاجتماعية ، أما العكس فقد يصعب علينا بسبب طريقة تفكيرنا وتأثرها بمناهج مادّية فلا نتصور العكس .

يقول السيّد محمّد الصدر في هذا المضمار: «المستفاد من عدد من النصوص من الكتاب الكريم والسنّة الشريفة ، أنّ تطبيق العدل الإلهي أينما وجد ، والمجتمع المؤمن أينما تحقّق ، فإن الطبيعة تكون مساعدة له بمشيئة خالقها الحكيم لإنتاج النتائج الحسنة والوصول إلى الرفاه الاجتماعي . وهذا أمر صحيح برهانياً .

قوله تعالى ـ نقلاً عن هود النبيّ عليه السلام ـ: **﴿وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾**[1] .

وقوله ـ نقلاً عن نوح النبيّ عليه السلام ـ: **﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾**[2] .

فإن إرسال السماء مدراراً وشقّ الأنهار وزيادة البنين ونحوها أُمور تكوينية ليس للإنسان فيها يد ، وخاصة في عصر نوح عليه السلام ، ومع ذلك فقد قرنت مع الاستغفار والتوبة ، ومع إصلاح النفس والإخلاص بشكل عام ، وهذا صادق بالنسبة إلى المجتمع المحدود ، فكيف إذا أصبح المجتمع كله صالحاً مؤمناً .

فهذه مستويات ثلاثة من التأييد الإلهي ، لا حاجة الآن إلى الزيادة عليها .

الناحية الثانية : في تطبيق ذلك على الدولة المهدوية ، وما عرفناه من أشكال

---

(١) هود: ٥٢.

(٢) نوح: ١٠ ـ ١٢.

التأييد التي تعتبر كنتائج لإحدى هذه المستويات .

من الواضح أن الصفات المعتبرة لاستحقاق التأييد في المستويات الثلاثة كـلها موجودة في أصحاب الإمام المهدي عليه السلام خاصة وفي الدولة العالمية العادلة ، ككل ؛ فمن الطبيعي أن يكونوا مشمولين لكل هذه الأشكال الثلاثة .

وأما من حيث النتائج التي تعرضها علينا الأخبار السـابقة ، فـتتجلى فـي صـور مختلفة :

الصورة الأولى : سهولة استخراج المعادن بشكل خارج عن الحسبان ، سـواء فهمناه من زاوية إعجازية أو من زاوية طبيعية . وقد تحدثنا عن ذلك .

الصورة الثانية : اتّساع الزراعة والأراضي المزروعة بشكـل عـظيم لم يسـبق له مثيل . « **لا تدّخر الأرض من بذرها شيئاً إلّا أخرجته ، ولا السـماء مـن قـطرها شـيئاً إلّا صبّته** »[١] .

الصورة الثالثة : ارتفاع الدخل الفردي بشكل لا مثيل له ، إلى حدّ ينغلق الطمع بالمال الزائد تماماً ، كما صرَّحت به الروايات .

الصورة الرابعة : انه عليه السلام : « **تطوى له الأرض** »[٢] وهو تعبير عن سرعة الوصـول إلى المكان البعيد ، إمّا بشكل إعجازي أو بشكل طبيعي .

الصورة الخامسة : شمول الأخوة لكل الناس وعموم الصـفاء بـينهم جـميعاً ، الأمر الذي لم يحدث في أي نظام آخر . كما نصّت عليه أخبار الفريقين .

الصورة السادسة : إن الأمن والصفاء لا يشمل البشر فقط ، بل يشمل الحيوانات أيضاً : البهائم والسباع « **واصطلحت السباع والبهائم** »[٣] فيما بـينها . وهـي لا تـضرّ

---

(١) الملاحم والفتن : ١٤٦ ، الحديث ١٧٥ . بحار الأنوار : ١٠٤/٥١ .

(٢) كمال الدين : ٣٣١ ، الحديث ١٦ . كفاية الأثر : ٢٧٥ .

(٣) الخصال : ٦٢٦ . بحار الأنوار : ١٠٤/١٠ .

الإنسان أيضاً «**لا يهيجها سبع ولا تخافه**»[١].

وهذا الصلح أحد المظاهر الواضحة للتأييد الإلهي للمجتمع المهدوي . حتى أن الوحوش تصبح ملهمة بقدر الله عزّ وجلّ ، على أن تتجنب كل ما يضرّ بالبشر من قتلهم أو قتل مواشيهم أو إفساد مزروعاتهم وغير ذلك ، بل لعلها تشاركهم فيما يشعرون من سعادة ورفاه وأخوة «**يرضى عنه ساكن السماء**»[٢] وهو الطير .

وهذا المطلب لا يمكن إثباته من ناحية العلم التجريبي الحديث ، ولا يكون قابلاً للتصديق من قبل أي فرد ممن وثق بهذا العلم واطمئن إليه ، ولكن حسبنا تجربة المستقبل ، وحدوث يوم الظهور نفسه ، فبيننا وبين المفكرين المحدثين ، وجود المجتمع العالمي العادل : ﴿ **فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ** ﴾[٣] .

فإن تجربة وجود هذا الصلح لا يمكن تحقّقها بدون تحقّق ذلك المجتمع فإنه الشرط الأساسي له . ولا يعقل أن يتحقق الشيء قبل توفّر سببه . فإن حدث ذلك المجتمع ، ولم يحدث الصلح بين السباع والبهائم كان كلام المنكرين صادقاً . ولكنهم لا يمكنهم إثبات ذلك في العصر الحاضر ، بأيّ حال من الأحوال[٤] .

ونحن لا نهتم كثيراً بمستقبل العالم الحيواني فهاجسنا الوحيد المستقبل الإنساني خاصّة وقد روّض الإنسان كل حيوانات الغابة بما في ذلك سلطانها المهيب .

لكنه عجز عن ترويض نفسه فأصبحت الأرض غابة مخيفة يخشى الإنسان فيها حتى ظلّه .

ولم يعد كما في الماضي ليخاف زئير الأُسود وعواء الذئاب ، بقدر ما يقلقه أزيز

---

(١) الخصال : ٢٦٢ . تحف العقول : ١١٥ . بحار الأنوار : ١٠/١٠٤ .

(٢) الخصال : ١٢٠ ، الحديث ١٠٨ . الغيبة / الطوسي : ١٧٨ ، الحديث ١٣٦ .

(٣) الأعراف : ٧١ .

(٤) تاريخ ما بعد الظهور / محمّد الصدر : ٨٠٦ ـ ٨٠٩ .

الرصاص ، وهدير الطائرات ، ودويّ المدافع ، فـيما يـرقد الشـبح الذرّي المـرعب يهدد الإنسانيّة بمصير « هيروشيما » في كل مكان ، إنّ هاجس الضمير الإنساني اليوم هو الخصب والعدالة والسلام .



ملاحق لإسناد الدراسة

الأوّل: زخم البشارة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام

الثاني: المهدي عليه السلام في الروايات

الثالث: مرحلة السفراء

الرابع: عمر الإمام المهدي عليه السلام

الخامس: مستقبل العالم



الملحق الأوّل

زخم البشارة

في أحاديث أهل البيت عليهم السلام

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

عن الأصبغ بن نباتة: « قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **والمهدي منّا في آخر الزمان، لم يكن في أُمّة من الأمم مهدي ينتظر غيره** »[1].

وهناك خمسون حديثاً آخر في هذا المضمار[2].

السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام

عن الحسين بن علي عليه السلام، قال: « **قالت لي أُمّي فاطمة: لمّا ولدتك دخل عليّ رسول الله** صلى الله عليه وآله.. إلى أن قالت: ثمّ قال: **يا فاطمة، خذيه فإنّه أبو الأئمّة، تسعة من ولده أئمّة أبرار، والتاسع مهديّهم** »[3].

وهناك ثلاثة أحاديث أُخرى أيضاً.

الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام

قال الحسن عليه السلام: « **الأئمّة بعد رسول الله** صلى الله عليه وآله **اثنا عشر، تسعة من صلب أخي الحسين، ومنهم مهديّ هذه الأُمّة** »[4].

---

(١) دلائل الإمامة: ٤٧٩، الحديث ٧٤. إثبات الهداة: ١٤٨/٧.

(٢) وهذا العدد و ما يليه في الأحاديث الآتية في كتاب « منتخب الأثر » وحده.

(٣) كفاية الأثر: ١٩٧. إثبات الهداة: ٥٥٢/٢.

(٤) كفاية الأثر: ٢٢٣. إثبات الهداة: ٥٥٥/٢.

إضافة إلى أربعة أحاديث أُخرى.

الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام

قال الحسين بن عليّ (صلوات الله عليهما): «**منّا اثنا عشر مهدياً، أوّلهم: أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، وآخرهم: التاسع من ولدي، وهو القائم بالحقّ، يُحيي الله به الأرض بعد موتها، ويُظهر به دين الحقّ على الدين كلّه ولو كره المشركون، له غيبة يرتدّ فيها أقوام، ويثبت على الدين آخرون، فيؤذون ويقال لهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، أما إنّ الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهد بالسيف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله**»[2].

وفي هذا الموضوع ثلاثة عشر حديثاً آخر.

الإمام علي بن الحسين عليه السلام

عن سعيد بن جبير، قال عليّ بن الحسين عليه السلام: «**القائم منّا تخفى ولادته على الناس حتى يقولوا: لم يولد بعد، ليخرج حين يخرج وليس لأحدٍ في عنقه بيعة**»[3].

الإمام محمّد الباقر عليه السلام

عن أبان بن تغلب، عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال: «سألته عن الإمامة.

فقال: **والله إنّه لعهد عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الأئمّة بعده اثنا عشر، تسعة من**

---

(١) يونس ١٠: ٤٨. الأنبياء ٢١: ٣٨. النمل ٢٧: ٧١. سبأ ٣٤: ٢٩. يس ٣٦: ٤٨

(٢) كمال الدين: ٣١٧/١، الحديث ٣. بحار الأنوار: ١٣٣/٥١. إثبات الهداة: ٣٣٣/٢، ٣٩٩.

(٣) كمال الدين: ٣٢٢/١ و ٣٢٣، الحديث ٦. بحار الأنوار: ١٣٥/٥١.

صلب الحسين ، ومنّا المهدي يقوم بالدين في آخر الزمان »[١] .

وهناك اثنان وستّون حديثاً آخر .

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

قال الإمام الصادق عليه السلام : « **من أقرّ بجميع الأئمّة وجحد المهدي كان كمن أقرّ بجميع الأنبياء وجحد محمّداً صلى الله عليه وآله نبوّته .**

فقيل له : يابن رسول الله ، ممّن المهدي ؟ من ولدك ؟

قال : **الخامس من ولد السابع ، يغيب عنكم شخصه ، ولا يحلّ لكم تسميته »**[٢] .

وهناك مائة وثلاثة وعشرون حديثاً آخر .

الإمام موسى الكاظم عليه السلام

عن يونس بن عبدالرحمن ، قال : « دخلت على موسى بن جعفر عليه السلام فقلت له : يابن رسول الله ، أنت القائم بالحق ؟

فقال : **أنا القائم بالحقّ ، ولكنّ القائم الذي يطهّر الأرض من أعداء الله ويملأها عدلاً كما ملئت جوراً ، هو الخامس من ولدي ، له غيبة يطول أمدها خوفاً على نفسه ، يرتدّ فيها أقوام ، ويثبت فيها آخرون .**

ثمّ قال عليه السلام : **طوبى لشيعتنا المتمسّكين بحبلنا في غيبة قائمنا ، الثابتين على موالاتنا ، والبراءة من أعدائنا ، أُولئك منّا ونحن منهم ، قد رضوا بنا أئمّة ، ورضينا بهم شيعة ، فطوبى لهم ، وهم والله معنا في درجتنا يوم القيامة »**[٣] .

---

(١) كفاية الأثر : ٢٤٥ . إثبات الهداة : ٥٥٩/٢ .

(٢) كمال الدين : ٣٣٣/٢ ، الحديث ١ . بحار الأنوار : ١٤٣/٥١ . اثبات الهداة : ٤٠٤/٦ .

(٣) كمال الدين : ٣٦١/٢ . بحار الأنوار : ١٥١/٥١ . إثبات الهداة : ٤١٧/٦ .

الإمام علي الرّضا عليه السلام

عن الريان بن الصلت ، قال : « قلت للرضا عليه السلام : أنت صاحب هذا الأمر ؟

فقال : **أنا صاحب هذا الأمر ولكنّي لست بالذي أملأها عدلاً كما ملئت جوراً ، وكيف أكون ذلك على ماترى من ضعف بدني ؟ وإنّ القائم هو الذي إذا خرج كان في سنّ الشيوخ ومنظر الشبّان ، قوياً في بدنه حتى لو مدّ يده إلى أعظم شجرة على وجه الأرض لقلعها ، ولو صاح بين الجبال لتدكدكت صخورها ، يكون معه عصا موسى ، وخاتم سليمان عليهما السلام . ذلك الرابع من ولدي ، يغيّبه الله في ستره ما شاء الله ، ثمّ يظهره فيملأ٧٦ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً** »[1] .

الإمام محمّد الجواد عليه السلام

عن عبدالعظيم الحسني ، قال : « دخلت على سيّدي محمّد بن علي عليه السلام وأنا أُريد أن أسأله عن القائم أهو المهدي أو غيره ؟ فابتدأني فقال : **يا أبا القاسم ، إنّ القائم منّا هو المهدي الذي يجب أن ينتظر في غيبته ، ويطاع في ظهوره ، وهو الثالث من ولدي . والذي بعث محمّداً بالنبوّة ، وخصّنا بالإمامة ، إنّه لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج فيه فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وإنّ الله تبارك وتعالى ليصلح له أمره في ليلة كما أصلح أمر كليمه موسى عليه السلام إذ ذهب ليقتبس لأهله ناراً فرجع وهو رسول نبيّ .**

ثمّ قال عليه السلام : **أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرج** »[2] .

وهناك خمسة أحاديث أُخرى .

---

(١) كمال الدين : ٢/٣٧٦ ، الحديث ٧ . بحار الأنوار : ٥٢/٣٢٢ . إثبات الهداة : ٦/٤١٩ .

(٢) كمال الدين : ٢/٣٧٧ ، الحديث ١ . بحار الأنوار : ١/١٥٦ . إثبات الهداة : ٦/٤٢٠ .

الإمام عليّ الهادي عليه السلام

قال الإمام الهادي عليه السلام : **« أبو محمّد ابني الخلف من بعدي ، وعنده ما تحتاجون إليه ، وعنده آلة الإمامة ، والحمد لله »**(١) .

وخمسة أحاديث أُخرى .

الإمام الحسن العسكري عليه السلام

عن موسى بن جعفر البغدادي ، قال : « سمعت أبا محمّد الحسن بن علـيّ عليه السلام يقول : **كأني بكم وقد اختلفتم بعدي في الخلف منّي ، أما إنّ المقرّ بالأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنكر لولدي كمن أقرّ بجميع أنبياء الله ورسله ثمّ أنكر نبوّة محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمنكر لرسول الله صلى الله عليه وآله كمن أنكر جميع الأنبياء ، لأن طاعة آخرنا كطاعة أوّلنا ، والمنكر لآخرنا كالمنكر لأولنا . أما إنّ لولدي غيبة يرتاب فيها الناس إلّا من عصمه الله عزّ وجلّ »**(٢) .

وواحد وعشرون حديثاً آخر .

إحصائية عامّة

- الأئمّة اثنا عشر : أوّلهم عليّ ، وآخرهم المهدي : **٩١** حديثاً .
- الأئمّة اثنا عشر : آخرهم المهدي : **٩٤** حديثاً .
- الأئمّة اثنا عشر : تسعة منهم من نسل الحسين ، تاسعهم المهدي : **١٠٧** أحاديث .

---

(١) الغيبة / الطوسي : ٨٣ ، الحديث ٨٤ . إثبات الهداة : ٢٧٥/٦ .

(٢) كمال الدين : ٤٠٩/٢ ، الحديث ٨ . بحار الأنوار : ١٦٠/٥١ . إثبات الهداة : ٤٢٧/٦ .

- المهدي من عترة النبيّ ﷺ : **٣٨٩** حديثاً .
- المهدي من ولد عليّ عليه السلام : **٢١٤** حديثاً .
- المهدي من ولد فاطمة عليها السلام : **١٩٢** حديثاً .
- المهدي من ولد الحسين عليه السلام : **١٨٥** حديثاً .
- المهدي تاسع أولاد الحسين عليه السلام : **١٤٨** حديثاً .
- المهدي من ولد علي بن الحسين عليه السلام : **١٨٥** حديثاً .
- المهدي من ولد الباقر عليه السلام : **١٠٣** أحاديث .
- المهدي من ولد الصادق عليه السلام : **١٠٣** أحاديث .
- المهدي السادس من ولد الصادق عليه السلام : **٩٩** حديثاً .
- المهدي من ولد الكاظم عليه السلام : **١٠١** حديثاً .
- المهدي الخامس من ولد الكاظم عليه السلام : **٩٨** حديثاً .
- المهدي الرابع من ولد الرضا عليه السلام : **٩٥** حديثاً .
- المهدي الثالث من ولد الجواد عليه السلام : **٩٠** حديثاً .
- المهدي من ولد الهادي عليه السلام : **٩٠** حديثاً .
- المهدي ابن العسكري عليه السلام : **١٤٥** حديثاً .
- اسم والده الحسن عليه السلام : **١٤٨** حديثاً .

المهدي عليه السلام يواطئ اسمه اسم النبيّ ﷺ ، وكنيته أيضاً : **٤٧** حديثاً [١] .

وقال رسول الله ﷺ : **« المهدي من ولدي ، اسمه اسمي ، وكـنيته كـنيتي ، أشـبه الناس بي خَلْقاً وخُلقاً ، تكون له غيبة وحيرة تضلّ فيها الأُمم ، ثـمّ يـقبل كـالشهاب**

(١) أُخذت هذه الإحصائية من كتاب « منتخب الأثر » للشيخ الصافي .

الثاقب ، ويملأها عدلاً وقسطاً كما مُلئت ظلماً وجوراً »[١] .

ولا ندّعي صحة جميع الأحاديث أو أنّ جميع رواتها عدول ؛ ذلك أنّ أحاديث المهدي هي مثل سائر الأحاديث الأُخرى ، فيها الصحيح والحسن ، وفيها الموثّق ، وفيها الضعيف ، ولا نرى من الضروري البحث في مدى صحّتها ، فهي من الكثرة بشكل يدفعنا إلى الطمأنينة والإيمان بأصل الموضوع ، والتاريخ يؤكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد تحدّث عن المهدي في مناسبات عديدة وكثيرة ، وأن الأئمّة من آله كانوا لا يفتأون يذكرون للناس علاماته ؛ حتّى يمكن القول أنّ موضوع المهدي قد احتلّ مساحة واسعة من الحديث والرواية ؛ وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ومنذ حجّة الوداع حتّى وفاته قد بيّن للناس هذا الموضوع حتّى باتوا ينتظرون ظهوره ويترقّبون خروجه ، وكانوا يخطئون في تشخيصه ؛ كما أنّ هناك إجماعاً في نقل أحاديث ، حيث تناقلها السنّة والشيعة ، الأشاعرة ، والمعتزلة ، وكان في رواتها العرب والعجم ، مكّيّون ومدنيون ، ومن الكوفة أو بغداد ، ومن قم ونيسابور وخراسان ، فهل وراء مثل هذا الإجماع مجالٌ للتشكيك في أمر المهدي ، وأنّ الشيعة قد وضعوا هذه الأحاديث ثمّ نسبوها إلى النبيّ تعصّباً ؟ !

---

(١) كفاية الأثر : ٦٧ . بحار الأنوار : ٧٢/٥١ ، الحديث ١٦ .

الظاهرة المهدويّة في التاريخ

يرى البعض أنّ فكرة الإيمان بالمهدي والمصلح قد تسربت إلى الذهنية الإسلامية ، فالفرس مثلاً كانوا يعتقدون بظهور رجل من سلالة « زرادشت » واسمه « سالوشيانت » وأنّه سيقتل « أهريمن » أو الشيطان وأنّه سيطهّر العالم من الرجس ؛ أمّا اليهود الذين عانوا الأسر والسبي على أيدي الكلدانيين والآشوريين فقد كانوا يؤمنون بما بشّر به أنبياؤهم بظهور ملك يعيد إليهم حرّيتهم . وإذا كانت هذه الظاهرة قد وجدت لدى الأقوام قبل الإسلام ، فمن المحتمل جدّاً انتقالها إلى المحيط الإسلامي ، وأنها لا تعدو أن تكون أُسطورة .

صحيح أنّ الإيمان بظهور مصلح للعالم كان شائعاً لدى بعض الأقوام ، ولكن هذا لا ينهض دليلاً على أُسطورية هذه العقيدة . فهل تعدّ مخالفة الإسلام لعقائد الأديان الأُخرى دليلاً على حقانيته ؟ !

إنّ من يريد البحث في صحة عقيدة ما عليه أن يراجع أُدلّتها والوثائق التي تعزّز صحتها ، لا أن يراجع كتب القدماء وما لدى الأقوام الأُخرى من عقائد مشابهة ، ثمّ يقيم الدنيا ولا يقعدها قائلاً : إنّه قد وجد جذور هذه العقيدة ، وإنّها تعود إلى هذه الأقوام أو تلك ، وانّها مجرّد أساطير ليس إلّا .

لقد كان القدماء يؤمنون بالله ويعدّون الصدق خلقاً سامياً ، فهل يحقّ لنا أن نعدّ الله أُسطورة وننبذ الصدق بعيداً فلا نعدّه خلقاً حسناً ؟ !

وإذن فإنّ إيمان الأقدمين بظهور المصلح لا يعدّ دليلاً ولا مسوغاً في أُسطورية فكرة المهدي ، كما لا ينهض برهاناً لإثبات هذه العقيدة .

بواعث ظهور الفكرة

فلدى البعض تعود جذور المهدوية إلى الأقوام التي عاشت قبل الإسلام، ولما ظهر الشيعة أخذوا هذه العقيدة عنهم، ثمّ أضافوا لها بعض الإضافات. وهناك أمران يعدّان من بواعث ظهور ونشوء هذه العقيدة لدى المسلمين وهما:

أوّلاً: إنّ الإيمان بظهور المنقذ الغائب كان وما يزال شائعاً لدى اليهود، وأنّهم كانوا يعتقدون بأن «إلياس» قد رفع إلى السماء، وأنّه سيعود في آخر الزمان لإنقاذ بني إسرائيل، كما أنّهم يعتقدون بأنّ «ملكصيدق» و«ابن العازار» ما يزالان في الحياة.

وفي صدر الإسلام اعتنق فريق من اليهود الدين الإسلامي من أجل مصالح دنيوية، وأحياناً لهدم العقيدة الإسلامية من الداخل من خلال بثّ العقائد المنحرفة والباطلة وجعلها جزءاً من الإسلام. ويمكن القول: إنّ عبدالله بن سبأ كان أحد هؤلاء.

ثانياً: بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وما تلا ذلك من حوادث مريرة كإقصاء عليّ بن أبي طالب عن الخلافة ترك أثراً عميقاً في محبّيه وأنصاره الذين استبشروا بعودة الحقّ إلى نصابه. ولكن الإمام الذي تسنّم الخلافة في ظروف عصيبة وفتن داخلية لم تتح له الفرصة للإصلاح، فقد استغرقت الحروب الداخلية كلّ جهده ووقته إلى أن سقط شهيداً في المحراب.

ولمّا تصدّى الإمام الحسن للخلافة بعده، كان معاوية قد أحكم قبضته على الشام ومناطق أُخرى، وراح يهدد عاصمة الخلافة. ورأى الحسن أن السلام والتنازل عن الخلافة بشروط هو الطريق الوحيد لحفظ البقية الباقية من تراث جدّه العظيم.

وآل الأمر إلى أن يحكم بنو أُميّة وتكون بأيديهم وسائل القدرة والنفوذ، فيما ظلّ

الحسن والحسين بعيدَين.

ولقد عانى أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم في العهد الأُموي كلّ صنوف القهر الاجتماعي، وأصبحت مقدرات المسلمين ملكاً خاصاً لبني أُمية، وبني العباس من بعدهم، وكان نصيب العلويّين ومن ناصرهم القتلُ والتشريد والسجن.

وخلال تلك الحقبة المريرة من الزمن وقعت آلاف المآسي بدءً من إقصاء عليّ عن الخلافة ومصادرة ميراث فاطمة الزهراء من أبيها؛ إلى مذبحة عاشوراء واجتياح المدينة المنورة في عهد يزيد؛ إلى الاعدامات التي طالت كثيراً من صحابة النبيّ مثل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي؛ وآلاف المآسي والآلام. وفي مثل هذا الجوّ الخانق واليأس المرير، لابدّ أن تتبلور فكرة المصلح الغائب، وأن تجد لها تربة خصبة للنمو والتجذّر، وأن تصبح أملاً لخلاص المعذبين في الأرض، من أجل ذلك كان الشيعة يوحون لأنفسهم بالأمل على يد المصلح المنتظر الذي سيكون ـ ولا بدّ ـ من أهل البيت المظلومين على مرّ التاريخ. وهكذا ظهر المهدي في تاريخ الإسلام[١].

من الطبيعي أن يكون الموضوع مقبولاً لو لم يكن هناك مصدر واضح ومنشأ أساسي للمهدية، وهو النبيّ صلى الله عليه وآله الذي بشّر بظهور المهدي وتطهير الأرض من الظلم والفساد، وإنّ الاعتقاد بالمهدي إنّما نشأ لأنّ رسول الله حدّث وبشّر أصحابه بظهوره، والأحاديث التي تتضمن عقيدة المهدية لم تقتصر على رواة الشيعة، فقد رواها السنّة أيضاً في الصحاح. وإذن فإننا لا نحتاج إلى مثل هذا التحليل حول نشوء المهدية وظهورها في الوسط الإسلامي.

وإنّ المقولة التي ترى بأنّها كانت شائعة لدى اليهود وغيرهم هو الآخر صحيح ولكن لا يعني أنّها تسرّبت إلى المسلمين عن «عبدالله بن سبأ» اليهودي، فتواتر

---

(١) المهدية في الإسلام: ٨ ـ ٦٨.

الأحاديث يشير ويؤكّد أنّ مصدر هذه العقيدة هو رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن المحتمل أن يكون اليهود الذين أسلموا فيما بعد قد أيّدوها فقط.

عبدالله بن سبأ

من المسائل التي ينبغي الإشارة إليها والتوقف عندها هي شخصية «ابن سبأ» ذلك اليهودي الذي أسلم حديثاً واستطاع في مدّة وجيزة من إحداث تحوّلات تاريخية مثيرة؛ وقد أثبتت الدراسات التاريخية الحديثة أنّ هذه الشخصية لا وجود لها على الإطلاق، وأنها أُسطورة اختلقها أعداء الشيعة، وإلّا فهل يمكن لعاقل أن يصدّق بأن رجلاً يهودياً تمكّن أن يكون له كلّ هذا التأثير العميق والخارق، وأن يتحدّث بفضائل أهل البيت في محيط قمعي، وأن يؤلّب المسلمين ضد الخليفة حيث لقي مصرعة في ثورة عارمة، ومع كلّ هذا يبقى بمنأى عن الاتهام، فلا يذكره أحد. فهذا لا يمكن تصوّره إلّا في عالم الخيال[١].

ثمّ هل يقتصر الإيمان بالمهدي الموعود على المسلمين أم أن هذه العقيدة موجودة في سائر الأديان الأُخرى؟

جواباً؛ ليس المسلمون وحدهم يؤمنون بهذه العقيدة، بل يمكن القول أنها موجودة لدى جميع الأديان السماوية، وأنّ أتباع هذه الأديان جميعاً يؤمنون بظهور «المصلح» أو «المنقذ» أو المخلّص الذي يصلح شأن العالم بعد أن يعمّ الظلم وينتشر الفساد، وأنّه مدعوم بقوّة غيبية، وأن النصر سيكون حليفه.

وهذه البشرى موجودة في كلّ الكتب التي يدّعي أصحابها بأنّها سماوية، فهي موجودة في كتاب «زند و پازند» وكتاب «جاماسبنامة» وهما من الكتب الزرداشتية

---

(١) من أراد التحقيق في هذا الموضوع يمكنه الرجوع إلى كتاب «وعاظ السلاطين» لعلي الوردي، و«عبدالله بن سبأ» لمرتضى العسكري، و«علي وبنوه» لطه حسين.

المقدّسة ، والتوراة والإنجيل ، وهي موجودة أيضاً في كتب البراهمة الهندوس والبوذيين ، وهم جميعاً ينتظرون الرجل الموعود الذي سيأتي من أجل إنقاذهم .

وكلّ أُمّة تدّعي أنّه منها ؛ ولهذا فإنّنا نجد له أسماء عديدة مختلفة ؛ فهو « سوشيانس » أو منقذ العالم لدى الزرداشتيين و« السيّد الميكائيلي » لدى اليهود و« المسيح الموعود » لدى النصارى و« المهدي المنتظر » لدى المسلمين .

وهو فارسي من نسل زرادشت لدى أتباع زرادشت ، وهو من بني إسرائيل لدى اليهود ، ويعدّه النصارى مسيحياً فيما يعتقد المسلمون أنّه على دين الإسلام ومن ذريّة النبيّ محمّد ﷺ .

على أننا نجد هذه العقيدة واضحة لدى المسلمين أكثر من غيرهم ، وهذا لا يعني أننا نريد أن نستدلّ على صحة هذه العقيدة بما ورد في كتب الأديان الأُخرى ، ولكن يمكن القول أن الاعتقاد بالمصلح الموعود هو عقيدة قديمة بشّر بها الأنبياء أُممهم ، وأنّ مصدرها الوحي الإلهي ، وقد شابتها الخرافات والأساطير عبر الزمن .

ثمّ أنّ قضية المهدي وردت في القرآن ؛ وهو آخر الكتب السماوية مع أنّنا لا نجد اسم المهدي أبداً في القرآن الكريم وهذا لا يشكّل نقطة ضعف في هذه القضية ، إذ أنّ هناك عقائد وأُمور نؤمن بها وهي صحيحة ومع ذلك ليست مذكورة في القرآن الكريم ، بل ما أكثر المسائل التي نؤمن ونتعبّد بها وهي غير موجودة في القرآن . هذا أوّلاً ، وثانياً : يمكن القول بأن هناك إشارات عديدة تبشّر بشكل عام بيوم موعود ينتصر فيه عباد الله الصالحون حيث يظهر الدين الإسلامي على الدين كلّه .

قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾[1] .

---

(١) الأنبياء : ١٠٥ .

وقال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴾ (١).

وقال سبحانه : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٢).

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

وكلّ هذه الآيات تبشّر المؤمنين بنصر الله وأنّه سيحلّ اليوم الذي يسود فيه الإسلام ربوع الأرض ، وستحلّ عبادة الله وحده محلّ الشرك والكفر والوثنية ، وحينئذ سينعم العالم كلّه بعصر مشرق مفعم بالايمان والسلام .

---

(١) النور : ٥٥.

(٢) القصص : ٤.

(٣) الصفّ : ٩.

الملحق الثاني

المهدي عليه السلام في الروايات والأخبار

حسّاسيّة الموضوع

إنّ مراجعة لتاريخ بني أُميّة وبني العباس والأزمات والصراعات المريرة التي وقعت هنا وهناك في الأرض الإسلامية سوف توضّح ما لمسألة المهدي من خطورة وحساسيّة.

وبالطبع لا يمكن في هذه العجالة استعراض الوقائع التاريخية التي تؤيّد ذلك، ولكن من الممكن الإشارة إلى ما يلي:

إنّ فكرة المهدي الموعود عميقة الجذور تعود إلى عهد النبيّ الذي بشّر بظهوره ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تُملأ ظلماً وجوراً.

من أجل هذا كانت أملاً كبيراً للمقهورين والمستضعفين تدفعهم إلى الحركة والنشاط والاستمرار في المقاومة؛ خاصّة في الظروف الصعبة والمنعطفات التاريخية الخطيرة.

ولعلّ المختار الثقفي هو أوّل من وظّف قضية المهدي في الثورة ضد بني أُميّة بعد حادثة كربلاء ومقتل الحسين عليه السلام، ولمّا كان محمّد بن الحنفية وهو أخو الحسين يحمل اسم رسول الله وكنيته، فقد انتهز المختار هذه الفرصة وأعلن بأنّ محمّد بن الحنفية هو المهدي الموعود، ولقد لقيت هذه الدعوة تصديقاً لدى الرأي العامّ في الكوفة على الأقلّ لما شاهدوه من ظلم وجور، وما سبّبته مذبحة كربلاء من هزّة عميقة في الضمائر. ولعلّ هذه الدعوة هي أساس النجاح الساحق الذي حقّقه المختار في ثورته وتحرير الكوفة من قبضة الجلادين.

وفي أواخر حكم بني أُميّة ظهر شخص آخر يرفع لواء المهدي وهو «أبو مسلم

الخراساني » وقد حظيت دعوته بترحيب واسع في خراسان لأن ثورته كانت تهدف إلى الثأر لدماء الحسين وأصحابه في كربلاء ، والانتقام من قَتَلة الثائر العلوي زيد بن علي الذي لقي مصرعه على نحو فجيع ، وكذا الثأر لدماء ابنه يحيى بن زيد الذي قُتل في عهد الوليد الأموي .

ولقد عدّ بعضهم « أبا مسلم الخراساني » المهدي الموعود نفسه بينما عدّه فريق آخر بأنه من علامات ظهوره والممهدين له . ومهما كانت الدوافع للثورة وأهدافها فإنّها حملت شعاراً ضخماً هو الدعوة إلى « الرضا من آل محمّد » وكان هذا أساساً لنجاحها وانهيار الحكم الأُموي الغاشم .

ولقد استطاع زعماء بني العباس الذين كانوا يحرّكون الأحداث في المسار الذي يرتأون .. استطاعوا توظيف العواطف المخزونة لآل البيت في طرح شعارات عامّة وتسليط الأضواء على بعض الشخصيات العلوية للاستفادة منها في الانقضاض على الحكم الأُموي ، إضافة إلى حشر أنفسهم كجزء من بني هاشم في آل البيت الذين يحظون باحترام واسع لدىٰ الأُمّة .

وهكذا تمكّن بنو العباس من الإطاحة بالنظام الأموي وعمّت الفرحة سائر البلدان الإسلامية وهي ترى عودة الحقّ إلى نصابه وعودة الخلافة إلى أهلها من آل البيت .

ولم تكد تمرّ بضعة أعوام حتّى استيقظت الأُمّة من أحلامها الذهبية على ظلم أشدّ من ظلم بني اُميّة وأقسى ، وواجه العلويون الذين تنفّسوا الصعداء قليلاً حملة إبادة رهيبة جعلتهم يفكرون باستئناف الثورة من جديد ، فبدأوا فصولاً مريرة من المقاومة ضد الظلم والاضطهاد .

لقد وجد العلويون أنفسهم مضطرين للثورة ورفع لواء المقاومة من جديد .

وهكذا أُصبح آل محمّد رمزاً للثورة والمظلومية ، وكانوا محوراً للأُمّة التي أدركت بعد فوات الأوان ذلك ، وأضحى الثوّار العلويّون نماذج كبرى للمقاومة في سبيل

الله ، فهم :

- أولاد علي وفاطمة رمز الطهر والإخلاص ، وهم أحقّ بالخلافة من غيرهم .
- وهم أيضاً أولاد النبيّ صلى الله عليه وآله فاحتلّوا من أجل ذلك منازل رفيعة في القلوب .
- كما أنّهم أضحوا رمزاً للمظلومية ، فلقد اغتصبت كلّ حقوقهم ، وصبّ بنو العباس عليهم الظلم صبّاً .

ومن هنا أصبح بنو علي رمزاً للقيادة المثلى والشعور بالمسؤولية تجاه الأُمّة والدين ، وكلّما تصاعد الظلم والجور ، كلّما تعمّق حبّ علي وأولاده في القلوب وتجذّر في النفوس .

ولمّا كانت الأخبار قد تضافرت حول المهدي الموعود وأنّه من ولد فاطمة فقد أضحى ذلك أملاً للمظلومين وهاجس الظالمين ، ولهذا كان العباسيّون يعدّون أبناء علي عليه السلام أكبر خطر يتهدّد حكومتهم ، وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه أنّ موسى الهادي قد عمّم أمراً بإلقاء القبض على بني عليّ وإرسالهم مخفورين إلى بغداد[١] .

وكان جلّ همّ أبي جعفر المنصور ـ لمّا تقلّد الخلافة ـ القبض على محمّد بن عبدالله بن الحسن[٢] .

غيبة العلويّين

من الظواهر التي تلفت النظر في العصر العباسي ظاهرة اختفاء بعض العلويّين وتواريهم عن الأنظار ، خاصّة ممن تتوفر فيهم بعض علامات المهدي ، إذ أن هؤلاء سرعان ما يصبحون محوراً لاستقطاب الأُمّة التي تبحث عن العدل الإسلامي ،

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٣/١٤٢ ، طبعة النجف / ١٣٨٤ .

(٢) مقاتل الطالبيّين : ١٤٣ .

ومن هنا فإنّهم سرعان ما يصبحون أيضاً هاجس الحاكمين الذي يقضّ مضاجعهم ويسلب الكرى من عيونهم .

ولقد حدّثنا التاريخ عن كثير من أبناء عليّ قضوا عمرهم مختبئين بعيداً عن عيون الجواسيس خوفاً من بطش الحاكمين .

ويذكر أبو الفرج في كتابه « مقاتل الطالبيّين » بعضاً منهم :

- سأل أبو جعفر (المنصور) لمّا حجّ عبدالله بن الحسن عن ابنيه ؟ فقال : لا علم لي بهما [١] .

- توارى عيسى بن زيد بعد وقعة باخمرى ومقتل إبراهيم في دور ابن صالح وطلبه المنصور ، ومن بعده المهدي [٢] .

- وتوارى محمّد بن القاسم أيام المعتصم ، وأيام الواثق [٣] . ثمّ أُخذ في أيام المتوكل ، فحمل إليه فحبس حتى مات في محبسه . ويقال : إنّه دسّ إليه سمّاً فمات منه [٤] .

- وتوارى يحيى بن عبدالله بن الحسن في خلافة الرشيد ثمّ سيق إلى السجن حيث قضى نحبه فيه أثر الجوع والتعذيب [٥] .

- وولّى موسى الهادي على المدينة رجلاً من ولد عمر بن الخطاب يعرف بعبد العزيز بن عبدالله فحمل على الطالبيّين وأساء إليهم وأفرط في التحامل عليهم وطالبهم بالعرض كل يوم ، وكانوا يعرضون في المقصورة وأخذ كل واحد منهم

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ١٤٣ ـ ١٤٥ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٢٧٨ .

(٣) المصدر المتقدّم : ٣٩٢ .

(٤) المصدر المتقدّم : ٣٠٨ ـ ٣٢١ .

(٥) المصدر المتقدّم : ٤١٥ ـ ٤١٨ .

بكفالة قرينه ونسيبه ، فضمن الحسين بن علي ويحيى بن عبدالله بن الحسن ، الحسن بن محمّد بن عبدالله بن الحسن ووافى أوائل الحاج ، وقدم من الشيعة نحو من سبعين رجلاً فنزلوا دار ابن أفلح بالبقيع وأقاموا بها ولقوا حسيناً (صاحب فخ) وغيره ، فبلغ ذلك (العمري) فأنكره ، ثمّ أشاع أنّ الحسن بن محمّد بن عبدالله قد وجد على شراب ، فضرب الحسن ثمانين سوطاً ، وأمر أن يدار في المدينة زيادة في التنكيل به وفضح بني هاشم .

ووصّى العمري على الطالبيّين عيسى الحائك مولى الأنصار فعرضهم يوم جمعة فلم يأذن لهم بالانصراف حتى بدأ أوائل الناس يجيئون إلى المسجد ، ثمّ أذن لهم فكان قصارى أحدهم أن يغدو ويتوضأ للصلاة ويروح إلى المسجد .

فلما صلّوا حبسهم في المقصورة إلى العصر ثمّ عرضهم فدعا باسم الحسين بن محمّد فلم يحضر ، فقال ليحيى والحسين بن عليّ : لتأتياني به أو لأحبسنكما فإن له ثلاثة أيام لم يحضر العرض ولقد خرج أو تغيب ، ثمّ هدّدهما بالقتل وهدْم الدور[1] .

وهناك أمثلة أُخرى تزخر بهاكتب التاريخ التي تصوّر الجوّ الخانق والرهيب السائد آنذاك .

ومن هنا فإن حركة التأليف وضبط الأحاديث لابدّ وأن تتأثّر سلباً وتأخذ مساراً لا يشكّل خطراً على الحاكمين ، إن لم نقل يخدم أهدافهم في كثير من الأحيان .

ولنتصوّر إذن ماذا سيكون موقف العبّاسيّين أزاء الذين يحاولون ضبط وتسجيل الأحاديث التي تبشّر بالمهدي الموعود الذي يعدّ أكبر الأخطار التي تهدّد حكمهم ووجودهم بالزوال .

---

(١) مقاتل الطالبيّين : ٢٩٤ ـ ٢٩٦ .

انحسار الحرّية

روى ابن عساكر: عن محمّد بن إسحاق، قال: أخبرني صالح بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف، قال: « ما مات عمر بن الخطّاب حتّى بعث إلى أصحاب رسول الله ﷺ فجمعهم من الآفاق: عبدالله بن حذيفة وأبا الدرداء وأباذر وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق!

قالوا: تنهانا؟

قال: لا، أقيموا عندي لا والله لا تفارقوني ما عشت فنحن نعلم نأخذ منكم ونرد عليكم، فما فارقوه حتى مات »[١].

وروى ابن عساكر، واللفظ لابن سعد، قال: « سمعت عثمان بن عفّان على المنبر يقول: لا يحلّ لأحد أن يروي حديثاً لم يسمع به في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر »[٢].

وجاء معاوية ليزيد الطين بلّة بتشجيع الوضع والتزوير فأصدر أمره باختلاق أحاديث في فضائل الصحابة والخلفاء والتشويش على أحاديث صحيحة في فضل عليّ عدوّه اللدود[٣].

وجاء المأمون سنة ٢١٨ هـ ليمارس الإرهاب الفكري على نطاق أوسع بافتعال ما دعي في التاريخ بـ« محنة خلق القرآن » حيث تعرّض للإهانة والشتم وحتّى التعذيب كثير من الفقهاء وكان السؤال: هل انّ القرآن قديم أم مخلوق؟ وكان يصدر حكم التكفير بكلّ من لا يؤمن بخلق القرآن، وعمّم أمراً إلى المدن والحواضر الإسلامية

---

(١) تاريخ مدينة دمشق: ٤٠/٥٠٠.

(٢) المصدر المتقدّم: ٣٩/١٨٠.

(٣) النصائح الكافية / محمّد بن عقيل: ٨٧، ط. ٣.

أسقط بموجبه شهادة من يقول بذلك. وهكذا وجد كثير من الفقهاء ـ وخشية على حياتهم ـ أنفسهم مضطرين إلى اعتناق رأي الخليفة[١].

وقد استدعي مالك بن أنس فقيه الحجاز الكبير بعد أن أفتى على خلاف رغبة والي المدينة جعفر بن سليمان وتعرّض للاهانة، ثمّ أمر بجلده سبعين سوطاً غادرته طريح الفراش مدّة من الزمن[٢].

ثمّ أُرسل إلى بغداد حيث طلب المنصور منه تأليف كتاب في الفقه والحديث وشدّد عليه في الكتابة عن بعض الرواة دون غيرهم وأن ينجز ذلك في عام واحد[٣].

وقد أحضر المعتصم العباسي أحمد بن حنبل وامتحنه في هل أنّ القرآن مخلوق أم قديم، ثمّ أمر بجلده بالسياط[٤].

وكان هارون الرشيد قد أمر بهدم دار عباد بن عوام، ومنعه من رواية الحديث[٥].

وطلب والي بخارى من محمّد بن إسماعيل البخاري أن يعرض عليه صحيحه حيث امتنع عن ذلك لمعرفته بمرامي الحكّام، وكان هذا سبباً في نفيه من وطنه إلى إحدى قرى سمرقند وتدعى «خرتنك» حيث قضى فيها بقية عمره، وكان يشكو إلى الله ظلم الولاة[٦].

وكان النسائي قد ألّف كتابه «الخصائص» وذكر فيه فضائل لعلي بن أبي طالب عليه السلام فاستدعي إلى دمشق وطلب منه أن يذكر فضائل لمعاوية في كتابه، فأجاب أنّه لا يعرف لمعاوية فضيلة إلّا دعوة الرسول عليه ألّا يشبع بطنه، فانهالوا

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢٠٢/٣.

(٢) و(٣) الإمامة والسياسة: ١٧٧/٢ ـ ١٨٠.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢٠٦/٣.

(٥) مقاتل الطالبيّين: ٢٤١.

(٦) تاريخ بغداد: ٣٣/٢.

عليه يضربونه فتوفّي متأثّراً بذلك[١].

وفي مثل هذا الجوّ العاصف المشحون بالخطر، وحيث فكرة المهدي قد تبلورت لتأخذ شكلاً سياسياً بالغ الخطورة، كيف يمكن في مثل هذا الجوّ أن ينبري رواة الحديث إلى نقل أخبار المهدي وأهدافه وعلامات ظهوره[٢]؟!

تساؤل

لو كانت علامات المهدي الموعود واضحة وصفاته بيّنة لدى المسلمين في صدر الإسلام لما حاروا في الأمر ولما وقعوا في الشبهات، لكنا نرى حتّى بعض أولاد الأئمّة الأطهار كانوا أيضاً في جهل بحقيقة الأمر، وإلّا كيف تجرأ البعض على ادّعاء المهدية لنفسه واستطاعوا بذلك خداع الناس؛ فلو كان المسلمون مطّلعين على اسم المهدي وكنيته واسم والديه وأنه الإمام الثاني عشر، وسائر العلامات الأُخرى، لما وقعوا في الخطأ، فتصوروا ـ مثلاً ـ أن محمّداً بن الحنفية أو محمّد بن عبدالله بن الحسن (المعروف بالنفس الزكية) أو حتّى الإمام الصادق أو ابنه موسى الكاظم، المهدي الذي بشّر به النبيّ.

كما مرّ سابقاً، إن فكرة المهدي عليه السلام كانت من الأُمور المعروفة في صدر الإسلام لدى كلّ المسلمين، حتّى انّ الشكّ لم يعتور أحداً منهم، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله يبين لعامّة المسلمين هذه المسألة بشكل إجمالي عامّ من أنّه ينهض بالأمر فيقيم العدل، ويدحض الباطل، ويجتث جذور الفساد، وأنّ الإسلام سيظهر على الدين كلّه، وكانت بشائر النبيّ أملاً للمسلمين. أمّا تفاصيل الموضوع فيمكن القول أنّها كانت من أسرار النبيّ التي كان يخصّ بها خلفاءه في الأرض، وبعض ثقاته من الصحابة.

---

(١) النصائح الكافية: ١٠٩.

(٢) اقتباسات حرّة من كتاب دادگستر جهان / إبراهيم الأميني.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخصّ بهذه الأخبار عليّاً ، وفاطمة وجمعاً من أُمناء سرّه . ومن هنا فقد تابع الأئمّة الأطهار سيرة جدّهم في ذلك ، فبيّنوا ما هو عام للمسلمين ، فيما ظلّت التفاصيل أسراراً يتوارثها الأئمّة جيلاً بعد جيل . ومن الواضح أنّ للنبيّ والأئمّة في ذلك هدفين :

الأوّل: حماية المهدي من عدوان الظالمين فيما لو تعرّفوا على هويته بشكل دقيق ؛ وبذلك أنقذوا حياته من الأخطار المحتملة . وكان النبيّ يدرك أن التفاصيل سوف تساعد في إرشاد الظالمين والجبّارين في معرفة هويته وبالتالي الحؤول دون ولادته أصلاً. ولقد كانت حكومات بني أُميّة ثمّ بني العباس لا تألوا جهداً في البطش والقسوة بكلّ من يخالف نهجها أو ينافس ملوكها في الخلافة ، فكيف بالمهدي الذي يهدّدها بالفناء والزوال . وإذا عرفنا أنّهم يبطشون حتّى بأقرب المقرّبين إليهم إذا شمّوا رائحة المنافسة مع بقاء أصل النظام ، فكيف بمن يدمّر عروشهم ويقضي على ظلمهم ويقيم دولة الحقّ ؟

من أجل هذا ،كان الأئمّة عليهم السلام يخشون حتّى بعض أقاربهم ويعملون بالتقيّة دفعاً للأخطار.

ففي حديث للإمام الصادق عليه السلام حدّث به المفضل وأبا بصير وأبان بن تغلب :

«كذلك بنو أُميّة وبنو العبّاس لمّا وقفوا على أنّ زوال ملك الأُمراء والجبابرة منهم على يد القائم منّا ناصبونا العداوة ، ووضعوا سيوفهم في قتل آل الرسول ، وإبادة نسله طمعاً منهم في الوصول إلى قتل القائم ، ويأبى الله عزّ وجلّ أن يكشف أمره لواحد من الظلمة إلّا أن يتمّ نوره ولو كره المشركون»[1].

وسأل أبو خالد الكابلي من الإمام محمّد الباقر عليه السلام أن يسمّي القائم «حتّى أعرفه باسمه» فقال : **يا أبا خالد ، سألتني عن أمر لو أن بني فاطمة عرفوه لحرصوا على أن**

---

(١) كمال الدين : ٢/٢٣.

يقطعوه بضعة بضعة »[١].

الثاني: إنّ الأئمّة كانوا يهدفون من وراء التبشير بالمهدي بثّ الأمل في النفوس المقهورة؛ حتّى لا يستولي عليها اليأس والقنوط. فالأمل بحياة خالية من الظلم والفساد هو الهدف الذي تسعى إليه الإنسانيّة وتحلم به. لهذا كان المهدي الموعود أملاً كبيراً في نفوس المسلمين، ولكن لو عرفوا تفاصيل ظهوره ومتى سيخرج على العالم ليطهّر الأرض وأنّه سيمرّ وقت طويل ـ وربما آلاف السنين ـ فإنّ اليأس سوف يغزو النفوس ويخرجون من الدين، وحينئذ يتجذّر الفساد والظلم ويندثر الإسلام.

إنّ أملاً بظهور المهدي، وانتصاره للحق والعدالة، وقضاءه على الفساد والانحراف سوف يحيي القلوب فتترقب اليوم الموعود. ومن المؤكد أنّ هذه الحالة لن تحصل إلّا بإخفاء التوقيت الحقيقي لموعد الظهور والثورة.

قال يقطين لإبنه علي: ما بالنا قيل لنا فكان وقيل لكم فلم يكن؟

فقال علي: إنّ الذي قيل لكم ولنا من مخرج واحد؛ غير أن أمركم قد حضركم فأُعطيتم محضه وكان كما قيل لكم، وإن أمرنا لم يحضر فعللنا بالأماني، ولو قيل إنّ هذا الأمر لا يكون إلى مائتي سنة أو ثلاثمائة سنة لقست القلوب ولرجعت عامّة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرعه وما أقربه تألّفاً لقلوب الناس وتقريباً للفرج[٢].

هل كان للإمام العسكري عليه السلام ولد؟

أُشيع في سنة ٢٦٠ هـ أنّ الإمام الحسن عليه السلام توفّي ولم يكن له ولد، وهذا يتضارب مع الروايات التي تقول انّ المهدي هو ابن الإمام العسكري عليه السلام.

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٢٠٢، ط. ٢.

(٢) المصدر المتقدّم: ٢٠٧.

غير أنه يمكن إثبات ما نقوله بعدّة طرق :

الأوّل : ورد في كثير من الأحاديث النبويّة الشريفة وكذا الأحاديث المروية عن الأئمّة الطاهرين عليهم السلام ، أنّه سيكون للحسن بن عليّ عليه السلام ولد ينهض بالأمر بعد غيبة طويلة ، فيصلح على يديه شأن العالم ويملأ الأرض عدلاً . وقد تضافرت الروايات على هذا المضمون وبعبارات شتّى . فهو في الأحاديث :

التاسع من ولد الحسين عليه السلام .

والسادس من ولد الصادق عليه السلام .

والخامس من ولد الكاظم عليه السلام .

والرابع من ولد الرضا عليه السلام .

والثالث من ولد الجواد عليه السلام .

الثاني: أفادت كثير من الروايات بأنّ المهدي هو ابن الإمام الحادي عشر عليه السلام ؛ وهذه أمثلة :

- عن الصقر بن أبي دلف قال : سمعت علي بن محمّد بن علي الرضا عليهم السلام يقول : « **إنّ الإمام بعدي الحسن ابني ، وبعد الحسن ابنه القائم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً جوراً** »[1] .

الثالث: إنّ الإمام الحسن العسكري عليه السلام قد أخبر به .

عن علي بن همّام ، قال : « سمعت محمّد بن عثمان العمري يقول : سمعت أبي يقول : سئل أبو محمّد الحسن بن عليّ عليهما السلام وأنا عنده عن الخبر الذي روي عن آبائه عليهم السلام **أن الأرض لا تخلو من حجّة لله على خلقه إلى يوم القيامة ، وأنّ من مات**

---

(١) كمال الدين : ٢/٣٨٣ ، الحديث ١٠ . إثبات الهداة : ٦/٢٧٥ .

ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية.

فقال عليه السلام: **إنّ هذا حقّ كما أنّ النهار حقّ.**

فقيل له: يابن رسول الله، فمن الحجّة والإمام بعدك؟

فقال: **ابني محمّد، وهو الإمام والحجّة بعدي، من مات ولم يعرفه مات ميتة جاهلية، أما إنّ له غيبة يحار فيها الجاهلون، ويهلك فيها المبطلون، ويكذب فيها الوقّاتون، ثمّ يخرج فكأنّي أنظر إلى الأعلام البيض تخفق فوق رأسه بنجف الكوفة»**[1].

الرابع: أنّ الإمام العسكري عليه السلام نفسه قد بشّر بعض أصحابه بميلاده:

- عن أحمد بن إسحاق، قال: «سمعت أبامحمّد الحسن بن علي العسكري عليهما السلام يقول: **الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتّى أراني الخلف من بعدي، أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خلقاً وخُلقاً، يحفظه الله تبارك وتعالى في غيبته، ثمّ يظهره فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً**»[2].

- عن أحمد بن الحسن القمي: «لمّا ولد الخلف الصالح عليه السلام ورد عن مولانا أبي محمّد الحسن بن علي عليه السلام، إلى جدّي أحمد بن إسحاق كتاب، وإذا فيه مكتوب بخطّ يده عليه السلام الذي كان يرد به التوقيعات عليه: **ولد لنا مولود فليكن عندك مستوراً، وعن جميع الناس مكتوماً، فإنّا لم نظهر عليه إلّا الأقرب لقرابته، والوليّ لولايته، أحببنا إعلامك ليسرّك الله به مثل ما سرّنا، والسلام**»[3].

- قال أبو جعفر العمري: «لمّا ولد الخلف المهدي صلوات الله عليه سطع

---

(١) كمال الدين: ٢/٤٠٩، الحديث ٩. كفاية الأثر: ٢٩٢. بحار الأنوار: ٥١/١٦٠.

(٢) كمال الدين: ٢/٤٠٨، الحديث ٧. كفاية الأثر: ٢٩٠. بحارالأنوار: ٥١/١٦١.

(٣) كمال الدين: ٢/٤٣٣، الحديث ١٦. إثبات الهداة: ٦/٤٣٢.

نور من فوق رأسه إلى عنان السماء ، ثمّ سقط لوجهه ساجداً لربّه ـ تعالى ذكره ـ ثم رفع رأسه وهو يقول : **﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾**[1]. وقال : وكان مولده ليلة الجمعة »[2].

ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث أنّه كان للإمام الحسن العسكري عليه السلام ولد وهو المهدي عليه السلام .

رؤية المهدي عليه السلام في صباه

كيف يعقل أن يولد صبيّ ويبقى ميلاده سرّاً ، ثمّ تمرّ خمسة أعوام فلا يعرف ذلك أحد ؟ لقد كان الإمام العسكري عليه السلام يعيش في سامرّاء ، وكان يلتقي الناس والناس يزورونه ، فكيف يبقى الأمر سرّاً ، ثمّ نصدّق رجلاً واحداً هو عثمان بن سعيد ؟

صحيح أن الأمر وفي تلك الظروف ينبغي أن يبقى طيّ الكتمان ولكن المصلحة اقتضت أن يطّلع البعض على ذلك السرّ الخطير وهذه نماذج :

- لقد شهدت حكيمة ـ وهي بنت الإمام محمّدالجواد عليه السلام ـ ميلاد المهدي عليه السلام ، وروت ذلك بالتفصيل :

بعث إليّ أبو محمّد عليه السلام سنة خمس وخمسين ومائتين في النصف من شعبان وقال : **يا عمّة ، اجعلي الليلة إفطارك عندي فإنّ الله عزّ وجلّ سيسّرك بوليّه وحجّته على خلقه ، خليفتي من بعدي .**

---

(١) آل عمران : ١٨ و ١٩.

(٢) كمال الدين : ٤٣٣/٢ ، الحديث ١٣. مدينة المعاجز : ٣٧/٨. بحار الأنوار : ١٦/١ ، الحديث ١٩.

قالت حكيمة : فتداخلني لذلك سرور شديد ، وأخذت ثيابي عليّ ، وخرجت من ساعتي حتّى انتهيت إلى أبي محمّد ﷺ ، وهو جالس في صحن داره ، وجواريه حوله ، فقلت : جعلت فداك يا سيّدي ، الخلف ممّن هو ؟

قال : **من سوسن** ، فأدرت طرفي فيهنّ فلم أر جارية عليها أثر غير سوسن .

قالت حكيمة : فلمّا أن صلّيت المغرب والعشاء الآخرة أتيت بالمائدة فأفطرت أنا وسوسن وبايتّها في بيت واحد ، فغفوت غفوة ثمّ استيقظت ، فلم أزل مفكرة فيما وعدني أبو محمّد ﷺ من أمر وليّ الله ﷺ ، فقمت قبل الوقت الذي كنت أقوم في كلّ ليلة للصلاة ، فصلّيت صلاة الليل حتّى بلغت إلى الوتر ، فوثبت سوسن فـزعة وخرجت ، وأسبغت الوضوء ، ثمّ عادت فصلّت صـلاة الليـل وبـلغت إلى الوتـر ، فوقع في قلبي أنّ الفجر قد قرب ، فقمت لأنظر فإذا بالفجر الأوّل قد طلع ، فتداخل قلبي الشكّ من وعد أبي محمّد ﷺ ، فناداني من حجرته : **لا تشكّي ، وكأنّك بالأمر الساعة قد رأيته إن شاء الله تعالى** .

قالت حكيمة : فاستحييت من أبي محمّد ﷺ وممّا وقع في قلبي ، ورجعت إلى البيت وأنا خجلة ، فإذا هي قد قطعت الصلاة وخرجت فزعة ، فلقيتها عـلى بـاب البيت ، فقلت : بأبي أنتِ وأمّي ، هل تحسّين شيئاً ؟

قالت : نعم يا عمّة ، إنّي لأجد أمراً شديداً .

قلت : لا خوف عليك إن شاء الله تعالى ، وأخذت وسادة فألقيتها في وسط البيت وأجلستها عليها وجلست منها حيث تقعد المرأة من المرأة للولادة ، فقبضت على كفّي وغمزت غمزة شديدة ، ثمّ أنّت أنّة وتشهّدت ونظرت تحتها ، فإذا أنا بوليّ الله صلوات الله عليه متلقّياً الأرض بمساجده ، فأخذت بكتفيه فأجلسته فـي حـجري فإذا هو نظيف مفروغ منه .

فناداني أبو محمّد ﷺ : **يا عمّة ، هلمّي فأتيني بابني** ، فأتيته به .

فتناوله وأخرج لسانه فمسحه على عينيه ففتحها، ثمّ أدخله في فيه فحنّكه، ثمّ أدخله في أُذنيه وأجلسه في راحته اليسرى، فاستوى وليّ الله جالساً، فمسح يده على رأسه، وقال له: **يا بني، انطق بقدرة الله**، فاستعاذ وليّ الله عليه السلام من الشيطان الرجيم واستفتح:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(١)

وصلّى على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام واحداً واحداً، حتّى انتهى إلى أبيه، فناولنيه أبو محمّد عليه السلام وقال: **يا عمّة، ردّيه إلى أُمّه حتّى تقرّ عينها ولا تحزن، ولتعلم أنّ وعد الله حقّ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**(٢).

فرددتُه إلى أُمّه وقد انفجر الفجر الثاني، فصلّيت الفريضة وعقّبت إلى أن طلعت الشمس، ثمّ ودّعت أبا محمّد عليه السلام وانصرفت إلى منزلي.

فلمّا كان بعد ثلاث اشتقت إلى وليّ الله، فصرت إليهم، فبدأت بالحجرة التي كانت سوسن فيها، فلم أر أثراً ولا سمعت ذكراً، فكرهت أن أسأل، فدخلت على أبي محمّد عليه السلام فاستحييت أن أبدأه بالسؤال، فبدأني فقال: **هو يا عمّة، في كنف الله وحرزه وستره وغيبه حتّى يأذن الله له، فإذا غيّب الله شخصي وتوفّاني ورأيت شيعتي قد اختلفوا فأخبري الثقات منهم، وليكن عندك وعندهم مكتوماً، فإنّ وليّ الله يغيّبه الله عن خلقه، ويحجبه عن عباده فلا يراه أحد**(٣).

---

(١) القصص: ٥ و ٦.

(٢) اقتباس من سورة القصص: ١٣.

(٣) الغيبة / الطوسي: ٢٣٤، الحديث ٢٠٤.

- روت مارية ونسيم وكانتا خادمين في منزل الإمام الحسن: «لمّا خرج صاحب الزمان عليه السلام من بطن أُمّه سقط جاثياً على ركبتيه، رافعاً سبّابته نحو السماء، ثمّ عَطَسَ فقال: «**الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله، عبداً داخراً لله غير مستنكف ولا مستكبر.**

ثمّ قال: **زعمتِ الظلمة أنّ حجّة الله داحضة، ولو أُذن لنا في الكلام لزال الشكّ**»[١].

- وقال أبو غانم الخادم: «ولد لأبي محمّد عليه السلام ولد فسمّاه محمّداً، فعرضه على أصحابه يوم الثالث وقال: **هذا صاحبكم من بعدي وخليفتي عليكم، وهو القائم الذي تمتدّ إليه الأعناق بالانتظار، وإذا امتلأت الأرض جوراً وظلماً خرج فملأها قسطاً وعدلاً**»[٢].

- وروى أبو علي الخيزراني، عن جارية كان قد وهبها للإمام الحسن عليه السلام أنّها كانت حاضرة يوم ولد صاحب الأمر، وأنّ اسم أُمّه صقيل[٣].

- وقال الحسن بن الحسين العلوي: «دخلت على أبي محمّد الحسن بن علي عليه السلام بـ(سرّ من رأى) فهنّأته بولادة ابنه القائم عليه السلام»[٤].

- وعن عبدالله بن عباس العلوي، عن أبي الفضل الحسين بن الحسن، قال: «وردت على أبي محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام بسرّ من رأى فهنّأته بولادة ابنه عليه السلام»[٥].

- وعن الحسن بن المنذر، عن حمزة بن أبي الفتح، قال: «جاءني يوماً فقال لي: البشارة، ولد البارحة في الدار مولود لأبي محمّد عليه السلام وأمر بكتمانه.

---

(١) كمال الدين: ٤٣٠، الحديث ٥. الغيبة / الطوسي: ٢٤٤، الحديث ٢١١.

(٢) كمال الدين: ٤٣١/٢، الحديث ٨. إثبات الهداة: ٤٣١/٦.

(٣) كمال الدين: ٤٣١/٢، الحديث ٧. منتخب الأثر: ٣٤٣.

(٤) كمال الدين: ٤٣٤/٢، الحديث ١. إثبات الهداة: ٤٣٣/٦.

(٥) الغيبة / الطوسي: ٢٥١، الحديث ٢٢١. إثبات الهداة: ٢٠/٧.

قلت : وما اسمه .

قال : سمّي بمحمّد صلى الله عليه وآله »[١] .

- وقال أحمد بن إسحاق : « دخلت على أبي محمّد الحسن بن علي عليه السلام وأنا أُريد أن أسأله عن الخلف بعده .

فقال لي مبتدئاً : **يا أحمد بن إسحاق ، إنّ الله تبارك وتعالى لم يُخل الأرض منذ خلق آدم ، ولا تخلو إلى يوم القيامة ، من حجّة الله على خلقه . (به) يدفع البلاء عن أهل الأرض ، وبه ينزل الغيث ، وبه يخرج بركات الأرض** »[٢] .

- وعن معاوية بن حكيم ومحمّد بن أيوب ومحمّد بن عثمان العمري ، قالوا : « عرض علينا أبو محمّد الحسن بن علي عليه السلام ابنه ونحن في منزله ، وكنّا أربعين رجلاً ، فقام إليه عثمان بن سعيد العمري ، فقال له : يابن رسول الله ، أُريد أن أسألك عن أمر أنت أعلم به منّي .

فقال عليه السلام له : **اجلس يا عثمان** ، فقام مغضباً ليخرج ، فقال : **لا يخرجنّ أحد** .

فصاح عليه السلام بعثمان ، فقام على قدميه ، فقال عليه السلام : **أُخبركم بما جئتم له ؟**

فقالوا : نعم ، يابن رسول الله .

قال : **جئتم تسألوني عن الحجّة بعدي** .

قالوا : نعم ؛ فإذا غلام كأنّه فلقة قمر أشبه الناس بأبي محمّد عليه السلام ، فقال : **هذا إمامكم من بعدي ، وخليفتي عليكم ، أُطيعوه ولا تتفرّقوا من بعدي فتهلكوا في أديانكم ، ألا وإنّكم لا ترونه من بعد يومكم هذا** »[٣] .

---

(١) كمال الدين : ٤٣٢ ، الحديث ١١ . إثبات الهداة : ٤٣٢/٦ .

(٢) كمال الدين : ٣٨٤ ، الحديث ١ . بحار الأنوار : ٢٣/٥٢ ، الحديث ١٦ .

(٣) كمال الدين : ٤٣٥/٢ ، الحديث ٢ . الغيبة / الطوسي : ٣٥٧ ، الحديث ٣١٩ . معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام : ٢٥١/٤ ، الحديث ١٢٩٤ .

- وقال أبو هارون: «رأيت صاحب الزمان ووجهه يضيء كأنّه القمر ليلة البدر»[١].

- ويقول يعقوب: «دخلت على أبي محمّد الحسن بن علي عليه السلام وهو جالس على دكّان في الدار، وعن يمينه بيت عليه ستر مسبل، فقلت: يا سيّدي، مَن صاحب هذا الأمر؟

قال: فقال: **ارفع الستر**، فرفعته، فخرج إلينا غلام خماسي، له عشر أو ثمان أو نحو ذلك، واضح الجبين، أبيض الوجه، درّي المقلتين، شثن الكفّين، معطوف الركبتين، في خدّه الأيمن خال، وفي رأسه ذؤابة، فجلس على فخذ أبي محمّد عليه السلام، ثمّ قال لي: **هذا صاحبكم**»[٢].

- وعن عمرو الأهوازي قال: «أراني أبو محمّد ابنه وقال: **هذا صاحبكم من بعدي**»[٣].

- وقال الخادم الفارسي: «كنت بباب الدار خرجت جارية من البيت ومعها شيء مغطّى، فقال لها أبو محمّد عليه السلام: **اكشفي عما معك**، فكشفت، فإذا غلام أبيض حسن الوجه، فقال: **هذا إمامكم من بعدي**. فما رأيته بعد ذلك[٤].

- وقال أبو نصر الخادم: «دخلت على صاحب الزمان وهو في المهد»[٥].

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٢٥٠، الحديث ٢١٩.

(٢) كمال الدين: ٤٠٧، الحديث ٢. إعلام الورى: ٤١٣.

(٣) الكافي: ٣٢٨/١، الحديث ٣ و: ٣٣٢، الحديث ١٢. تقريب المعارف: ٤٢٧. الغيبة / الطوسي: ٢٣٤، الحديث ٢٠٣.

(٤) الكافي: ٣٢٩/١، الحديث ٦ و: ٥١٤، الحديث ٢. كمال الدين: ٤٣٥/٢، الحديث ٤. الغيبة / الطوسي: ٢٣٣، الحديث ٢٠٢. ينابيع المودّة: الباب ٨٢، الحديث ١.

(٥) إثبات الوصيّة: ١٥٨. ألقاب الرسول وعترته: ٨٥. إثبات الهداة: ٣٤٤/٧.

- وقال أبو علي بن مطهر: «رأيت ولد أبي محمّد وله قدر جليل»[١].

- وعن كامل بن إبراهيم: «دخلت على أبي محمّد الحسن وعلى باب البيت ستر، فجاءت الريح فكشفت طرف الستر، فإذا غلام كأنه القمر، فقال أبو محمّد: **يا كامل، قد أنبأتك بحاجتك هذا الحجّة من بعدي**»[٢].

- وعن سعد بن عبدالله: «رأيت مولاي أبا محمّد وعلى فخذه غلام»[٣].

- وعن حمزة بن نصير غلام أبي الحسن عليه السلام، عن أبيه، قال: «لمّا ولد السيّد عليه السلام تباشر أهل الدار بذلك، فلما نشأ خرج الأمر إليّ أن أبتاع في كل يوم مع اللحم قصب مخ، وقيل: إنّ هذا لمولانا الصغير»[٤].

- وقال إبراهيم بن محمّد: «لمّا همّ الوالي عمرو بن عوف بقتلي غلب علَيَّ خوف عظيم، فودّعت أهلي وتوجّهت إلى دار أبي محمّد عليه السلام لأُودّعه ـ وكنت أردت الهرب ـ، فلما دخلت عليه رأيت غلاماً جالساً في جنبه، وكان وجهه مضيئاً كالقمر ليلة البدر، فتحيّرت من نوره وضيائه، وكان ينسيني ما كنت فيه، فقال: **هو ابني وخليفتي من بعدي**»[٥].

وهؤلاء ثقات كان بعضهم أصحاباً للإمام، وكان بعضهم يعيش في منزله، وقد شهدوا جميعاً ولادة المهدي أو شاهدوه، وهذا ما يعزز الأخبار التي وردت عن

---

(١) ينابيع المودّة: الباب ٨٢، الحديث ٣. ملحقات إحقاق الحقّ: ٦٤٢/١٩.

(٢) إثبات الهداة: ٣٢٣/٧. ينابيع المودّة: الباب ٨٢، الحديث ٤. ملحقات إحقاق الحقّ: ٦٤٢/١٩.

(٣) كمال الدين: ٤٥٧/٢. بحار الأنوار: ٨٦/٥٢ و ٨٧.

(٤) إثبات الهداة: ١٨/٧. إثبات الوصية: ١٩٧.

(٥) إثبات الهداة: ٣٥٦/٧. مستدرك الوسائل: ٢٨١/١٢، الحديث ٤.

ومن أجل المزيد من أخبار ولادة الإمام المهدي عليه السلام يمكن الرجوع إلى «تبصرة الولي فيمن رأى القائم المهدي» للسيّد هاشم البحراني / بحار الأنوار: ٥١، الباب ١٧ و ١٩.

النبيّ وآله عليهم السلام.

الوصيّة

إنّ الإمام قد أوصى قبل وفاته إلى أُمّه وقد ثبت ذلك لدى القضاء آنذاك، ولم يرد لابنه ذكر في الوصيّة، كما وقد قسّم الميراث بعد وفاته بين أُمّه وأخيه(١)، ولو كان له ولد لورد له ذكر في الوصيّة حتّى لا يحرم من الميراث.

لقد عمد الإمام الحسن عليه السلام إلى إخفاء الأمر عمداً خوفاً من بطش الحاكمين، وقد ذكرنا كيف أنّ الإمام كان يخفي ولادته حتّى عن أصحابه إلّا قليلاً منهم.

يقول إبراهيم بن إدريس: «وجه إليّ مولاي أبو محمّد عليه السلام بكبش وقال: **عقّه عن ابني فلان وكل وأطعم أهلك**، ففعلت. ثمّ لقيته بعد ذلك فقال لي: **المولود الذي ولد لي مات**، ثمّ وجّه إليّ بكبشين وكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

عقّ هذين الكبشين عن مولاك، وكل هنّأك الله، وأطعِم إخوانك

ففعلت، ولقيته بعد ذلك فما ذكر لي شيئاً»(٢).

كما أنّ الإمام الصادق عليه السلام ولكي يخفي وصيّه قد عمد إلى عمل مشابه، إذ أوصى إلى خمسة أشخاص؛ وهم المنصور العباسي الخليفة آنذاك، ومحمّد بن سليمان والي المدينة، وعبدالله وموسى وهما ولداه، إضافة إلى زوجته حميدة(٣). وكان هذا الاجراء خوفاً من الإمام على حياة وصيّه الكاظم عليه السلام من الأخطار. ولقد صدق

---

(١) الكافي: باب ولادة أبي محمّد الحسن بن عليّ عليهما السلام.

(٢) إثبات الوصية: ١٩٨. الغيبة / الطوسي: ٢٤٥، الحديث ٢١٤. بحار الأنوار: ٢٢/٥١. إثبات الهداة: ٧٨/٧.

(٣) الكافي: ٣٠٧/١، الحديث ١٣.

حدس الإمام لأن المنصور كان قد أصدر أمراً بقتل الوصي .

لماذا بقي الآخرون في جهل بولادته ؟

عادة ما يطّلع الآخرون عندما يولد لأحدهم صبيّ ، خاصّة الجيران والأقارب والأصدقاء ، ويزداد الاحتمال قوّة لو كان الشخص معروفاً حتّى لا يحدث اختلاف فيمن يرثه ، فكيف يمكن ذلك وهذا الشخص هو الإمام الحسن العسكري عليه السلام الذي يحظى بمنزلة سامية لدى الشيعة ، هل يعقل أن يرزقه الله ولداً ويبقى الناس في غفلة عن ذلك ؟

عندما تكون الظروف عادية فإنّ هكذا تساؤل هو منطقي تماماً ، ولكن الإمام الحسن عليه السلام كان يعيش ظروفاً استثنائية ؛ ولهذا كان يتّخذ جانب الحذر الشديد في إخفاء ولادته . وهناك من الروايات الكثير عن الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة تشير إلى أنّ خفاء ولادته هو أحد علاماته .

عن سعيد بن جبير ، عن علي بن الحسين عليه السلام ، قال : « **القائم منّا تخفى ولادته على الناس حتّى يقولوا : لم يولد بعد ، ليخرج حين يخرج وليس لأحدٍ في عنقه بيعة** »[1].

وعن عبدالله بن عطاء ، قال : « قلت لأبي جعفر عليه السلام : إنّ شيعتك بالعراق كثير ، ووالله ما في أهل البيت مثلك ، كيف لا تخرج ؟

فقال : **يا عبدالله بن عطاء ، قد أمكنت الحشوة من أُذنيك ، والله ما أنا بصاحبكم** .

قلت : فمن صاحبنا ؟

قال : **انظروا من تخفى على الناس ولادته فهو صاحبكم** »[2].

---

(١) كمال الدين : ٣٢٢/١ ، الحديث ٦ . إعلام الورى : ٤٠٢ . بحار الأنوار : ١٣٥/٥١ .

(٢) الكافي : ٣٤٢/١ ، الحديث ٢٦ . الغيبة / النعماني : ١٦٧ ، الحديث ٧ و : ١٦٨ ، الحديث ٨ . كمال الدين : ٣٢٥/١ ، الحديث ٢ . تقريب المعارف : ٤٣٢ .

كما ذكرت سابقاً أنّ موضوع المهدي بات من المسائل الحساسة جدّاً منذ صدر الإسلام، وكانت أحاديث النبيّ والأئمّة تدور بين أذهان عامّة المسلمين، وهم يدركون أن المهدي الذي بشّر به النبيّ سيكون من ولد فاطمة عليها السلام ومن ذرّية الحسين عليه السلام. وكان الحاكمون يدركون ذلك تماماً ويعلمون أنّ دولتهم ستزول على يديه، ولهذا كانوا متأهبين لدفع الأخطار مهما كان الثمن.

ومن أجل هذا كانت منازل بني هاشم تخضع لمراقبة شديدة خاصّة منزل الإمام الحسن العسكري، فقد كان هناك جواسيس في العلانية والسرّ يراقبون ما يجري في بيت الإمام.

فالتاريخ ينقل أن المعتمد الخليفة العباسي عيّن عدّة من النسوة اللاتي يعملن قابلات فكن يتردّدن بين الحين والآخر على منازل وبيوت بني هاشم للتفتيش.

وعندما اطّلع المعتمد على خبر يفيد بمرض الإمام أرسل جواسيسه لتكثيف المراقبة ليل نهار، وفتّش منزل الإمام عليه السلام أكثر من مرّة، والأنكى من هذا كلّه أنّه أمر بعض النسوة القابلات بإجراء فحوصات والتأكّد من حالات الحمل حتّى لدى الجواري؛ وقد أبدت إحدى القابلات شكوكاً حول إحدى الجواري فتمّ اعتقالها واحتجازها في القصر، وعيّن الخليفة «نحرير الخادم» مراقباً عليها، ولم يطلق سراحها إلّا بعد أن تأكّد لهم عدم حملها.

ولمّا توفّي الإمام الحسن عليه السلام أصدر الخليفة أمراً يقضي بتفتيش دار الإمام والتحقيق في الصبيّ الموعود[١].

فكيف يتصرّف الإمام في جوّ خانق مليئ بالجواسيس والعيون، وكيف يتسنّى له حماية ولده من بطش الطغاة؟

---

(١) كمال الدين: ٤٣/١.

وأمامنا القرآن الكريم الذي تعرّض أكثر من مرّة إلى قصّة سيّدنا موسى بن عمران عليه السلام وكيف أنّ فرعون أمر باحتجاز النسوة الحوامل في بني إسرائيل وقتل جميع الأطفال الذكور، ومع ذلك فقد ظلّ حمل أُم موسى خافياً كما ظلّت ولادته خافية لأمرٍ قدّره الله سبحانه.

غير أننا نرى الإمام الحسن عليه السلام مع كلّ تلك الظروف الرهيبة يطلع بعض أصحابه المخلصين على ولادته، فرآه بعضهم أكثر من مرّة وكان يشدّد عليهم في إخفاء أمره.

أُمّ المهدي عليه السلام

ذكرت لأُمّ المهدي عليه السلام أسماء عديدة من بينها: نرجس، صقيل، ريحانة، سوسن، مريم، ويعود هذا الاختلاف إلى جملة من العوامل:

الأوّل: تعدّد الجواري اللاتي كنّ في منزل الإمام الحسن عليه السلام.

عن حكيمة عمّته، قالت: «انتهيت إليه وهو جالس في حصن داره وجواريه حوله فقلت: جعلت فداك يا سيّدي، الخلف ممّن هو؟

قال: **من سوسن**»[(١)].

وفي رواية أُخرى: عن حكيمة أيضاً تقول: «دخلت عليه، فقلت له كما أقول، ودعوت كما أدعو، فقال: **يا عمّة، أما إنّ الذي تدعين الله أن يرزقنيه يولد في هذه الليلة.. فاجعلي إفطارك معنا**.

فقلت: يا سيّدي، ممّن يكون هذا الولد العظيم؟

فقال عليه السلام: **من نرجس، يا عمّة**»[(٢)].

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٢٣٥، الحديث ٢٠٤. بحار الأنوار: ١٧/٥١.

(٢) كمال الدين: ٤٢٤/٢، الحديث ١ و: ٤٢٦، الحديث ٢. بحار الأنوار: ١٧/٥١.

وهناك روايات أُخرى ترد فيها أسماء أُخرى وكلّها تدلّل على أن له جواري عديدات.

الثاني: كما أُشير سابقاً أن الظروف التي تحيط ميلاد الإمام كانت خطيرة، فكلّ المؤشرات كانت تؤكّد توجس السلطات من قرب ولادته، ولذا أحاطوا حياة الإمام الحسن عليه السلام بالجواسيس، بل تعدّت المراقبة لتشمل كلّ بيوت بني هاشم والقبض على كل صبيّ في المهد.

وبعد التأكيد على هذين العاملين ينبغي القول: إنّ الله سبحانه قد قدّر ولادته رغم كلّ الظروف الخانقة، وكانت إرادته الغالبة ولا رادّ لأمره، وهناك مؤشرات لليد الغيبية التي أمدّته بأسباب البقاء:

- لم تظهر على والدته آثار الحمل حتى ليلة المخاض.
- لم يذكر الإمام الحسن عليه السلام اسم والدته لأحد مبالغة في الاحتياط.
- لم يشهد الولادة أحد سوى عمّة الإمام الحسن عليه السلام السيّدة حكيمة وبعض الجواري.

وهكذا تمّ أمر الله، ففي قلب الظلام من ليلة النصف من شعبان ولد الصبيّ الموعود في جوّ يسوده الحذر والكتمان.

وتمرّ الأيام، ولا يشعر أحد بذلك؛ لهذا ثار جدل حول الموضوع، وأنكر الكثير من أصحاب الإمام موضوع ولادته، كما ثار خلاف لدى المؤمنين حول اسم والدته، فمن قائل انّها نرجس، أو صقيل، أو انّها ريحانة أو سوسن حتّى ان السيّدة حكيمة - ولكي يبقى الموضوع خافياً - كانت تقول مرّة إنّ نرجس هي أُمّ المهدي، ومرّة أُخرى تصرّح أنّها سوسن. وبالطبع لا تخفى المصلحة في هذا الاختلاف ودوره في حفظ الصبيّ من الأخطار المحدقة.

عن أحمد بن إبراهيم، قال: «دخلت على حكيمة بنت محمّد بن علي

الرضا عليهما السلام في سنة اثنتين وستّين ومائتين بالمدينة ، فكلّمتها من وراء حجاب وسألتها عن دينها ، فسمّت لي من تأتمّ به ، ثمّ قالت : فلان بن الحسن عليه السلام ، فسمّته .

فقلت لها : جعلني الله فداك ، معاينة أو خبراً .

فقالت : خبراً عن أبي محمّد عليه السلام كتب به إلى أُمّه .

فقلت لها : فأين المولود ؟

فقالت : مستور .

فقلت : فإلى من تفزع الشيعة ؟

فقالت : إلى الجدّة أُمّ أبي محمّد عليه السلام .

فقلت : أقتدي بمن وصيته إلى المرأة ؟

فقالت : اقتداء بالحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، إنّ الحسين عليه السلام أوصى إلى أُخته زينب بنت عليّ عليهما السلام في الظاهر ، وكان ما يخرج عن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهما السلام من علم ينسب إلى زينب بنت عليّ تستّراً على عليّ بن الحسين عليهما السلام .

ثمّ قالت : إنّكم قوم أصحاب أخبار ، أما رويتم أنّ التاسع من ولد الحسين عليه السلام يقسم ميراثه وهو في الحياة »[1] .

وفي هذه الرواية نجد أن السيّدة حكيمة كتمت شيئاً ونسبت ولادة المهدي إلى والده الإمام الحسن العسكري عليه السلام ، في حين نراها في رواية أُخرى تفصل الموضوع وتكون هي الشاهد الأساس في ولادته ، وأنّها تحدّثت مع المهدي في صباه أكثر من مرّة . وتقول : « والله إنّي لأراه صباحاً ومساءً ، وانه لينبئني عمّا تسألون عنه »[2] .

وهناك حادث له دلالته ، فقد نشب خلاف في إرث الإمام الحسن عليه السلام بين أخيه

---

(١) كمال الدين : ٥٠١/٢ ، الحديث ٢٧.

(٢) كمال الدين : ٤٢٩/٢.

وأُمّه ، ولا يستبعد أن يكون الحادث قد تمّ بتحريض « جعفر » المعروف بالكذّاب ، وكان على صلات وثيقة بالسلطة من أجل إثارة خلاف يمكن أن يكون عاملاً في الكشف عن وجود ابن للإمام الحسن العسكري عليه السلام ، ولقد كانت الخلافة العباسية تتوجّس من وجود الصبيّ الذي سيكون بقاؤه سبباً في زوالها.

يذكر الصدوق في كتابه «كمال الدين» : « قدمت أُمّ أبي محمّد عليه السلام من المدينة واسمها (حديث) حين اتصل بها الخبر إلى « سرّ من رأى » فكانت لها أقاصيص يطول شرحها مع أخيه جعفر ومطالبته إيّاها بميراثه وسعايته بها إلى السلطان ، وكشفه ما أمر الله عزّ وجلّ بستره ، فادعت عند ذلك (صقيل) أنّها حامل ، فحملت إلى دار المعتمد ، فجعل نساء المعتمد وخدمه ، ونساء الموفق وخدمه ، ونساء القاضي ابن أبي الشوارب يتعاهدن أمرها في كل وقت ويراعينها إلى أن دهمهم أمر الصفّار وموت عبيدالله بن يحيى بن خاقان بغتة ، وخروجهم من (سرّ من رأى) وأمر صاحب الزنج بالبصرة ، وغير ذلك فشغلهم ذلك عنها »[١].

ومن المحتمل أن تكون الأسماء التي وردت حول أُمّه تعود إلى جارية واحدة هي أُمّه ، فمن عادة العرب آنذاك مناداة من يكرّمونه بعدّة أسماء ، وهناك رواية تعضد هذا الاحتمال أوردها الشيخ الصدوق في كتابه «كمال الدين» ، بسنده عن غياث أنّه قال : « ولد الخلف المهدي صلوات الله عليه يوم الجمعة ، وأُمّه ريحانة ، ويقال لها : نرجس ، ويقال لها : صقيل ، ويقال لها : سوسن ، إلّا أنّه قيل لسبب الحمل صقيل »[٢].

وفي الختام : إنّه بالرغم من وجود اختلاف في اسم الأم إلّا أن هذا لا يخدش في أصل الموضوع ، فقد تضافرت الروايات والأخبار حول ولادته ، خاصّة وقد أكّدت

---

(١) كمال الدين : ٤٧٤/٢ ، الحديث ٢٥.

(٢) كمال الدين : ٤٣٢/٢ ، الحديث ١٢. بحار الأنوار : ١٥/٥١ ، الحديث ١٥.

السيّدة حكيمة ذلك مرّات عديدة ، وهي امرأة جليلة القدر ، موثوقة الرواية ، إضافة إلى كثير ممّن رأوا الصبيّ فيما بعد في منزل والده .

إشكالية السنّ

ولو آمنّا بأن للإمام الحسن عليه السلام ولداً ، فكيف يمكن أن يكون إماماً ، وهو ما يزال صبيّاً في الخامسة من عمره ؟

كثيرون يتصوّرون أنّ مقام النبوّة والإمامة مقام ظاهري لا يتطلّب استعداداً ذاتياً ، فمن الممكن مثلاً انتخاب أبي سفيان بدل محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله ، أو يكون طلحة والزبير محلّ علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ غير أنّ الأخبار والروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام لا تصور الأمر هكذا ، لأنّ النبوّة مقامٌ رفيع ووسام عظيم لا يتقلّده إلّا المؤهّل لهذه المنزلة ، وهو من يختاره الله لذلك ، ويوحي إليه علمه وأمره ونهيه ، ويكون معصوماً عن الخطأ ، بعيداً عن الزلل ، وهكذا بالنسبة للإمامة ، فهي مقام شامخ ومنزلة رفيعة ، فالإمام في منزلة النبيّ من حيث العصمة ، وله ما للنبيّ عدا الوحي ، فهو المثال والحجّة الذي اختاره الله لعباده .

ومن هنا يكون الإمام ـ بل ينبغي له أن يكون ـ في الدرجة الرفيعة من الكمال الإنساني والاستعداد الروحي والقدرات العقلية حتّى يكون محلاً للحقائق الكليّة والإفاضات الغيبية ، فلا يتطرّق إليه الخطأ ، ولا يتسلّل إليه النسيان .

وإذن فإن النبيّ والإمام لهما امتيازات دون سائر البشر واستعداد ذاتي خصّهما الله به ، وهو موجود فيهما منذ الصغر ، ولكن متى توافرت الظروف وانتفت الموانع عرف بأنّه إمام أو نبي فيتحمل مسؤوليته في إبلاغ الشريعة والحفاظ عليها .

قال سبحانه في كتابه المجيد : **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ**

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ [١].

وهذه الآيات تدلّ على أنّ سيّدنا عيسى عليه السلام كان نبيّاً منذ أن كان في المهد صبيّاً. وعلى هذا فما هو المانع في أن يكون صبيّ في الخامسة إماماً منصوباً من قِبل الله لحفظ شريعته، ومبلِّغاً لها؟ والتاريخ يؤكّد أنّ الإمام محمّداً الجواد عليه السلام كان له من العمر سبعة أو تسعة أعوام يوم أصبح إماماً، حتّى تردّد بعض الشيعة في إمامته؛ ولهذا تعرّض له العلماء بأُمّهات المسائل المعقّدة، فكان يجيب عنها، كما شهدوا له كراماتٍ أزالت ما علق في أذهانهم من شكوك.

وكان الإمام الرضا عليه السلام ينوّه بإمامته وخلافته، وعندما يواجه إشكالاتهم وأنّه ما يزال صغيراً، كان يحتجّ عليهم بعيسى بن مريم، كان نبياً وهو في المهد. كما أنّ علياً الهادي عليه السلام كان إماماً، وكان له يوم توفّي والده ست سنين وخمسة أشهر فقط. وهكذا فإننا نقف أمام هذه الظواهر ولا يمكننا إخضاع الأئمّة لمقاييس الأفراد العاديين.

العباقرة من الصغار

إنّنا نشاهد في بعض الأحيان بروز طفل يمتاز بذكاء حادّ يفوق رجلاً في الأربعين.

فلقد كان «ابن سينا» واحداً من أُولئك القلائل الذين نبغوا وهم في السني الأُولى من أعمارهم، فقد تعلّم القرآن والآداب وكان يحفظ كلّ ما يسمعه من معلّمه، وأرشده معلّمه إلى كتب عديدة منها «الصفات» و«غريب المصنف» و«أدب الكاتب» و«إصلاح المنطق» و«العين»، و«الشعر والحماسة» و«ديوان ابن الرومي» و«تصريف المازني» و«نحو سيبويه» فحفظها كلّها في عام ونصف. ولولا تأخير المعلّم له لحفظها في أقلّ من هذه المدّة على ما نقل هو، وكان

(١) مريم: ٢٩ ـ ٣١.

محطّ إعجاب أهل بخارى .

تعلّم الفقه وكان يفتي على مذهب أبي حنيفة وهو في الثانية عشرة من عمره ، وكتب « القانون في الطب » وهو في السادسة عشرة حتّى رأى نفسه مبرزاً في الرابعة والعشرين من عمره ![1].

ونقل عن « الفاضل الهندي » أنّه أحاط بعلوم المعقول والمنقول ولمّا يبلغ الثالثة عشرة من العمر ، وشرع بالتأليف وهو دون الثانية عشرة[2].

ونقل عن « توماس يونغ » وهو من كبار العلماء الانجليز ، أنّه تعلّم القراءة وهو في الثانية من العمر ، ودرس الرياضيات وهو في الثامنة ، ودرس اللغات الأجنبية ما بين التاسعة والرابعة عشرة مستغلاً أوقات الفراغ فقط فأتقن لغات عديده كالفرنسيّة والإيطاليّة والعبريّة والفارسيّة والعربيّة ، وقدّم للجامعة الملكية وهو في العشرين نظريته في الرؤية ، وبيّن فيها كيفية تأثير تحدّب زجاجية العين في وضوح الرؤية[3].

ولو تصفحت تاريخ الشرق والغرب لوجدت العشرات من العباقرة الذين نبغوا في طفولتهم .

وعندما يحبو الله هؤلاء الصغار بنعمة العقل والنبوغ حتّى ليصبحوا نوادر عصرهم وفرائد زمانهم ، أفتراه يعجز عن اختيار إنسان ليجعله خليفته وحجّته ومثالاً لأبناء البشر ومسؤولاً عن شريعته فيهم ؟ أفنصدق عيسى ويحيىٰ ونستبعد إماماً أخبر آباؤه بصغر سنّه .

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : **« صاحب هذا الأمر أصغرنا سنّاً »**[4].

---

(١) هدية الأحباب : ٧٦ ، ط . طهران / ١٣٢٩ .

(٢) المصدر المتقدّم : ٢٢٨ .

(٣) تاريخ العلوم / بيير روسو : ٤٣٢ ، ترجمة صفاري ، ط . ٣ .

(٤) الغيبة / النعماني : ١٨١ ، الحديث ٢٩ . بحار الأنوار : ٣٨/٥١ ، الحديث ١٥ .

الملحق الثالث

مرحلة السفراء

٢٦٠ ـ ٣٢٩هـ

السفراء الأربعة

تؤيّد الشواهد التاريخية تعاقب أربعة أشخاص على تولّي السفارة بين الإمام وقواعده الشعبية خلال مدّة السفارة في الغيبة الصغرى ، وهم كلّ من : عثمان بن سعيد ، وبعده محمّد بن عثمان ، ثمّ الحسين بن روح ، وأخيراً عليّ بن محمّد السمري[1].

على أنّ بعض الكتب الشيعيّة أوردت أسماء عديدة كنوّاب للإمام ، فقد ذكر الطبرسي في كتابه «إعلام الورى» أسماء عديدة ، منها : أبو هاشم داود بن القاسم ، محمّد بن علي بن بلال ، عثمان بن سعيد ، محمّد بن عثمان ، عمر الأهوازي ، أحمد ابن إسحاق ، أبو محمّد الوجنائي ، إبراهيم بن مهزيار ، ومحمّد بن إبراهيم[2].

فيما ذكر الطوسي شيخ الطائفة أسماء أُخرى :

العمري وولده ، وحاجز والبلالي والعطّار من بغداد ، والعاصمي من الكوفة ، ومحمّد بن إبراهيم بن مهزيار من الأهواز ، وأحمد بن إسحاق من قم ، ومحمّد بن صالح من همدان ، والبسّامي والأسدي من الريّ ، والقاسم بن العلاء من آذربيجان ، ومحمّد بن شاذان من نيسابور[3].

---

(١) الاحتجاج : ٤٧٧. بحار الأنوار : ٣٦٢/٥١ ، الحديث ٩.

(٢) إعلام الورى : ٤١٦.

(٣) كمال الدين : ٤٤٢/٢. إثبات الهداة : ٢٩٤/٧ و ٢٩٥ ، وينظر : رجال المامقاني : ٢٠٠/١ ، ط . النجف سنة ١٣٥٢.

على أن المشهور هو سفارة الأربعة الذين تقدّم ذكرهم.

ومن المحتمل أنّ الأشخاص المذكورين هم نوّاب ووكلاء للسفراء في مناطق مختلفة أُشير إلى بعضها أعلاه.

السفير الأوّل

كان عثمان بن سعيد من كبار أصحاب الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ثقة، جليل القدر[١].

وصفه العلامة الكبير البهبهاني بأنّه ثقة، جليل القدر[٢].

قال أحمد بن إسحاق عنه: «سألت أبا الحسن عليه السلام: من أعامل؟ وعمّن آخذ؟ وقول من أقبل؟

فقال الإمام: **العمري ثقتي، فما أدّى إليك عنّي فعنّي يؤدّي، وما قال لك فعنّي يقول، فاسمع له وأطع فإنّه الثقة المأمون**»[٣].

وروي عن أبي عليّ أنّه سأل أبا محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام عن مثل ذلك.

فقال له: «**العمريُّ وابنه ثقتان، فما أدّيا إليك فعنّي يؤدّيان، وما قالا لك فعنّي يقولان، فاسمع لهما وأطعهما فإنّهما الثقتان المأمونان**»[٤].

وروي عن محمّد بن إسماعيل وعلي بن عبدالله، أنّهما قالا: «دخلنا على أبي محمّد الحسن عليه السلام بسرّ من رأى (سامراء) وبين يديه جماعة من أوليائه

---

(١) منتهى المقال: ٢٩٥/٤، رقم ١٨٨٥. رجال المامقاني: ٢٤٥/٢.

(٢) منهج المقال / البهبهاني: ٢١٩ ط. طهران / ١٣٠٧.

(٣) الغيبة / الطوسي: ٢٤٣، الحديث ٢٠٩. بحار الأنوار: ٣٤٨/٥١.

(٤) الكافي: ٣٣٠/١، الحديث ١. الغيبة / الطوسي: ٢٤٣، الحديث ٢٠٩. وسائل الشيعة: ١٣٨/٢٧، الحديث ٤.

وشيعته ، حتّى دخل عليه (بدر) خادمه ، فقال : يا مولاي ، بالباب قوم شعث غبر .

فقال له : **هؤلاء نفر من شيعتنا باليمن** ـ في حديث طويل يسوقانه إلى أن ينتهي إلى أن قال الحسن عليه السلام لبدر ـ : **فامض فائتنا بعثمان بن سعيد العمري** ، فما لبثنا إلّا يسيراً حتّى دخل عثمان ، فقال له سيّدنا أبو محمّد عليه السلام : **امض يا عثمان ، فإنّك الوكيل والثقة المأمون على مال الله ، اقبض من هؤلاءالنفر اليمنيين ما حملوه من المال** .

ثمّ ساق الحديث إلى أن قالا : ثمّ قلنا بأجمعنا : يا سيّدنا ، والله إنّ عثمان لمن خيار شيعتك ، ولقد زدتنا علماً بموضعه من خدمتك ، وإنّه وكيلك وثقتك على مال الله .

قال : **نعم واشهدوا على أنّ عثمان بن سعيد العمري وكيلي وأنّ ابنه محمّداً وكيل ابني مهديكم** »[١] .

كراماته

ولهذا الرجل كرامات تؤيّد سفارته وأنّه من أولياء الله ؛ **منها** :

ما ذكره الشيخ الطوسي في كتابه « الغيبة » : عن جماعة من بني نوبخت ، منهم أبو الحسن بن كثير النوبختي .. إنّه حمل إلى أبي جعفر رضي الله عنه في وقت من الأوقات ما ينفذه إلى صاحب الأمر عليه السلام من قم ونواحيها .

فلمّا وصل الرسول إلى بغداد ودخل على أبي جعفر وأوصل إليه ما دفع إليه وودّعه ، قال له أبو جعفر : قد بقي شيء ممّا استودعته فأين هو ؟

فقال الرجل : لم يبق شيء يا سيّدي في يدي إلّا وقد سلّمته .

---

(١) الغيبة / الطوسي : ٣٥٥ ، الحديث ٣١٧ . بحار الأنوار : ٥١/٣٤٥ .

فقال له أبو جعفر: بلى قد بقي شيء ممّا استودعته فأين هو ؟

فقال الرجل: لم يبق شيء يا سيّدي في يدي إلّا وقد سلّمته.

فقال له أبو جعفر: بلى قد بقي شيء فارجع إلى ما معك وفتّشه وتذكّر ما دفع إليك.

فمضى الرجل فبقي أياماً يتذكّر ويبحث ويفكّر، فلم يذكر شيئاً ولا أخبره من كان في جملته، ورجع إلى أبي جعفر، فقال له: لم يبق شيء في يدي ممّا سلّم إليّ إلّا وقد حملته إلى حضرتك.

فقال أبو جعفر: فإنّه يقال لك: الثوبان السروانيان اللذان دفعهما فلان بن فلان ما فعلا ؟

فقال الرجل: إي والله يا سيّدي، لقد نسيتهما وذهبا عن قلبي ولستُ أدري أين وضعتهما »[١].

ومنها: عن محمّد بن علي الأسود، قال: « دفعت إليّ امرأة سنة من السنين ثوباً وقالت: احمله إلى العمري، فحملته مع ثياب كثيرة.

فلمّا وافيت بغداد أمرني بتسليم ذلك كلّه إلى محمّد بن العباس القمّي، فسلّمت ذلك كلّه ما خلا ثوب المرأة، فوجّه إليّ العمري ﷺ وقال: ثوب المرأة سلّمه إليه، فذكرت بعد ذلك أنّ امرأة سلّمت إليّ ثوباً فطلبته فلم أجده ؟

فقال لي: لا تغتمّ فإنّك ستجده، فوجدته بعد ذلك »[٢].

ومنها: ذكر الشيخ الصدوق (عليه الرحمة) في « الغيبة » عن إسحاق بن يعقوب، قال: « سمعت الشيخ العمري يقول: صحبت رجلاً من أهل السواد

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٢٩٤، الحديث ٢٤٩. بحار الأنوار: ٣١٦/٥١.

(٢) كمال الدين: ٥٠٢/٢، الحديث ٣٠. بحار الأنوار: ٣٣٥/٥١.

« الكوفة » ومعه مال للغريم فأنفذه فرُدَّ عليه وقيل له : أخرج حقّ ابن عمّك منه ، وهو أربعمائة درهم .

فبقي الرجل باهتاً متعجباً ، ونظر في حساب المال وكانت في يده ضيعة لولد عمّه قد كان ردّ عليهم بعضها وزوى عنهم بعضها ، فإذا الذي نقص لهم من ذلك المال أربعمائة درهم »[١].

فهل يمكن بعد كلّ هذه الروايات في توثيق عثمان بن سعيد والمنزلة التي كانت له لدى الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام وإجماع الشيعة على عدالته .. هل يمكن اتّهامه بأنّه كان نفعياً حاول الاستفادة من مسألة الغيبة ؟ !

السفير الثاني

خلف محمّد بن عثمان أباه في السفارة بين الإمام وشيعته . ذكره الشيخ الطوسي في من ذكره من وكلاء الإمام صاحب الزمان[٢].

وذكره المامقاني في رجاله ، وأشار إلى علوّ قدره وشأنه لدى الإمامية ، وإجماع الشيعة عليه ، ولا يحتاج الأمر إلى دليل أو برهان في ذلك[٣].

وقد صرّح أبو عثمان بخلافته ونيابة الإمام المهدي في غيبته[٤].

وعن يعقوب بن إسحاق ، قال : « سألت محمّد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل أشكلت عليَّ .

فوقع التوقيع بخطّ مولانا صاحب الدار : « **وأمّا محمّد بن عثمان العمري** رضي الله عنه

---

(١) كمال الدين : ٤٨٦/٢ ، الحديث ٦ . بحار الأنوار : ٣٢٦/٥١ . إثبات الهداة : ٣٠٢/٧ .

(٢) الغيبة / الطوسي : ٣٤٥ .

(٣) رجال المامقاني : ١٤٩/٣ .

(٤) رجال المامقاني : ٢٠٠/١ .

وعن أبيه من قبل ، فإنّه ثقتي ، وكتابه كتابي »[١].

كراماته

عن محمّد بن شاذان ، قال : « اجتمع عندي مال للغريم عليه السلام : خمسمائة درهم تنقص عشرين درهماً فأبيت أن أبعثها ناقصة هذا المقدار ، فأتممتها من عندي ، وبعثت بها إلى محمّد بن جعفر ولم أكتب مالي فيها ، فأنفذ إليَّ محمّد بن جعفر القبض وفيه : وصلت خمسمائة درهم لك فيها عشرون درهماً »[٢].

وعن جعفر بن محمّد بن متيل : « دعاني أبو جعفر محمّد بن عثمان السّمّان المعروف بالعمري وأخرج إليّ ثويبات معلّمة وصرّة فيها دراهم ، فقال لي : تحتاج ان تصير بنفسك إلى واسط في هذا الوقت وتدفع ما دفعت إليك إلى أوّل رجل يلقاك عند صعودك من المركب إلى الشطّ بواسط .

قال : فتداخلني من ذلك غمّ شديد وقلت : مثلي يُرسل في هذا الأمر ويحمل هذا الشيء الوقح .

قال : فخرجت إلى واسط وصعدت من المركب فأوّل رجل تلقّاني سألته عن الحسن بن محمّد بن قطاة الصيلاني وكيل الوقف بواسط ، فقال : أنا هو ، من أنت ؟

فقلت : أنا جعفر بن محمّد بن متيل .

قال : فعرفني باسمي ، وسلّم عليّ ، وسلّمت عليه ، وتعانقنا .

فقلت له : أبو جعفر العمري يقرأ عليك السلام ، ودفع إليّ هذه الثويبات وهذه الصرّة لأسلّمها إليك .

---

(١) الغيبة / الطوسي : ٢٩١ ، الحديث ٢٤٧ . الاحتجاج : ٢/٢٨٣ . بحار الأنوار : ٥١/٣٤٩ .

(٢) كمال الدين : ٢/٤٨٦ ، الحديث ٥ . الثاقب في المناقب : ٦٠٤ . بحار الأنوار : ٥١/٣٢٥ ، الحديث ٤٤ .

فقال : الحمد لله فإنّ محمّد بن عبدالله العامري قد مات ، وخرجت لأصلح كفنه محلّ الثياب فإذا بها ما يحتاج إليه من حبرة وثياب وكافور ، وفي الصرّة كرى الحمالين والحفّار ، قال : فشيّعنا جنازته وانصرفت »[١].

وعن محمّد بن علي الأسود القمي ، قال : « إن أبا جعفر العمري رضي الله عنه حفر لنفسه قبراً وسوّاه بالساج ، فسألته عن ذلك ، فقال : للناس أسباب . ثمّ سألته عن ذلك فقال : قد أُمرت أن أجمع أمري ، فمات بعد ذلك بشهرين رضي الله عنه وأرضاه »[٢].

توفّي محمّد بن عثمان سنة **٣٠٤** هـ بعد أن لبث مدّة خمسين سنة في نيابة الإمام[٣].

السفير الثالث

وخلف محمّد بن عثمان في السفارة الحسين بن روح ؛ وكان أعلم أهل زمانه ، وذكر المجلسي في البحار عن جماعة من بني نوبخت : أن أبا جعفر العمري لمّا اشتدّت حاله اجتمع عنده جماعة من وجوه الشيعة ، منهم : أبو علي بن همّام ، وأبو عبدالله بن محمّد الكاتب ، وأبو عبدالله الباقطاني ، وأبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي ، وأبو عبدالله بن الوجناء ، وغيرهم من الوجوه والأكابر ، فدخلوا على أبي جعفر رضي الله عنه فقالوا له : إن حدث أمر فمن يكون مكانك ؟

فقال لهم : هذا أبو القاسم الحسين بن روح بن أبي بحر النوبختي القائم مقامي ، والسفير بينكم وبين صاحب الأمر ، والوكيل ، والثقة الأمين ، فارجعوا إليه في

---

(١) كمال الدين : ٢/٥٠٤ ، الحديث ٣٥ . الخرائج والجرائح : ٣/١١١٩ ، الحديث ٣٥ . بحار الأنوار : ٥١/٣٣٧ .

(٢) كمال الدين : ٢/٥٠٢ ، الحديث ٢٩ . بحار الأنوار : ٥١/٣٥١ .

(٣) الغيبة / الطوسي : ٣٦٦ ، الحديث ٣٣٤ . بحار الأنوار : ٥١/٣٥٢ .

أُموركم، وعوّلوا عليه في مهماتكم، فبذلك أُمرت وقد بلّغت»[١].

وعن جعفر بن محمّد المدائني، قال: «كان من رسمي إذا حملت المال الذي في يدي إلى الشيخ أبي جعفر محمّد بن عثمان العمري ﷺ أن أقول ما لم يكن أحد يستقبله بمثله: هذا المال ومبلغه كذا وكذا للإمام عليه السلام، فيقول لي: نعم، دعه، فأُراجعه فأقول له: تقول لي أنّه للإمام؟ فيقول: نعم للإمام عليه السلام فيقبضه.

فصرت إليه آخر عهدي به ﷺ ومعي أربعمائة دينار فقلت له على رسمي، فقال لي: امض بها إلى الحسين بن روح.

فتوقّفت فقلت: تقبضها أنت منّي على الرسم؟ فردّ عليّ كالمنكر لقولي.

و قال: قم عافاك الله فادفعها إلى الحسين بن روح.

فلما رأيت في وجهه غضباً خرجت وركبت دابتي، فلمّا بلغت بعض الطريق رجعت كالشاكّ، فدققت الباب فخرج إليّ الخادم فقال: مَن هذا؟

فقلت: أنا فلان فاستأذن لي. فراجعني وهو منكر لقولي ورجوعي، فقلت له: ادخل فاستأذن لي فإنّه لابدّ من لقائه فدخل فعرّفه خبر رجوعي، وكان قد دخل دار النساء، فخرج وجلس على سرير ورجلاه في الأرض، وفيهما نعلان تصف حسنهما وحسن رجليه، فقال لي: ما الذي جرّأك على الرجوع ولم تمتثل ما قلته لك؟!

فقلت: لم أجسر على ما رسمته لي.

فقال لي وهو مغضب: قم عافاك الله، فقد أقمت أبا القاسم الحسين بن روح مقامي، ونصبته منصبي.

فقلت: بأمر الإمام؟

فقال: قم عافاك الله كما أقول لك؛ فلم يكن عندي غير المبادرة.

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٣٧١، الحديث ٣٤٢. بحار الأنوار: ٣٥٥/٥١.

فصرت إلى أبي القاسم بن روح وهو في دار ضيّقة فعرّفته ما جرى فسرّ به وشكر الله عزّوجلّ ودفعت إليه الدنانير، وما زلت أحمل إليه ما يحصل في يدي بعد ذلك»[١].

ويبدو أن تنصيب الحسين بن روح لم يكن متوقعاً من الزعامات الشيعية آنذاك، وقد جاء في الأخبار عن بعض المشايخ ؛ كنّا لا نشكّ أنّه إن كانت كائنة من أبي جعفر لا يقوم مقامه إلّا جعفر بن أحمد بن متيل أو أبوه لما رأيناه من الخصوصية به وكثرة كينونته في منزله حتّى بلغ أنّه كان في آخر عمره لا يأكل طعاماً إلّا ما أصلح في منزل جعفر بن أحمد بن متيل بسبب وقع له.

وكان أصحابنا لا يشكّون إن كانت حادثة، لم تكن الوصيّة إلّا إليه. فلمّا وقع الاختيار على أبي القاسم سلّموا ولم ينكروا، وكانوا معه وبين يديه كما كانوا مع أبي جعفر ﷺ، ولم يزل جعفر بن أحمد بن متيل في جملة أبي القاسم[٢].

وعن أبي سهل النوبختي سئل فقيل له: كيف صار هذا الأمر إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك ؟

فقال: هم أعلم وما اختاروه، ولكن أنا رجل ألقى الخصوم وأُناظرهم ولو علمت بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجّة لعلّي كنت أدلّ على مكانه، وأبو القاسم فلو كان الحجّة تحت ذيله وقُرّض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه[٣].

وذكر الشيخ الصدوق في كتاب (كمال الدين): حدثنا محمّد بن علي الأسود، قال: «سألني علي بن الحسين بن موسى بن بابويه بعد موت محمّد بن عثمان

---

(١) الغيبة / الطوسي: ٣٦٧، الحديث ٣٣٥. بحار الأنوار: ٣٥٢/٥١.

(٢) الغيبة / الطوسي: ٣٦٩، الحديث ٣٣٧. بحار الأنوار: ٣٥٤/٥١.

(٣) الغيبة / الطوسي: ٣٩١، الحديث ٣٥٨. بحار الأنوار: ٣٥٩/٥١.

العمري أن أسأل أبا القاسم الروحي أن يسأل مولانا صاحب الزمان أن يدعو الله عزّ وجلّ يرزقه ولداً ذكراً.

قال: فسألته فأنهى ذلك فأخبرني بعد ذلك بثلاثة أيام أن قد دعا لعليّ بن الحسين، وأنّه سيولد له ولد مبارك ينفعه الله عزّ وجلّ به وبعده أولاد».

وعن الأسود أيضاً، قال: «وسألته في أمر نفسي أن يدعو الله لي أن يرزقني ولداً ذكراً، فلم يجبني إليه، وقال: **ليس إلى هذا سبيل**.

قال: فولد لعلي بن الحسين تلك السنة ابنه محمّد بن عليّ، وبعده أولاد، ولم يلد لي شيء».

قال مصنّف الكتاب: كان أبو جعفر محمّد كثيراً ما يقول لي إذا رآني اختلف إلى مجالس شيخنا محمّد بن الحسن بن أحمد بن الوليد وأرغب في كتب العلم وحفظه: ليس (عجباً) أن تكون لك هذه الرغبة في العلم، وأنت ولدت بدعاء الإمام[١].

وشكّ أحدهم في سفارة الحسين بن روح فكتب إلى الإمام بقلم من دون مداد على ورق أبيض فجاء الجواب[٢].

توفّي الحسين بن روح في شعبان سنة **٣٢٦** هـ[٣].

السفير الرابع

وهو الشيخ أبوالحسن عليّ بن محمّدالسمري؛ كان من أصحاب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، ومن وجهاء الشيعة في عصره، كما ذكر ذلك ابن طاووس[٤].

---

(١) كمال الدين: ٥٠٢/٢، الحديث ٣١. الغيبة / الطوسي: ٣٢٠، الحديث ٢٦٦.

(٢) الغيبة / الطوسي: ٣١٥، الحديث ٢٦٤. إثبات الهداة: ٣٤٠/٧، الحديث ١٠٧.

(٣) رجال المامقاني: ٢٠٠/١.

(٤) رجال المامقاني: ٢٠٤/٢.

وعن أبي عبدالله أحمد بن محمّد الصفواني ، قال : أوصى الشيخ أبو القاسم إلى أبي الحسن علي بن محمّد السمري فقام بما كان إلى أبي القاسم ، فلمّا حضرته الوفاة ، حضرت الشيعة عنده وسألته عن الموكّل بعده ولمن يقوم مقامه ، فلم يظهر شيئاً من ذلك ، وذكر أنّه لم يؤمر بأن يوصي إلى أحد بعده في هذا الشأن[١].

وقد استمرّت سفارة السمري ثلاث سنين حيث توفّي سنة **٣٢٩**هـ، وكانت وفاته بداية الغيبة الكبرى للإمام[٢].

وعن أبي محمّد الحسن بن أحمد قال : كنت بمدينة السلام في السنة التي توفّي فيها الشيخ أبو الحسن عليّ بن محمّد السمري ﷺ فحضرته قبل وفاته بأيّام ، فأخرج إلى الناس توقيعاً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا عليّ بنَ مُحَمَّدٍ السَّمري ، أَعْظَمَ اللهُ أَجْرَ إِخوانِكَ فيكَ ، فَأَنْتَ مَيِّتٌ ما بَيْنَكَ وَبَيْنَ سِتَّةِ أَيّام ، فَاجْمعْ أَمْرَكَ ، وَلَا توصِ إِلىٰ أَحَدٍ فَيَقومَ مَقامَكَ بَعْدَ وَفاتِكَ ، فَقَدْ وَقَعَتِ الْغَيْبَةُ التّامَّةُ ، فَلَا ظُهورَ إِلّا بَعْدَ إِذْنِ اللهِ تَعالىٰ ذِكرُه ، وَذلِكَ بَعْدَ طولِ الْأَمَدِ، وَقَسْوَةِ الْقُلوبِ، وَامْتِلاءِ الْأَرْضِ جَوراً ، وَسَيأْتي عَلىٰ شيعتي مَنْ يَدَّعي الْمُشاهَدَةَ، أَلَا فَمنِ ادَّعَى الْمُشاهَدَةَ قَبْلَ خروجِ السُّفْيانِي وَالصَّيْحَةِ فَهُوَ كَذّابٌ مُفْتَرٍ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظيمِ»[٣].

ومرحلة السفارة هذه والسفراء الأربعة مشهورة لدى الشيعة ، وقد ادّعى السفارة

(١) الغيبة / الطوسي : ٣٩٤ ، الحديث ٣٦٣. بحار الأنوار : ٣٦٠/٥١.
(٢) الغيبة / الطوسي : ٣٩٤ ، الحديث ٣٦٤. بحار الأنوار : ٣٦٠/٥١.
(٣) الغيبة / الطوسي : ٣٩٥ ، الحديث ٣٦٥. بحار الأنوار : ٣٦١/٥١ ، الحديث ٧.

رجال من الشيعة وافتضح أمرهم فيما بعد ؛ منهم : حسن الشريعي ، ومحمّد بن نصير النميري ، وأحمد بن هلال الكرخي ، ومحمّد بن علي بن بلال ، ومحمّد بن عـلي الشلمغاني ، وأبو بكر البغدادي . وأُضيف إليهم منصور الحلاج .

الملحق الرابع

عمر الإمام المهدي عليه السلام

كم يعمر الإمام الغائب ؟

ليس هناك رقم في ذلك ، ولكن الروايات تشير إلى أنّ عمره طويل .

فعن الحسن بن محمّد بن صالح ، قال : « سمعت الحسن العسكري عليه السلام يقول : **إنّ ابني هو القائم من بعدي ، وهو الذي تجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام بالتعمير والغيبة ، حتّى تقسو القلوب لطول الأمد ، ولا يثبت على القول به إلّا من كتب الله عزّ وجلّ في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه** »[١] .

وهناك ستة وأربعون حديثاً آخر في هذا المضمار .

ولكن هناك مسألة هي غاية في التعقيد وشيء غير مألوف في الحياة الإنسانيّة وهو العمر .. إذ كيف يتسنّى للإنسان أن يعيش كلّ هذه السنين ، بل كلّ هذه القرون من الزمن ، إننا نعيش في عصر العلم والفضاء ، فكيف يمكن حلّ هذه المعضلة ؟

لنتعرف بأنّ مسألة العمر في هذا الموضوع مسألة شائكة .

غير أن معطيات العلم اليوم تفيد بما يلي : لا يوجد حدّ معيّن لعمر الإنسان ، إلّا أن عمر الإنسان قد يتجاوز مائة سنة بقليل ، وهناك اختلافات تنجم عن أثر المحيط والبيئة وعوامل الوراثة وأساليب الحياة ، فقد حصلت تغيّرات في العصر الحاضر بالقياس إلى العصور الماضية .

يبلغ متوسط العمر في بريطانيا بين عام **١٨٣٨ ـ ١٨٤٥م ٣٩/٩١** في الرجال

---

(١) كمال الدين : ٥٢٤/٢ ، الحديث ٤ . بحار الأنوار : ٢٢٤/٥١ .

و٤١/٨٥ للنساء ؛ وفي عام ١٨٣٧ بلغ لدى الرجال ٦٠/٤٠ ولدى النساء ٦٠/٤٠.

وفي أميركا بلغ متوسط العمر ١٩٠١م ٤٨/٢٣ في الرجال و٥١/٨٠ في النساء ، وارتفعت النسبة عام ١٩٤٤ ليبلغ ٦٣/٥٠ في الرجال و ٦٨/٩٥ في النساء .

وهذه النسب في الارتفاع تشمل مراحل الطفولة بسبب تحسّن طرق العلاج والوقاية من الأمراض ، خاصّة السارية منها ، أمّا أمراض الشيخوخة التي تعدّ أمراضاً مستعصية من قبيل تصلّب الشرايين فلم يشهد علاجها تطوراً يذكر .

والسؤال : هل توجد قاعدة عامّة لتكون مقياساً ثابتاً لتعيين عمر الكائنات الحيّة ؟

جواباً : يسود اعتقاد في ذلك حول وجود علاقة بين حجم الكائن الحيّ ونسبة العمر ، فمثلاً لا يقارن عمر الفراشة أو البعوضة بعمر السلحفاة ، وبالطبع فإن هذه القاعدة لا تنسحب على كلّ الحيوانات ، فالببغاء والغراب والأوز مثلاً تعمّر أكثر من الطيور الأُخرى الأكبر حجماً منها ، بل وأكثر من بعض الثدييات .

كما اننا نجد أسماك « السالمون » تعيش مائة عام ، « الكراپ » مائة وخمسين عاماً و« البيك » مائتي عام ، بينما لا يعيش الحصان أكثر من ثلاثين سنة .

ومنذ عصر أرسطو كان يظنّ أنّ عمر الكائن الحيّ يعادل نسبة معينة من مدّة بلوغه ، فيرى « فرانسيس بيكون » أنها تبلغ ثمانية أضعاف مدّة بلوغه بينما هي لدى « فلورانس » خمسة أضعاف .

وفي الإنسان يرى كلّ من « بوفون » و« فلورانس » أنّ العمر الطبيعي للإنسان هو مائة عام ، وهي تكاد تكون سائدة في الأذهان .

وهناك طائفة من المعمّرين عاشوا أعماراً طويلة منهم : « هنري جانكينز » الذي عاش ١٦٩ سنة ، و« توماس پار » ٢٠٧ سنة و« كاتوين كونتيس دسموند » ١٤٠ سنة ؛ ولا يخلو هذا التحديد من المبالغة في بعض الأحيان .

العوامل

ما هي العوامل المؤثرة في العمر ؟ يمكن القول أنّ هناك جملة عوامل منها :

- **العامل الوراثي :** وهو مؤثر في طول العمر ، فيمكن ملاحظة ذلك لدى بعض الأُسر التي يعمّر أفرادها أكثر من الحدّ المتوسط إذا لم تكن هناك مؤثّرات خارجية .

وهناك بحوث ممتعة في هذا المضمار كالدراسة التي أجراها « ريموند بيرل » ، فقد قام بمعونة ابنته بإحصاء سبعة أظهر من : الجد الأكبر ـ الجدّ ـ الحفيد ـ ابن الحفيد ـ ثمّ ابنه ـ فوجد أنّ أعمارهم بلغت **٦٩٩** عاماً على أنّ اثنان منهما ماتا في حوادث ، وهناك دراسة « لوي دوبلين » و« هربرت ماركس » في سجلّات شركات التأمين أثبتت تأثير طول عمر الأجداد في أبنائهم وأحفادهم .

وقد يؤثّر هذا العامل في الحدّ من تأثير عوامل أُخرى كعامل البيئة أو بعض العادات السيئة ، ومن هنا يمكننا تفسير طول العمر لدى بعض المدمنين على المشروبات الكحولية .

ويرث الأبناء السلامة واللياقة البدنية المؤثرة في طول العمر عن الآباء والأجداد ؛ مع التأكيد على الجهاز العصبي ، والدورة الدموية ، إضافة إلى رأي « كازاليس » القائل : « يمكن اكتشاف عمر الإنسان في شرايينه » ، فهناك من يصل سنّ الشيخوخة قبل الأوان وذلك بسبب تصلّب الشرايين الوراثي .

- **العامل البيئي :** للبيئة أثر كبير ، فالأجواء المعتدلة والهواء النقي من السموم والجراثيم ، وأشعة الشمس الكافية لها تأثيرها في إطالة العمر .

- **نوع العمل :** يعدّ الاستغراق في العمل والجهد النفسي والعصبي المبذول من العوامل المؤثرة في إطالة العمر مع اشتراط الصفاء الذهني والفكري ، وبعكس ذلك فإن الملل الناجم عن البطالة وانحسار الجهد العضلي والعقلي له آثاره في قصر

العمر أكثر من الاجهاد الناتج عن العمل المتواصل ، ولهذا يلاحظ أنّ الوزراء والقساوسة يعمّرون أكثر من غيرهم ، وهذا يعود إلى عملهم الدؤوب .

ـ **الغذاء كمّاً ونوعاً** : للغذاء دور وتأثير كبير في إطالة العمر ، فقد لوحظ أنّ المعمّرين كانوا يتناولون وجبات خفيفة وقليلة ، ولهذا يقول « مونتين » : « الإنسان لا يموت ولكنه ينتحر » كما قيل أيضاً : « الإنسان يحفر قبره بأسنانه » .

إنّ التخمة وكثرة الأكل لها آثار مضرّة في حياة الإنسان ، فعنها تنجم أمراض مختلفة كالسكري وتصلّب الشرايين وأمراض القلب والكلية ؛ ومن المؤسف أن نشاهد البعض وهم يستعرضون عضلاتهم ويتباهون بقوّة كاذبة قبل الإصابة بهذه الأمراض .

وقد لوحظ تضاؤل عدد الإصابات بمرض السكّري في بعض البلدان أبان الحرب العالمية الأولى ، ويعود هذا إلى شحّة الغذاء وانتشار الفقر ، فكان لهذا دور في اعتدال الأكل ؛ فمن المعروف مثلاً أن الإفراط في تناول اللحوم بعد سنّ الأربعين يخلق مضاعفات خطيرة .

وفي هذا المضمار أثبتت تجارب الدكتور « **Mccay** » في جامعة « كورنول . نيويورك » التي أجريت على الفئران أن السمان منها تعيش أقلّ من الفئران النحيفة ، وأن الفأر يصل إلى أوج قوّته بعد أربعة أشهر ويصاب بالشيخوخة قبل السنة الثانية ويموت قبل الثالثة .

وقام هذا الدكتور بتربية مجموعة من الفئران على نظام غذائي غني بالفتيامينات والمواد المعدنية وتوصل إلى نتائج مدهشة حيث لاحظ أن مدّة بلوغها استغرقت ألف يوم ، في حين كان متوسط ذلك أربعة أشهر فقط ، كما لاحظ أن أقصى فأر عاش ٩٦٥ يوماً بينما امتدّ العمر بفئران (النظام الغذائي) إلى مدد أطول بكثير ، كما أنّها بقيت شابة وفتية ونادراً ما تصاب بالأمراض ، وكانت أذكى من أفراد صنفها .

وقد أُجريت هذه التجارب على حيوانات أُخرى كالأسماك و« Rmphibien » وأعطت نتائج مشابهة.

إنّ التخمة والإفراط في تناول الطعام له آثاره في قصر العمر، وبالمقابل فإن سوء التغذية له نفس الآثار المدمّرة، وإذن فالاعتدال هو الطريق المثالي في ذلك.

ظاهرة الشيخوخة

ماذا تعني الشيخوخة؟

تصاب بعض الأعضاء الأساسية في البدن كالقلب والكلىٰ والكبد والمخّ والغدد بالإنهاك والإجهاد، فتصبح عاجزة عن إنجاز وظائفها على الوجه المطلوب، ويبدو ذلك في الإحساس بالضعف العام.

ماهي عوامل الشيخوخة؟

يصاب المرء بالشيخوخة في سنين معينة، وهي وإن كانت تظهر في فترات معينة ولكن ذلك لا يعدّ سبباً لها، فالشيخوخة ليست مرحلة زمنية، بل ظاهرة جسدية يمرّ بها الإنسان عادة، حيث تصاب أعضاء الجسم بالضعف والعجز عن القيام بوظيفتها بالشكل المطلوب، فمثلاً يضعف الجهاز الهضمي عن أداء مهامّه، ثمّ يسري ذلك إلى بقيّة أنحاء الجسم فتتراجع القدرة الجنسية، كما يحدث ارتباك في الذاكرة خاصّة في تذكّر الأسماء، ولكنّنا نشاهد في بعض الأحيان صفاءً روحياً بالرغم من الضعف الشديد في الجسد، ومن هنا يمكن القول إنّ الشيخوخة ليست علّة بل هي معلولة، فمن الممكن أن نجد أشخاصاً معمّرين يتمتعون بحيوية كاملة، وفي المقابل نلاحظ أفراداً يعانون من الشيخوخة وهم في سنّ مبكرة.

ما هي بواعث هذا العجز في الجسد؟

يولد الإنسان وفي جسمه أعضاء لها قابلية العمل متأثرة بالعامل الوراثي،

ثمّ تتعاقب المؤثرات الأُخرى كالبيئة والتغذية وأُسلوب الحياة ، ومبدئياً إذا كان كلّ شيء يسير على ما يرام فمن الممكن استمرار الإنسان في حياته ، ولكن عندما تتأثّر أجهزة الجسم أو أحدها فإنّ الآثار سرعان ما تشمل سائر الجسد ، فالإنسان يعيش في بيئة ويقاوم هجمات الجراثيم في الخارج والسموم في الداخل ، وهذا له تأثيره الضارّ بالخلايا الحيّة .

وجسم الإنسان يضم مختلف أنواع النشاط الحيوي ، إذ يتوجّب عليه تموين جميع أنحائه بالغذاء الكافي والطاقة اللازمة ، وفي نفس الوقت يصدّ هجمات الجراثيم والفيروسات ، وفي الوقت نفسه يقوم بإصلاح الأجزاء التالفة ، وطرد السموم ، ونقل الاغاثات إلى الأعضاء المصابة بالعجز ، إنّه في حرب مستمرة مع أعداء مختلفين ، وتواجهه التحديات في كلّ لحظة ، ولذا فإن عليه أن يكون في حالة انذار دائمة .

يستمد الجسم قدرته من الطاقة الناجمة عن الغذاء اللازم وذلك لتوفير كلّ ما يحتاجه البدن من وسائل الدفاع ، على أنّ الإنسان ومع بالغ الأسف لا يعرف حاجات جسمه ، وبالتالي فإنّه يخذله في معركته مع الأعداء ، بل إنّه يزيد الطين بلّة عندما يتناول أشياءً تخدم العدوّ وتفتح الطريق أمام غارات الجراثيم ، وفي المقابل تضعف وسائل الدفاع المطلوب ويخسر الجسم نضارته السابقة لتظهر عليه أعراض الشيخوخة والذبول .

وقد يصاب الجسم بالشيخوخة بسبب الاصابة ببعض الأمراض أو ممارسة عادات ضارّة .

ويعتقد « تشنكوف » أنّ السموم الناجمة عن تخمّر مكروبات الأمعاء هي وراء الشيخوخة ولو أمكن تطهير الأمعاء منها لعاش الإنسان طويلاً .

وقد نشأ هذا الاعتقاد من نتائج بحوث اُجريت حول ذلك ، حيث لوحظ أنّ نسبة

المعمّرين تزداد في بلاد « البلقان » خاصة في « بلغاريا » وفي « تركيا » والقوقاز ، ووجد أنّ تناول اللبن الرائب هو السبب في ذلك لاحتوائه على مادّة « أسيد لاكتيك » الذي يقضي على تلك المكروبات .

ومن البديهي أنّ طول أعمار الذين يعيشون في تلك المناطق الجبلية لا يتوقّف فقط على نوع الغذاء ، بل هناك عوامل الوراثة والبيئة وأُسلوب الحياة ، وهذا ما نشاهد له نظيراً في سكّان المناطق الجبلية من إيران أيضاً .

هل من المحتمل أن يكتشف الإنسان في المستقبل دواءً يعزّز من قدرة الجسم في المقاومة ويمنع حدوث الشيخوخة ؟!

إنّ العلم ما يزال يحبو في أول الطريق ، ومن المحتمل جدّاً أن يتمكّن الإنسان من ذلك في المستقبل .

طول عمر الإمام عليه السلام

يعتقد الشيعة أنّ الإمام المهدي عليه السلام هو ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام وقد ولد سنة **٢٥٥** هـ أو **٢٥٦** وهو حيّ غائب منذ ذلك الوقت ، ومن المحتمل أن يعيش قروناً أُخرى من الزمن ، فما هو رأي علم الأحياء في ذلك ؟

إنّ العلم لا يرفض ذلك مبدئيّاً وإذا أراد ذلك فإنّ الأمر يتطلّب أدلّة علمية يمكنها أن تفنّد هذه المسألة ؛ على أنّ علم الأحياء يزخر بنماذج كثيرة في ظاهرة امتداد العمر وهذه أمثلة :

في عالم النباتات توجد شجرة السكويا « **Sequoia** » المعمّرة في كاليفورنيا بأمريكا الشمالية ، ويبلغ ارتفاع بعضها « **٣٠٠٠** » قدم ومحيط جذعها « **١١٠** » أقدام ، وقد يتجاوز عمر بعضها خمسة آلاف عام حتّى يمكن القول انّها كانت طريّة وفتية يوم شرع الفرعون « خوفو » ببناء أضخم الأهرام في مصر وكان محيط جذعها يبلغ

قدماً واحداً يوم ولد المسيح عليه السلام. ففي المتحف الطبيعي في « **Kensington** » يوجد مقطع عرضي لجذع شجرة من هذا النوع تدعى « **Scqueiagigenta** » وفيه **١٣٣٥** حلقة ممّا يدلّ على أنّ عمرها يبلغ نفس هذا العدد من السنين[١].

وفي أميركا توجد شجرة صنوبر في كاليفورنيا ما تزال حيّة حتّى الآن ويبلغ عمرها الحالي أكثر من أربعة آلاف وستمائة عام واسمها « **Pinasaristata** ».

وفي عالم الحيوان يوجد نوع من السلاحف في جزيرة «كالاپاكوش» وهي بعمر **١٧٧** عام وفي وزن **٤٥٠** باوند ويبلغ سمك جلدها أربعة أقدام[٢].

- كشفت الحفريات في مصر القديمة وفي مقبرة الفرعون الشابّ « توت عنخ آمون » حبوباً من القمح يعود تاريخها إلى ثلاثة وأربعة آلاف عام، وقد شاهدتها بعيني، ثمّ قرأت في الصحف والمجلّات حول استنباتها وأنّها اخضرّت ونمت وأثمرت، وهذا دليل على احتفاظها بالحياة كلّ هذه القرون الطويلة.

- وتعدّ الفايروسات من أقدم الكائنات الحيّة، وهي كما هو معروف تسبب العديد من الأمراض كالزكام والانفلونزا والحمى، وقد دلّت التنقيبات على أنّها عاشت في عصور ما قبل التاريخ وربما قبل ١٠٠/٠٠٠ سنة، وهي بعد لم تفقد آثار الحياة بالرغم من أنها تبدو ميّتة[٣].

- نشرت الصحف مؤخراً أن الحفريات في سيبريا كشفت عن نوع من الكائنات الحية أكبر، وعندما وضع في ظروف مساعدة عاودته الحياة مرّة أُخرى بعد فترة طويلة من الانجماد.

- من الطرق التي يمكن فيها إطالة عمر الكائن الحيّ هي ظاهرة « الهيبوناسيون »

---

(١) دائرة المعارف الأمريكيّة: ٤٦٣/١٧.

(٢) المصدر المتقدّم: ٤٦٣.

(٣) جريدة اطلاعات.

أو « البيات الشتوي » الذي يجعل من الكائن نصف حيّ ، وهو يستغرق كلّ فترة البرد أو فترة الحرّ. وفي مدّة « البيات » هذه تنتفي حاجة الكائن الحيّ إلى الغذاء وتتضاءل عملية الاحتراق والبناء ثلاثين مرّة ؛ ويتوقف مؤقتاً جهاز التنظيم الحراري ويبقى الحيوان غير متأثّر لدى انخفاض درجة حرارة المحيط ، حيث تتساوى حرارة جسمه مع حرارة المحيط التي قد تتجاوز الصفر بدرجات ، وتصبح عملية التنفس بطيئة جدّاً وغير منتظمة ، وينخفض معدل النبض في القلب ؛ ففي السنجاب مثلاً تصبح « ١٠ـ١٧ » مرّة بينما هي ٣٠٠ مرّة ، كما يتوقّف النشاط العصبي وتتلاشى أمواجه الكهربائية في المخّ تحت درجة ٥٢ ـ ٦٦ درجة فهرنهايت .

كما يمكن لبعض الحيوانات أن تعيش في المياه الباردة جدّاً وأن تزاول نشاطها الطبيعي ، كما هو الحال في الأسماك التي تعيش في السواحل النرويجية .

ويمكن أيضاً حفظ حياة الكثير من الخلايا في حالة انجماد والاستفادة منها في اللقاح الصناعي ، إضافة إلى تجميد بعض الكائنات الحيّة وحفظ حياتها لوقت الحاجة والقيام بهذا العمل عدّة مرّات دون أن يضرّ ذلك بالكائن الحيّ .

إنّ ظاهرة البيات الشتوي لدى بعض الحيوانات ظاهرة تستدعي الدراسة والتأمّل العميق ، ويمكن من خلالها اكتشاف أسرار العمر الطويل .

كما أن دراسة الأشجار المعمّرة ، واستمرار حياتها آلاف السنين ، وكذا حياة الفايروسات سوف يكون لها آثارها الايجابية في إمكانية إطالة عمر الإنسان والتغلّب على الشيخوخة .

مقالة جوستين غلاس

يحدّد علم الأحياء عمر الكائنات الحيّة ما بين عدّة ساعات إلى مئات السنين ، فهناك نوع من الحشرات لا يعيش أكثر من يوم واحد فقط ، وهناك نوع يعيش عاماً

كاملاً، على أنّ هناك استثناءات في نفس النوع تتجاوز القاعدة فيكون العمر ثلاثة أضعاف العمر الطبيعي.

وتوجد في ألمانيا مثلاً شجيرة ورد أحمر عمّرت مئات السنين أكثر من غيرها من نفس النوع، وفي المكسيك شجرة سرو عمرها ٢٠٠٠ عام، كما لوحظ أن عمر بعض الحيتان يتجاوز ١٧٠٠ سنة.

وفي لندن بلغ عمر «توماس بار» الذي ولد في القرن السادس عشر ٢٠٧ سنوات، وعمّر اليوم رجل اسمه «سيّد علي» في قرية من قرى الشمال الإيراني أكثر من ١٩٥ سنة، وعمر ابنه ١٢٠ سنة، ويبلغ عمر «لويپوف پوجاك» الروسي ١٣٠ سنة، فيما يبلغ عمر «ميكوخوبولوف» ١٤١ سنة، ويرجع علماء الأحياء أسباب ذلك إلى عوامل داخلية.

وعلى أساس نظرية علم الأحياء في تحديد العمر الطبيعي فإن عمر الكائن الحيّ يتراوح ما بين سبع مرّات إلى أربعة عشرة مرّة بقدر مدّة نضجه.

وبما أنّ مدّة النمو في الإنسان تبلغ ٢٥ سنة فإن عمره الطبيعي وطبقاً لهذه النظرية يبلغ ٢٨٠ سنة.

ويمكن عن طريق نظام غذائي مناسب كسر هذه القاعدة والاستمرار في الحياة مدداً أطول؛ وما يعزز هذا الرأي ما نلاحظه في حياة النحل، فبينما لا تعيش العاملات أكثر من أربعة إلى خمسة شهور تعمّر الملكة ثماني سنوات لأنها تتغذى على مادّة الجلاتين الملكية.

على أنّ الموضوع لدى الإنسان ليس بهذه البساطة؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يعيش في مكان خاصّ وفي حرارة منظمة بشكل دقيق كما لا يمكنه الاقتيات على نوع محدّد من الغذاء وفي ظلّ رعاية كاملة كما هو الحال لدى ملكة النحل.

الإنسان يواجه أخطاراً عديدة وهي كما يحدّدها العلماء التسمّم الذاتي،

وقلّة الفيتامينات، وتصلّب الشرايين، وفي اعتقاد «جينز» الخبير الانجليزي فإن اضطراباً أو حدوث خلل في معدل نسبة الحديد والنحاس والمغنيسيوم والبوتاسيوم في جسم الإنسان سوف يسبب كارثة تؤدي إلى الموت في بعض الأحيان.

وفي كلّ هذا لم يذكر العلماء الشيخوخة كسبب من أسباب الموت.

ويعتقد الطبيب السويدي رئيس الجمعية العلمية الأميركية لطول العمر أنّ الشيخوخة إنّما تحصل بسبب التصاق جزئيات من البروتين مع خلايا الجسم تشلّ من نشاطها شيئاً فشيئاً إلى أن تسبب الموت، والدكتور المذكور بصدد البحث عن مادّة تحول دون هذا الالتصاق، ويمكنها إعادة نشاط الجسم وتشغيله من جديد وبالتالي القضاء على مرحلة الشيخوخة.

وقد تمكّن العلماء من إطالة عمر بعض الحيوانات من قبيل الخنزير الهندي وذلك بإضافة فيتامين «**B6**» و«أسيد نوكليك» و«أسيد پانتونكسيك» إلى غذائها فزاد عمرها بنسبة ٤٦/٤ بالمائة.

ويفكّر العالم الروسي «فيلاتوف» بالاستفادة من الأنسجة المتحلّلة في الجسم «كسماد» زراعي في إعادة تخصيب الجسم لما لها من قدرة مدهشة في ذلك.

وإضافة إلى كلّ هذا توجد بين أيدينا قواعد ووصايا يمكنها إحداث زيادة في العمر، منها في النظام الغذائي المتّبع وطرق الاسترخاء، وأُصول للتنفس وغيرها ذلك(١).

تحقيقات علمية حول العمر

وهناك موضوع آخر نشر في إحدى المجلات الغربيّة ترجمت مقتطفات منه:

«يقول علماء مختصون في هذا المضمار: إنّ بإمكان الجسم أو أي عضو منه

(١) عن مجلة كونستلايسن الفرنسية / ١٩٦٣.

الاستمرار في الحياة مدّة غير محدودة إذا لم يتعرّض إلى طارئ خارجي، وقد تصل المدّة آلاف السنين، وهذا الرأي لا يستند على الحدس أو الخيال، بل هو نتيجة تجارب علمية عديدة.

فقد تمكّن أحد الجرّاحين الاحتفاظ بعضو حيواني مقطوع مدّة تفوق عمر الحيوان الميّت نفسه. وإذا ما استمر توفير الغذاء الكافي لهذا العضو فإنّه سيستمر في الحياة مدّة طويلة.

كما أجرى الجرّاح الدكتور «الكسيس كاريل» في مؤسسة «روكفلر» العلمية بنيويورك التجربة الآنفة الذكر على جزء مقطوع لدجاجة، وقد استمرت الحياة فيه مدّة ثمان سنوات، وأُعيدت التجربة على أعضاء إنسانية كالعضلات والقلب والجلد والكلىٰ، حيث لوحظ استمرار الحياة فيها ما دامت التغذية مستمرة.

ويقول «ريموند» و«بريل» الأُستاذان في جامعة «جونز هبكنز»: إنّ الأعضاء الرئيسية في جسم الإنسان لها القابلية على الدوام والخلود، وقد ثبت ذلك بالتجارب العلمية العديدة.

ويبدو أن «جاك لوب» في مؤسسة «روكفلر» هو أول من انتبه إلى ذلك خلال تجاربه حول بيوض الضفادع حيث وجد أن بعضها يموت سريعاً فيما يبقى البعض الآخر مدداً أطول، ممّا دفعه إلى إجراء تجاربه حول أعضاء من الضفدعة حيث تمكن من الاحتفاظ بها حيّة مدّة طويلة.

وأثبت الدكتور «فرن لويس» بمعونة زوجته إمكانية الاحتفاظ بأجزاء جنينية لبعض الطيور حيّة في ماء مالح وإضافة موادّ معينة لنموها.

وقد استنتج الدكتور «كاريل» من خلال تجارب مستفيضة أنّ الأعضاء التي أجريت عليها التجارب لا تتعرّض للشيخوخة وأنّها تعمّر أكثر من الحيوان نفسه، وقد واجه هذا العالم مشاكل عديدة لدى بدء تجاربه سنة **١٩١٢**م، ولكنّه استطاع

بمعيّة فريقه التغلّب عليها والتوصل إلى نتائج مذهلة :

- إنّ الخلايا تبقى مستمرة في الحياة ما لم تدخلها الجراثيم أو ينقطع عنها الغذاء .

- إنّ الأجزاء الحيّة لا تحتفظ بحياتها فحسب ، بل تنمو وتتكاثر كبقية الأجزاء في جسم الكائن الحية .

- يمكن التحكم في النمو والتكاثر عن طريق نسبة الغذاء .

- إنّ الأعضاء لا تتأثّر بمرور الزمان ولا تضعف ولا تشيخ ، وهي تنمو باستمرار .

ومن هنا يتّضح أنّ ظاهرة الشيخوخة ليست سبباً بل نتيجة لأسباب أُخرى .

وأن موت الإنسان لا يتحدّد بمرور سبعين أو ثمانين أو حتّى مائة من السنين على حياته .

إنّ جسم الكائن الحيّ معقّد في تكوينه وتنوّع أعضائه ، وإن تعرّض عضو ما للضعف بسبب مرض ما ، يؤثر على سائر الأعضاء الأُخرى . وهذا ما يؤثّر على استمرار الحياة ، فهناك من يموت في سنّ الطفولة ، وهناك من يعمّر أكثر من قرن .

ومتى ما تمكّن العلم من حماية الجسم من هجمات الجراثيم وإيقاف التسمّم ، وإيصال الغذاء الكافي إلى الأعضاء فإنّ باستطاعة الإنسان أن يعيش مدّة طويلة جدّاً كما هو الحال في بعض الأشجار المعمّرة ، وبالطبع ليس من المتيسّر للعلم في الوقت الحاضر أن يحقّق ذلك ، ولكنه قد يمكنه أن يضاعف من متوسط حياة الإنسان وجعله يعيش مدّة طويلة نسبيّاً .

وقد ذكر عالم إنجليزي في بحثٍ له : أنّ العلماء قد تمكّنوا من مضاعفة عمر حشرة الفاكهة تسعمائة مرّة بقدر عمرها الطبيعي وذلك بحمايتها من الجراثيم والسموم وتوفير ظروف مناسبة .

من أسرار الموت

يقول البروفيسور « ميتالينكوف » الخبير في حالات الوفاة أنّ جسم الإنسان يتألّف من ثلاثين (تريليون) من الخلايا المختلفة والتي لا يمكن أن تموت كلّها في لحظة واحدة ، ولا يتحقق الموت إلّا بعد حدوث تغيّرات كيميائية في المخّ غير قابلة للإصلاح .

وفي مدينة مونتريال بكندا كان الدكتور « هانس سيلي » يجري في مختبره بحوثاً حول ظاهرة الموت ، وعرض لمراسلي الصحف نسيجاً من الخلايا الحيوانية ، وصرّح بأنّ النسيج هذا ما يزال حيّاً وفي حالة نشاط حيوي وأنّه لن يموت أبداً . وبعبارة أُخرى أنّه أزلي . وأضاف الدكتور قائلاً : إذا تمكّنا من تحويل النسيج الإنساني بهذا الشكل فإنّ من الممكن أن يعيش الإنسان ألف عام .

ويعتقد البروفيسور سيلي أن الموت مبدئيّاً هو نوع من أنواع المرض المتدرج ، ولا يمكن أن تكون الشيخوخة السبب الذي يؤدي إلى الموت ، ولو كانت الشيخوخة هي السبب لتوجّب أن نرى تفسّخ جميع خلايا الجسم ومن ثمّ توقّف جميع الأعضاء عن العمل .

وأضاف : أنّ علم الطب سيشهد تطوّراً في المستقبل ، وسيتمكن من إعادة بناء الخلايا المتفسّخة عن طريق زرع خلايا جديدة ، وهكذا سوف يتضاعف عمر الإنسان حسب رغبته[١] .

ويرى « متشنكوف » أنّه ينبغي تحديد فسلجة الشيخوخة الناجمة عن النمو الطبيعي ، والشيخوخة نتيجة التأثيرات الأُخرى من قبيل « السموم ، الأمراض والعوامل الأُخرى » وتنهض نظريته على أساس أن الشيخوخة مرض كسائر الأمراض

---

(١) عندما يشيخ الإنسان « باللغة الروسية » لميتشنكوف .

الأُخرى ، وانّ الإنسان ينطوي على قابلية العيش لمدد طويلة ، وأنّه ينبغي البحث لاكتشاف السُبل التي من شأنها معالجة الشيخوخة كمرض فسيولجي »[١] .

نظرية أُخرى

ويقرّر البروفيسور « سيليه » وزملاؤه بعد سلسلة من التجارب الطويلة أنّ التغيّرات الحاصلة في وضع الكالسيوم هي وراء أعراض الشيخوخة .

وحول سؤال عن وجود مادّة تحول دون حدوث الشيخوخة أجاب البروفيسور : لقد توصّلنا إلى اكتشاف مادّة « آيرون دكستران » وهي ذات أثر بالغ في منع ترسبات الكالسيوم في الأنسجة ، ويعقب قائلاً : أنّه لا يمكن بطبيعة الحال إعادة شيخ في التسعين إلى ما كان عليه في سنّ الستين ، ولكن من الممكن حماية شيخ في الستين من الابتلاء بخسائر شيوخ التسعين .

ويقول البروفيسور « ايتنجر » : إنّ الأجيال القادمة سوف تصطدم بحقيقة الإنسان الخالد كما هو الحال في غزو الإنسان للفضاء ، وإنّ تطوّر العلوم سيكفل حياة الإنسان لألف عام .

مقتطفات من كتاب روسي

كان الإنسان وما يزال يحلم بحياة طويلة ؛ وأمنية العمر الطويل من أماني البشر منذ فجر الإنسانيّة وهاجسها الكبير ، وقد ظلّ الموت هو النهاية الأكيدة لكلّ كائن حيّ .

إنّ جسم الإنسان يتألّف من عشرات التريليونات من الخلايا ، وانّها تصاب بالشيخوخة شيئاً فشيئاً وتؤمّن حاجتها الغذائية بصعوبة كما يحصل اختلال في

---

(١) العالم : العدد ٧ / السنة الثالثة .

تكاثرها، ثمّ تموت لتتحول تدريجياً إلى أنسجة متصلّبة، وتدعى ظاهرة التصلّب هذه بـ (Soclerose)، فمثلاً، يُقال: « سكلروز القلب » أو « سكلروز الشرايين » وغير ذلك.

ويرى إيليا متشنكوف الطبيب والفسيولوجي الروسي الكبير أنّ هذه الظاهرة تنجم بسبب سموم « تركسين » الذي تنتجه الجراثيم المستوطنة في الأحشاء؛ وهي وراء تسمّم الأنسجة الحيّة تدريجياً.

ويعتقد بافلوف: أنّ الجهاز العصبي وخاصّة الضغوط الخارجية للمخّ هي وراء ظهور الشيخوخة، وأنّ التغيرات الروحية والتقلّبات النفسية كالحزن، والكآبة واليأس والخوف هي وراء تحطيم الخلايا العصبية للجسم وإضعافها، ومن هنا ينشأ التفسّخ العصبي الذي يجرّ خلفه أمراض الشيخوخة ومن ثمّ الموت.

وفي النهاية فإنّ خلود الإنسان أمرٌ مستحيل ولكن إطالة عمره أمرٌ ممكن.

علم الشيخوخة

منذ ثلاثة قرون تقريباً نشأ علم جديد تفرّع عن علم الأحياء هو علم الشيخوخة (Cetotolcgie)، ويبحث هذا العلم في ظاهرة الشيخوخة وبواعثها وسبل التغلّب عليها، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم آخر هو الـ « ثيوثولوجي » أو معرفة الموت، ويعتقد العلماء أن الموت ينشأ عن خلل في النشاط الحيوي، حيث يحدث الموت فسيولوجياً.

وينصبّ الجهد الآن لرفع عمر الإنسان إلى الحدّ الطبيعي، وهو في نظر العلماء أكثر ممّا هو عليه اليوم.

إذ يرى بافلوف ذلك في مائة عام، ويراه متشنكوف ما بين ١٥٠ ـ ١٦٠، في حين يعتقد الألماني (غوفلاند) بأنّه يرتفع إلى ٢٠٠ عام، فيما يراه الانجليزي « روجر بيكون » أنه ألف عام، على أنّ أحداً من هؤلاء لم يثبت نظريته بأدلّة مقنعة.

نظرية بوفون

يعتقد العالم الطبيعي الفرنسي « بوفون » أنّ عمر الكائن الحيّ يساوي خمسة أضعاف سنّ الرشد والبلوغ لديه.

فمثلاً تبلغ فترة البلوغ لدى النعامة (٨) سنوات ومتوسط عمرها يبلغ (٤٠) سنة، وتبلغ مدّة النمو لدى الحصان سنتين، فيعمّر ما بين ١٥ ـ ٣٠ سنة.

ومن هنا يرى بوفون أنّ متوسط عمر الإنسان ينبغي أن يكون (١٠٠) سنة، لأن فترة نموه وبلوغه تصل إلى ٢٠ سنة.

وفي قاعدة بوفون هذه توجد استثناءات عديدة؛ لهذا قبعت في زاوية النسيان.

وكمثال على ذلك تبلغ فترة النمو لدى الخراف (٥) أعوام، في حين أنّها تعيش بين ١٠ ـ ١٥ سنة، بينما نجد الببغاء تبلغ سن الرشد في عامين ولكنّها تعمّر أكثر من مائة عام؛ وتستغرق فترة البلوغ لدى النعامة ٣ أعوام وتعيش ما بين ٣٠ ـ ٤٠ سنة.

ولقد ظلّ العلماء عاجزين عن تحديد أمد معيّن لعمر الإنسان ولكن الاعتقاد يسود في قابلية الإنسان على العيش إلى « ٢٠٠ » سنة.

غداً يعيش الإنسان أكثر

قليلون هم الذين عاشوا أكثر من ١٥٠ سنة، ولهذا بقي لهم ذكر في التاريخ، فقد توفّي فلاّح مجري سنة ١٤٢٧ عن عمر بلغ ١٨٥ عاماً وكان يعمل بنشاط حتّى آخر يوم في حياته، وتوفّي « جان رافل » عن عمر ١٦٠ سنة وكان عمر زوجته ١٦٤ سنة وقد عاشا معاً مدّة « ١٣٠ » عاماً.

وبلغ عمر « خوده » وهو ألباني « ١٧٠ » سنة وعندما توفّي كان له أكثر من مائتي من الأولاد والأحفاد، ونشرت الصحف قبل سنوات خبر رجل من أميركا الجنوبية

توفّي عن عمر ٢٠٧ سنوات ، وأنّ عدد الذين عاشوا قرناً ثانياً في الاتحاد السوفيتي (السابق) ثلاثون ألفاً .

ويبذل العلماء الروس في الوقت الحاضر جهوداً كبيرة في معرفة بواعث الشيخوخة وسرّ العمر الطويل .

متوسط عمر الإنسان

كان متوسط عمر الإنسان في عهد اليونان (٢٩) سنة ، وفي عهد الرومان أكثر من هذا بقليل ، بينما بلغ في أوربا قديماً ٢١ سنة وشهد زيادة بلغت ٢٦ سنة في القرن الثامن عشر ، ثمّ قفز إلى « ٣٤ » سنة في القرن التاسع عشر ، ثمّ ارتفع فجأة ليصبح ٤٥ ـ ٥٠ سنة مع بداية القرن العشرين .

وهذه الإحصائية تشمل قارّة أوربا فقط ؛ ويعدّ انحسار نسبة الوفيات بين الأطفال الأساس في ارتفاع متوسط العمر ؛ مع التأكيد على البون الشاسع بين البلدان المتقدّمة والنامية ، فبينما يبلغ متوسط العمر في الاتحاد السوفيتي (السابق) ٧١ سنة نجده في الهند دون الثلاثين عاماً .

وبالرغم من اعتبار الإنسان من أرقى الحيوانات ، ولكن عمره أدنى بكثير من بعضها .

نظرية متشنكوف

لو تأمّلنا في نظرية العالم الروسي لاتّضح لنا سبب البون الشاسع بين متوسط عمر الإنسان ، ومتوسط العمر لدى الحيوانات ، ويعلّل الشيخوخة والموت المبكر إلى تسمّم الأنسجة الناتج عن بكتريا الأمعاء ، التي تعدّ أخصب مكان في الجسم لإنتاج السموم .

ويشهد هذا الجزء من الجسم تولّد (١٣٠) تريليون من الجراثيم. وبطبيعة الحال فإنّ أغلبها لا يلحق أضراراً بالجسم بينما ينشأ عن بعضها السموم التي يعود إليها تصلّب الأنسجة ثمّ ظهور الشيخوخة.

وتُشير الجداول العلمية إلى أن الأسماك والزواحف والطيور تعمّر أكثر من الثدييات، والسبب في ذلك يعود إلى انعدام وجود الأمعاء المولّدة للبكتريا، ولهذا نجد عمر النعامة وهي تمتلك أمعاءً مولدة كبيرة قصيراً نسبياً فهي لا تعيش أكثر من **٣٠ ـ ٤٠** سنة.

وتعيش الحيوانات المجترة أقلّ الأعمار بين سائر الحيوانات وذلك للتوسّع والنمو في أمعائها والتي تولّد البكتريا بنسب عالية.

ويعيش الخفاش الذي يتغذى على الحشرات عمراً أطول من سائر آكلات الحشرات بسبب صغر أمعائه.

ومن هنا يظهر أنّ للأمعاء تأثيراً أساسياً في تحديد عمر الإنسان ولكن ليس بالحجم الذي تصوّره النظرية.

لقد عاش البعض حياة طويلة بعد استئصال هذا الجزء من الجسم الذي يعدّ غير أساسي في الجسم، على الرغم من أنّ البعض من الناس عاشوا أكثر مع وجوده.

نظرية غير معروفة في سبب الموت

وفي الختام نشير إلى أنّه لا يوجد أدنى شكّ في أنّ الموت ما هو إلّا انفصال الروح عن الجسد، ولكن ما يثير التأمّل والاهتمام هو:

- هل انّ الجسم هو الذي يوفّر أسباب الموت؟ أم الروح هي وراء تفسّخ الجسم عندما تزمع الرحيل؟

إنّ غالبية العلماء يؤيّدون المقولة الأولى؛ ويقولون بأنّ انتهاء حرارة الجسم

الذاتية هو السبب في ضعف الأجهزة وعجزها عن القيام بوظائفها، ومن ثمّ تصبح الروح عاجزة عن البقاء في الجسم فتضطر للرحيل.

لوّحت روحي وداعاً، صحتُ: لا هتفتْ: ما حيلتي والسقف خرّ[1]

وفي مقابل هذا يطرح الفيلسوف الإسلامي الكبير «ملاّ صدرا» النظرية الثانية في كتابه «الأسفار الأربعة» فيُشير إلى أنّ إدارة الجسد ورعايته موكولة إلى الروح وهي التي تتحكّم فيه كيف تشاء، وأنّها تتعلّق بالجسد بأواصر قويّة ما دامت محتاجة إليه، ولكن عندما يشتدّ استقلالها وتتضاءل حاجتها إليه يضعف تعلّقها وينجم عن إهمالها له التحوّل والشيخوخة والهرم، وعندما تتخلّى عنه نهائياً تحدث لحظة الموت.

وعلى أساس النظرية الثانية يمكن تفسير طول عمر الإمام بأنّ روحه العظيمة تحسّ بضرورة وجودها واستمرارها من أجل أداء أعظم مهمّة يمكن للكائن البشري القيام بها في الأرض؛ ومن هنا فإنّ هذه الروح المقدّسة تحفظ للجسم طراوته وفتوّته.

وأرى من اللازم هنا التأكيد أنني لستُ بصدد الدفاع عن هذه النظرية ولكني أشرت إليها لمجرّد الأمانة في البحث العلمي، وعلينا ألّا نتسرّع في قبولها أو رفضها، خاصّة وأننا نجهل تماماً طبيعة الروح وأثرها في الجسم ونوع العلاقة بينهما، وهي مسألة في غاية التعقيد وما يزال الإنسان يقف مشدوهاً وجاهلاً إزاء الروح، وما يزال العلماء في أوّل الطريق.

يقول الدكتور «الكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»: «لا يتوفر لدينا إلّا النزر القليل من المعلومات عن طبيعة الإنسان، ولو أن غاليلو ونيوتن

(١) الأصل الفارسي:

جان قصد رحيل كرد گفتم كه مرو گفتا چكنم خانه فرو مى‌آيد

ولافوازيه وأمثالهم بذلوا جهودهاً في دراسة جسد وروح الإنسان لتغيّر شكل العالم عمّا هو عليه اليوم.

يمكن أن نستنتج من كلّ ذلك أنّه:

- لا يوجد حدّ أعلى لعمر الإنسان، ولم يقل أحد العلماء أنّ هناك سنّاً محدّدة للإنسان يكون فيها الموت حتمياً له.

بل لقد أجمع علماء من الشرق والغرب على أنّ الإنسان يمكنه في المستقبل التغلّب على الشيخوخة ودفع شبح الموت عنه طويلاً، ومن هنا نرى أن الشيخوخة نتيجة لا سبب، وأنّه من الممكن علاجها كسائر الأمراض الأُخرى.

- هناك شواهد على إمكانية العمر الطويل في العديد من الكائنات الحيّة من نباتات وحيوانات وبشر في بعض الأحيان، وعندما نلاحظ البعض يعيش (١٥٠) أو (١٨٠) أو (٢٥٠) عاماً هذا يعني أنّ الإنسان يمكنه أن يعمّر طويلاً.

صحيح أنّ الإنسان عادة ما يموت قبل بلوغ المائة، ولكن هذا لا يعني دليلاً على حتمية الموت في هذه السنّ.

- إنّ الشيخوخة هي ظاهرة مرضية وهي ليست مستحيلة العلاج، ولقد تمكّن العلم من إنجاز أعمال كانت فيما مضى مستحيلة وهو ما يزال يشقّ طريقه قدماً في فتوحات جديدة، فمن الممكن في المستقبل اكتشاف أسباب الشيخوخة ومن ثمّ علاجها؛ وهناك بعض العلماء يقومون بإجراء العديد من التجارب والبحوث من أجل العثور على أكسير الشباب؛ ولا يمكن الادّعاء بأنّ جهودهم سوف تذهب سدىً، فمن المحتمل جدّاً نجاحهم في هذا المضمار وبالتالي سيكون بمقدور الإنسان الحياة المدّة طويلة.

وإذا افترضنا وجود شخص ما في كامل حيويته البدنية وكانت أعضاء جسمه كالقلب والكلىٰ والكبد والجهاز العصبي والمعدة وغيرها سليمة تعمل بانتظام،

وكان هذا الشخص ملمّاً بما ينبغي تناوله من غذاء ويتّبع في ذلك نظاماً صحيّاً عالياً؛ وأنّه إلى جانب ذلك يعرف طرق الوقاية من الأمراض ويعرف كيف يجهّز بدنه بالفيتامينات، ويتمتع بروحية عالية تهبه الشهور بالطمأنينة بعيداً عن القلق والكآبة وكلّ ما يعتور الإنسان من أمراض نفسية، فإنّ بإمكان هكذا شخص أن يعمّر طويلاً، وأن يعيش أضعافاً مضاعفة مما تعارف عليه الناس من العمر الطبيعي.

وبناءً على هذا فإن مسألة العمر الطويل في شخصية الإمام المهدي لن تكون مستعصية الحلّ أبداً، فالعلم يؤمن من ناحية مبدئيّة بإمكانية ذلك.

إضافة إلى التأكيد على جانب هامّ وهو أنّ الله قد ادّخر هذا الإنسان لإصلاح العالم ومن ثمّ وهبه ما يساعده على استمرار حياته دون ضعف أو انتكاس.

كما أنّ هناك بحوث عديدة تؤكد ضرورة وجود الإمام عقلاً وهو ما تضافرت عليه الروايات والأخبار عن النبيّ وآله حول وجود اثني عشر إماماً، وأنّ الإمام المهدي هو ابن الإمام الحسن العسكري، وقد توارى عن الأنظار لأسباب قاهرة.. وكانت المشكلة التي تعترض طريق الإيمان بالإمام هي العمر الطويل، وقد بحثنا إمكانية ذلك عمليّاً.

المعمّرون في التاريخ

إنّ التاريخ يزخر بنماذج عديدة، وهناك من عمّر قروناً متمادية، إذ يرى بعض المؤرخين أن عمر نوح بلغ ٢٥٠٠ عاماً، وتشير التوراة إلى أنّه عمّر ٩٥٠ سنة، بينما يؤكّد القرآن صراحة أنّ مدّة دعوته في قومه بلغت ٩٥٠ سنة، قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾**[1].

---

(١) العنكبوت: ١٤.

فإذا كان هناك تردّد في قبول آراء المؤرخين ، فإنّ القرآن كتاب الله ولا يتطرّق إليه الشك وهو يحدّد صراحة مدّة الدعوة بـ « ٩٥٠ » سنة ، غير مدّة ما قبل النبوّة والمدّة التي أعقبت حادثة الطوفان.

والآية لا يكتنفها الإبهام والغموض في مدلولها ، إنّها لا تحتمل تفسيراً ثانياً أبداً.

وقد أورد المسعودي في كتابه عدداً من المعمّرين عبر التاريخ وهم آدم : **٩٣٠** سنة ، شيث : **٩١٢** سنة ، أنوش **٩٦٠** سنة ، قينان : **٩٢٠** سنة ، مهلائل **٧٠٠** سنة ، لوط : **٧٣٣** سنة ، إدريس : **٣٠٠** سنة ، متوشالح : **٩٦٠** سنة ، لمك : **٧٩٠** سنة ، نوح : **٩٥٠** سنة ، إبراهيم : **١٩٥** سنة ، كيومرث : **١٠٠٠** سنة ، جمشيد : **٦٠٠** سنة أو **٩٠٠** سنة ، عمر بن عامر : **٨٠٠** سنة ، عاد : **١٢٠٠** سنة[١].

على أننا لا ننفي الخطأ والمبالغة من كتب التاريخ أو التحريف في التوراة مثلاً ، ولكن شهادة القرآن تؤكّد هذه الظاهرة الإنسانيّة ، وهي الإشارة إلى المدّة التي لبث فيها نوح يدعو قومه ؛ ومن يريد التحقيق في كتب التاريخ فيمكنه الرجوع إلى « المعمرون والوصايا » لأبي حاتم السجستاني ، وإلى « الآثار الباقية » لأبي ريحان البيروني ، وغيرها من الكتب التاريخية.

---

(١) مروج الذهب : ٢/١.

الملحق الخامس

مستقبل العالم

نهاية التاريخ

السؤال هنا كيف يتصوّر قيام حكومة عالمية يرأسها شخص واحد في عالم يموج بالصراعات والاختلافات ؟

من المستبعد قيام حكومة عالمية في الظروف الحالية ، ولكن وكما هو واضح فإن البشريّة تمضي قدماً في طريق العلم والتطور والنضج ، وبالطبع فإن العالم لم يكن فيما مضى مثلما هو عليه الآن وإنّه في حالة تغيّر مستمرة ، وإن سرعة التقدّم العلمي تزداد باستمرار ، وسيرقى البشر إلى مستوى من التفكير يجعلهم يهتمون بالبعد الاجتماعي العام ، وهذا الاتجاه يؤكده التفكير السائد في العصور القديمة .

إنّ حبّ الذات والأنا متجذّر في الإنسان منذ فجر الخليقة ، وهو الباعث الوحيد للعمل والنشاط والسعي ؛ إنّه يعمل من أجل تحقيق ذاته وإسعاد نفسه ، فإذا اعترض طريقه شيء أزاحه غير مكترث بمصالح الآخرين ، ولكن عندما يرى أنّ مصلحته تتوقّف على مصلحة الآخرين فإنّه لن يتردّد في السعي لتأمين تلك المصلحة العامّة والتضحية بجزء من مصالحه الخاصّة .

ولعلّ الزواج أوّل خطوة قطعها الإنسان في هذا الطريق ، فهو تنازل عن أنانية طاغية لصالح الآخر ، فالرجل والمرأة كلاهما يشعران بالحاجة لبعضهما البعض ، وهذا هو الباعث الذي دفعهما إلى الاقتران ، على أنّ استمراره وديمومته يضطرهما إلى التخفيف من حدّة الأنانية ومن ثمّ احترام حقوق ومصالح الطرف الآخر ، ومن هذا الاقتران ولدت الحياة الأُسرية ، وهي في الأصل تحقيق لرغبة ذاتية من أجل السعادة والكمال ، وعندما وجد الإنسان سعادته متوقفة على إسعاد

الآخرين فإنّه لم يتردّد في السعي من أجل إشاعة البهجة في نفوس أُسرته .

عاش الإنسان حياته الاجتماعية الصغيرة متنقلاً هنا وهناك ، وكانت تحدّيات الحياة قد أوحت إليه بالاستقرار ضمن تجمّعات أكبر لمواجهة أعباء الحياة ، فهناك الكوارث الطبيعية ، والغارات التي تتطلب الدفاع ، وهكذا ظهرت في العلاقات الاجتماعية أنماط عديدة على شكل قبائل وطوائف ، فكانت مصلحة القبيلة هي الهدف الأعلى لكلّ أفرادها ، ومن هنا تطلّب الأمر تضحية بالمصالح الشخصية من أجلها ، وهذا التطور في مستوى التفكير هو الذي قاد إلى إنشاء مجتمعات أكبر ومن ثمّ ظهور القرى والمدن حيث أصبحت للأفراد مصالح مشتركة محترمة من الجميع .

واستمر التطوّر في هذا الاتجاه ومن ثمّ تعقّد العلاقات الاجتماعية وظهور الشعور العدواني الذي دفع بالقرى والمدن إلى الانتظام في تجمّعات أكبر اتّخذت شكل الوطن الذي يحقّق لأبنائه مصالح مشتركة من خلال ذوبانهم ضمن قاسم مشترك عريض .

وأصبح الإنسان مواطناً يحمل في أعماقه هموم الوطن الكبير متجاوزاً حدود اللغة والعرق ، وأنّه يعد أبناء الوطن كما لو كانوا أفراد في أُسرته الكبيرة التي ينتمي إليها . وبالطبع فإن هذا الشكل من الحياة الاجتماعية وهذه الطريقة في التفكير لم تكن وليد حقبة من الزمن ، بل إنّه طريق استغرق آلاف السنين ، غير أنّ البشريّة لم ترتق في الوقت الحاضر إلى مستوى النضج المنشود ، وما يزال المشوار طويلاً أمام الإنسانيّة حتّى تصل إلى رشدها الكامل .

لقد تطوّرت وسائل الاتصال بين الشعوب وتشابكت مصالح الدول حتّى غدا العالم قرية كبيرة يتضاءل حجمها من خلال نمو طرق الاتصال ، والإنسان الذي كان يقطع مسافة ما في شهور أمسى اليوم وهو يقطعها في دقائق .

لقد ولّى الزمن الذي تعيش فيه الدول والبلدان في عزلة عن العالم ، وباتت الدول

تتطلع إلى علاقات أوسع من أجل تأمين السعادة لها ولغيرها.

وانعكست هذه الإرادة في الإنسان لتتبلور في شكل أحلاف سياسية وعسكرية وأسواق اقتصادية مشتركة، حتّى أنّ المعاهدات والأحلاف نفسها في توسّع مستمر لدرء المخاطر المشتركة وحلّ الأزمات العالمية وتوفير أسباب الرفاه والاستقرار والسلام للبشرية جمعاء.

ويعتقد بعض المفكّرين أن التغيّرات الحالية ما هي إلّا إرهاصات لتحوّل شامل وجذري، حيث ستدرك البشريّة بعدها أنّ هذا القدر المحدود من المعاهدات والأحلاف الضيقة لن يجنّب البشر المخاطر المحدقة بهم، ولا يعالج أزماته المتوترة هنا وهناك من دنيا الله، بل ان بعضها يؤدي إلى مضاعفات خطيرة ومشكلات كبرى.

لقد أدرك الإنسان في الوقت الحاضر أنّ الأنانيّة لن تكون طريقاً لتحقيق السعادة، وأنّ حبّ الذات الحقيقي يكمن في حبّ الإنسانيّة بأسرها، وأنّ البشريّة كلّها ما هي إلّا أسرة واحدة.

وستدرك المجتمعات أنّ الشرائع التي لا تسع لهموم الأرض كلّها والتي تبث روح الفرقة لن تكون قادرة على إصلاح العالم، وما تشكيل المؤسسات الدولية كالأمم المتحدة والمجامع العالمية ومنظمات حقوق الإنسان ومؤسسات المجتمع المدني إلّا مؤشرات عميقة على هذا التوجّه للإنسانية وأنّه مقدّمة لصحوة كبرى حيث يكون العقل البشري في ذروة رشده ونضجه وتكامله.

وبالرغم من تسلّط غير المخلصين على مقدّرات الشعوب وتمكّنهم من المواقع الحسّاسة فإنّ ذلك لا يبعث على اليأس من مستقبل الإنسانيّة المشرق.

ويمكن القول أنّ الوضع العالمي العام وما يجري من حوادث في هذه البقعة أو تلك من العالم يقود إلى الاعتقاد بأن البشريّة ستقف عند مفترق طريقين حيث الاختيار بين المادّية والدين، والتسليم إلى إرادة الله.

إنّ قوانين الأرض وشرائعها لم تمنح السلام والطمأنينة للبشر، بل زادتهم خبالاً وبالتالي فإنّ الإنسان سوف يتّجه غريزياً إلى السماء، سيطلب العون من خالقه، وإنّ غريزة العبودية لله متجذّرة في النفوس، وإنّ جذوة الإيمان بالله الخالق الرحيم لا تنطفئ أبداً، وانّ الدين وحده وخاصّة الإسلام هو الذي يمنح الإنسان الأمل.. الأمل بحياة طيبة؛ لأنّه يبني الحياة على أساس شريعة الله وفطرة الإنسان، وعندما تنشرح الصدور لدين الإسلام فإنّها ستجد نفسها في الطريق إلى السعادة.

إنّ دعوة الإسلام عالمية تخصّ البشر جميعاً، وإنّ المسلمين هم من ينهض بهذه المسؤولية الكبرى، فمنذ أربعة عشر قرناً يدعو القرآن أتباع الأديان الماضية إلى كلمة التوحيد.

قال تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**(١).

وقد ورد في الأحاديث عن رسول الله ﷺ خروج رجل من أهل بيته يوقظ العقول، ويجمع الناس على عقيدة التوحيد، ويجتثّ من النفوس العداوة والبغضاء، ويكون عهده عهد السلام.

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: **«إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم، وأكمل به أخلاقهم»**(٢).

وقال الإمام عليّ عليه السلام: **«بنا يفتح الله، وبنا يختم الله، وبنا يمحو ما يشاء، وبنا يثبت، وبنا يدفع الله الزمان الكلب، وبنا ينزل الغيث، فلا يغرّنّكم بالله الغرور، ما أنزلت السماء قطرة من ماء منذ حبسه الله عزّ وجلّ، ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء**

---

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) الخرائج والجرائح: ٢/٨٤٠، الحديث ٥٧. بحار الأنوار: ٥٢/٣٣٦، الحديث ٧١.

قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب العباد»[١].

وعن الباقر عليه السلام قال: «... **ويجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض ومن ظهرها**»[٢].

النصر للمستضعفين

إنّ العالم مترع بالظلم والقهر والاستعباد، ومقاليد الحكم بأيدي الجبّارين من الطغاة والمستكبرين، والشعوب مغلوبة على أمرها، خائفة، ليس لها حول ولا قوّة، فكيف يمكن للمهدي أن يثور في مثل هذه الظروف وينتصر؟!

إنّ انتصار المهدي هو انتصار المستضعفين والمقهورين؛ إنّ المستضعفين وإن كانوا مقهورين فهم يمثّلون الأكثرية الساحقة، والظالمين وإن بدوا أقوياء فهم فئة قليلة، ومن هنا فإنّ الأمل بانتصار المستضعفين كبير. إن انتصار المهدي أمر محتمل جدّاً، ومن المستحسن جدّاً أن نضيف هنا:

إنّ الآيات القرآنية، وكذا الأحاديث الشريفة تشير إلى يوم يهبّ فيه المستضعفون في كلّ العالم فتتهاوى وإلى الأبد الأنظمة الفاسدة التي تمثّل إرادة الطاغوت. قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾**[٣].

والآية الكريمة إشارة عميقة جدّاً إلى حكومة المستضعفين القادمة؛ ولكي نسلّط الضوء الكافي على هذا الموضوع نشير إلى ما يلي:

- ماذا يعني الاستضعاف، ومَن هم المستضعفون؟ ـ من هم المستكبرون؟
- كيف يقهر المستكبرون المستضعفين؟ ـ وكيف سينتصر المستضعفون؟

---

(١) الخصال: ٦٢٦. بحار الأنوار: ٣١٦/٥٢، الحديث ١١.

(٢) الغيبة / النعماني: ٢٣٧، الحديث ٢٦. بحار الأنوار: ٣٥١/٥٢، الحديث ١٠٣.

(٣) القصص: ٥.

- مَن يقود هذه الثورة العالمية ؟

أشار القرآن الكريم إلى فريقين هما المستضعفين والمستكبرين وحدّد علامات وخصال كلّ منهما ، فمثلاً كان فرعون مستكبراً ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[1].

ففرعون قد علا في الأرض وراح يقهر طائفة من الناس ، ويبثّ الفرقة بينهم .

﴿**وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾[2]. وهو مسرف متكبّر.

﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾[3].

يغرّر بالناس ويحملهم على طاعته من دون الله .

﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الْأَرْضِ**﴾[4].

وإنّهم يرفضون الانصياع للحقّ ، بالتالي فهم يكفرون به .

﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِالَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ**﴾[5].

- المستكبرون لا يألون جهداً في نشر الكفر والفساد والانحراف .

---

(١) القصص : ٤.

(٢) يونس : ٨٣.

(٣) الزخرف : ٥٤.

(٤) العنكبوت : ٣٩.

(٥) الأعراف : ٧٥ و٧٦.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾[1].

وبالاستفادة من مجموع الآيات المذكورة يمكن الإشارة إلى بعض صفات المستكبرين:

- التكبّر والعلوّ في الأرض.
- إشاعة الاختلاف والفرقة.
- الإسراف والتبذير.
- الاستخفاف بالشعوب.
- الفساد.
- رفض الحقّ.
- نشر الفساد والانحراف.

إنّهم يسعون إلى الاستعلاء على الآخرين مدّعين الريادة والسياسة والعقل ومعرفة المصلحة أفضل من الآخرين، طالبين الطاعة العمياء لهم.

ولكي يحكموا سيطرتهم وتسلّطهم على الناس فإنّهم يبثّون روح الفرقة بين الناس على أساس اللون والدين، واللغة والقومية... إلخ.

ولكي يعززوا نفوذهم فإنّهم يعمدون إلى نشر الفساد وإلهاء الناس بالآثام والموبقات، وبالتالي استغلال الثروات لأطماعهم ومصالحهم، وبناء المؤسسات التي تكرّس سيطرتهم وتمكّنهم من البلاد.

فهم لا يرون إلّا أنفسهم ولا يقيمون للشعوب وزناً ولا اعتباراً.

---

(١) سبأ: ٣٣.

ومن خلال ذلك يتّضح لنا معنى الاستضعاف والمستضعفين، وما هو إلّا الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها، وهؤلاء الذين نسوا قوّتهم وانخدعوا بأباطيل المستكبرين وانطلت عليهم حيلهم ومكرهم ورضوا بالحياة الذليلة وركنوا إلى الظالمين.

بينما الحقيقة هي أنّ الأرض بما فيها من مقدّرات هي ملك المستضعفين، وانّ أسباب القوّة والتقدّم بأيديهم، وهم الذي يؤلّفون الجيوش أيضاً، وهم الذين يديرون المؤسسات التعليمية ويشغلون المصانع الإنتاجية، ويعملون ليل نهار، وبدونهم تتوقّف الحياة، فهم عصب القوّة الحقيقي.

غير أنّ المستكبرين نفذوا إلى نفوسهم وصوّروا لهم الأباطيل حقائق واستغلّوا جهلهم فتسلّطوا عليهم.

ولقد أرسل الله أنبياءه ليوقظوا هؤلاء المقهورين المغلوبين على أمرهم.

فكان الأنبياء رُسل الحريّة لإنقاذ الناس من الظلم، ومعلّمي البشريّة لإضاءة القلوب وطرد ظلام الجهل من العقول والنفوس، وكانوا يجهرون بكلمة الحقّ قائلين للمستضعفين: انهضوا فما الطواغيت إلّا قوّة كاذبة، وإنّ قوّتهم تكمن في خوفكم وفي جهلكم وفي غفلتكم عن الله. آمنوا بالله وحده واكفروا بالطاغوت.

لقد نهض إبراهيم عليه السلام في وجه النمرود، وصرخ موسى عليه السلام في وجه فرعون، وقام عيسى عليه السلام في وجه الجبابرة، وثار محمّد صلى الله عليه وآله في وجه طغاة مكّة من أمثال أبي جهل وأبي سفيان وأبي لهب.

وكان جهاد الأنبياء جميعاً ضد الكفر والشرك والفساد وقهر الناس.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[١].

---

(١) النحل: ٣٦.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾(١).

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(٢).

وتؤشّر هذه الآيات نقاطاً عديدة منها.

- إنّ المستكبرين ما هم إلّا قلّة ضعيفة، وإنّ قوّتهم مستمدة من مقدّرات المستضعفين واستغلالهم.

- المستضعفون أكثرية ساحقة وهم يملكون كلّ أسباب القدرة والقوّة الحقيقية، إنّهم ليسوا ضعفاء وإنّ ضعفهم جاء من انخداعهم بالأباطيل التي يلقّنها المستكبرون.

- إنّ أسوأ العوامل في شقاء المستضعفين هو إحساسهم بالضعف، وإنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولهذا انقادوا للمستكبرين خانعين متحمّلين صنوف العذاب والقهر والذلّ، وهذا الاحساس هو أساس المشكلة، لقد نسوا أنفسهم والقوّة التي ينطوون عليها وتصوروا خاطئين أنّ الطواغيت بعبع لا يُغلب!(٣).

- إن الطريق الوحيد للخلاص هو عثور المستضعفين على هويتهم المفقودة،

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) النساء: ٧٥ و٧٦.

(٣) إنّ تجربة صدام في حكم العراق بالحديد والنار وما خلفه ذلك من مذابح وحروب ومقابر جماعية ثمّ مشهد العثور عليه مختبئاً في جحر يصوّر بروعة القوّة الحقيقية لهؤلاء الجبابرة.

وشخصيتهم الضائعة، ثمّ اكتشافهم قدراتهم الكامنة، وعندما يجدون ذلك تحدث المعجزة فتتحطم القيود والسلاسل، ويتهاوى الطواغيت؛ فالطواغيت لا يملكون ذاتياً أيّة قدرة يستندون إليها. إنّها قدرة المستضعفين المستغلّين الغافلين.

ولو انتبه المستضعفون إلى ذلك لما بقي الطواغيت في الحكم لحظة واحدة.

إنّ قوّة المستضعفين قوّة عظيمة تنطوي على آلاف العقول المفكّرة والسواعد المفتولة والقلوب الطاهرة التي يمكنها أن تغيّر وجه الدنيا؛ وها هو العالم شئنا أم أبينا يسير باتجاه اليوم الموعود يوم يثور المظلوم على الظالم.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[١].

وهو يوم وعد الله به الذين آمنوا أن يسود السلام والأمن **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾**[٢].

إننا نجد إضافة إلى ما ذكرناه من مؤشرات وآيات بيّنات أحاديث كثيرة تبشّر المقهورين بيوم الخلاص.

عن الباقر عليه السلام: «**إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع به عقولهم، وأكمل به أخلاقهم**»[٣].

وسيشهد العالم انتشار الإسلام دين المحبّة والسلام على يد المهدي وأنصاره من

---

(١) القصص: ٥.

(٢) النور: ٥٥.

(٣) الخرائج والجرائح: ٨٤٠/٢، الحديث ٥٧. بحار الأنوار: ٣٣٦/٥٢، الحديث ٧١.

المستضعفين ، وعندها تتهاوى قصور الطواغيت والمستبدّين من الذين قهروا الشعوب وأذلّوها واستخفوا بكرامتها وإنسانيتها ؛ وسيكون عهده عهداً مشرقاً ، مفعماً بالسلام والحرية والطمأنينة ، في عالم تسوده الفضيلة والعدالة والأخلاق .

لماذا لا يظهر المهدي عليه السلام ؟

لقد عمّ الظلم والجور والكفر في كلّ مكان ، والانحراف والفساد في كلّ بقعة ، فلماذا لا يظهر المهدي عليه السلام وينقذ العالم ؟

إنّ انتصار ثورة ما أو تحقيق هدف منشود إنّما يتوقّف على توفر الظروف المناسبة ، فمتى تهيأت الأجواء ومقوّمات النجاح تحقّق الهدف ؛ وإنّ أول مقدمات النجاح في حركة المهدي ونهضته هو وجود المناخ العام المؤيد لثورة المهدي ، إنّ حركة المهدي ليست هامشية أو سطحية ولا حتّى مؤقتة ، إنّها حركة عميقة وشاملة ومتجذّرة وإنسانية تتجاوز فوارق اللغة واللون والعرق والقومية والدين ، هدفها تحرير الإنسان وردّ اعتباره وكرامته المهدورة عبر العصور .

وهدفها اجتثاث الفساد والانحراف والظلم بكلّ أشكاله وألوانه وهداية البشريّة نحو شريعة الله الخالدة التي تحقق للإنسان سعادته الضائعة .

وثورة شاملة عميقة كهذه لا يمكن أن تحدث من لا شيء ، بل ينبغي أن تسبقها إرهاصات تهيّئ الأرضية المناسبة لنجاحها ، وأن يكون هناك تعاطف روحي تامّ من كلّ المستضعفين في العالم ، ولعلّ أهم شرط من شروط النجاح هو العمل الصالح : ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[١] .

والنضج الفكري لا يحدث فجأة . إنّه عملية تبلور تتم ببطء وهدوء ، فالإنسانيّة تتعلّم من تجاربها وترتقي شيئاً فشيئاً سُلّم الرشد والكمال ، ومتى ما وجد الجيل

---

(١) الأنبياء : ١٠٥.

الذي يتجاوز الحدود المصطنعة للون والقومية واللغة، وأصبح تفكيره إنسانياً خالصاً يتعاطف مع المظلومين والمقهورين في كلّ مكان ويعتبر العالم أُسرة واحدة لا فرق بين أسود وأبيض وأصفر وأحمر، ولا امتياز للأمريكي والأوربي على الأفريقي والآسيوي، عندها يكون الظرف مناسباً لظهور الإمام المنقذ.

ومع الأسف فإن الإنسان ما يزال مؤمناً بالعلم وحده، ويعتبره السبيل الوحيد لخلاصه، ما يزال يؤمن أنّ بإمكان الكشوف العلمية والاختراعات أن توفر له السعادة المنشودة والرفاه.

إنّه ما يزال يلهث وراء المادّية نحو إنتاج السلاح الأكثر فتكاً وتدميراً، وسوف يبقى يركض ويلهث حتّى يصطدم بجدار الحقيقة، وعندها سيفيق إلى نفسه ليفكّر تفكيراً سليماً، فالعلم مهما بلغ شأواً لا يمكن أن يحلّ مشكلة ما، إنّه ينبّه لها فقط.

عن هشام بن سالم: عن أبي عبدالله (الصادق) عليه السلام أنّه قال: «**ما يكون هذا الأمر حتّى لا يبقى صنف من الناس إلّا و(قد) ولّوا على الناس حتى لا يقول (قائل): إنّا لو ولّينا لعدلنا ثمّ يقوم القائم بالحقّ والعدل**»(١).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**دولتنا آخر الدول، ولا يبقى أهل بيت لهم دولة إلّا ملكوا قبلنا لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾**(٢)»(٣).

ومن هنا يتّضح أنّ البشريّة ليست مستعدة حالياً لهكذا حركة عالمية وليست لها القناعة الكافية بحكومة التوحيد الإلهية.

إنّ الإنسانيّة تتحرّك في هذا الاتجاه، ولقد أودع الله في الذات البشريّة غريزة

---

(١) الغيبة / النعماني: ٢٧٤، الحديث ٥٢. بحار الأنوار: ٢٤٤/٥٢، الحديث ١١٩.

(٢) الأعراف: ١٢٨. القصص: ٨٣.

(٣) الغيبة / الطوسي: ٤٧٢، الحديث ٤٩٣. بحار الأنوار: ٣٣٢/٥٢، الحديث ٥٨.

السعي نحو الكمال، وسيصل الإنسان إلى هدفه، فهو منذ أن وطأت قدماه الأرض يسعى من أجل تحقيق حياة هانئة مطمئنة وما يزال يرنو نحو غدٍ أفضل ومستقبل مشرق، وما يزال يأمل في تحقيق ذلك اليوم، وعندما يفكّر بطريقة سليمة ويكتشف أنّ قوانين الأرض قد أخفقت وأنها عاجزة عن تحقيق هدف الإنسانيّة، عندها يتّجه نحو السماء مؤمناً بشريعة الله.

علّةٌ أُخرى

وهناك في الروايات ما يُشير إلى سبب آخر يفسّر مسألة تأخير الظهور.

فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: **«كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب كافرين ومنافقين، فلم يكن عليّ عليه السلام يقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلمّا خرجت ظهر على من ظهر فقتله، وكذا قائمنا أهل البيت لن يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله، فإذا خرجت يظهر على من يظهر فيقتله»**[1].

وعندما يظهر الإمام المهدي عليه السلام فإنّه يعلن عن الإسلام عقيدة التوحيد الشاملة وسيؤمن به الكثير من الكافرين.

وهناك مسألة جديرة بالالتفات وهي إنّ الكفر لا يدوم، فكثير من الكفّار خلفوا مؤمنين، وفي تاريخ صدر الإسلام ما يوضّح هذه المسألة حيث نجد المؤمنين المخلصين كانوا من نسل كفّار ومشركين.

ولو قام رسول الله صلى الله عليه وآله بتصفية المشركين جميعاً في فتح مكّة لما خرج من ذرّيتهم كلّ أُولئك المسلمين.

إنّ من لطف الله وحلمه أن ترك الإنسان وشأنه حتّى يتوالد عبر الزمن ويظهر جيل

---

(١) تفسير القمّي: ٣١٦/٢ و ٣١٧. إثبات الهداة: ١٠٥/٧، الحديث ٥٧٩.

مؤمن بالله ، وعندها يكون الظرف مناسباً لظهور الإمام ونجاح ثورته .

زمن الظهور

كيف يشخص الإمام زمن الظهور ؟ هل هناك وحي من الله فيتحوّل الإمـام إلى نبي ؟ !

تشير الأحاديث والروايات ، وكذا أدلّة الإمامة إلى أن للإمام ارتباطاً بعالم الغيب ، وأنّه يكتسب الحقائق وقت الضرورة ، كما تشير بعض الروايات إلى أنّه يسمع صوت الملك دون رؤيته[١] .

ومن هنا فمن المحتمل أن يعلم الإمام وقت الظهور عن طريق الإلهام الإلهي .

عن المفضل بن عمر ، عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** ﴾[٢] قال : « **إنّ منّا إماماً مظفراً مستتراً ، فإذا أراد الله إظهار أمره نكت في قلبه نكتة فظهر فقام بأمر الله تبارك وتعالى** »[٣] .

تشـير الأحـاديث إلى أنّ الإمـام سـوف يشكّـل دولة عـالمية تشـمل الغـرب والشرق[٤] . وأن الإمام هو المسؤول الأعلى في إدارتها ، وسوف يعيّن لإدارة هذه المساحات الشاسعة ولاة يتّصلون به مباشرة يسمعونه ويرونه ويتحدّثون إليه .

وفي عهده تغمر العدالة كلّ الأرض ، ويعيش العالم في سلام ومحبّة ، يـعطف بعضهم على الآخر ، ويعمّ الأمن والسلام العالم بأسره ، وتزول كلّ مظاهر العدوان

---

(١) الكافي : ٢٧١/١ .

(٢) المدّثّر ٧٤ : ٨ .

(٣) كمال الدين : ٣٤٩/٢ ، الحديث ٤٢ . الغيبة / النعماني : ١٩٣ ، الحديث ٤٠ . إثبات الهداة : ٣٦٤/٦ .

(٤) دلائل الإمامة / الطبري محمّد بن جرير : ٢٤٩ ط . النجف / ١٣٦٩ هـ .

وروح السيطرة فلا يفكّر أحد بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين ، ويحدث في عهده انتعاش اقتصادي هائل حتى لا يبقى فقير يستحق الزكاة .

وتزدهر الأرض بخضرتها ، وتنزل السماء غيثها ، وتتضاعف بركات الله ، ويعود الخلق إلى بارئهم وهم أكثر إيماناً ، فيهجرون الآثام والمعاصي ، ويصبح الإسلام ديناً للجميع ، ويرتفع نداء التوحيد في بقاع الدنيا .

وفي عهد الإمام يصل الإنسان إلى درجة من النضج العقلي كبيرة حتى أنّ النسوة يتمكّنّ من القضاء وهنّ في منازلهن ، كما روي ذلك عن الإمام الباقر عليه السلام[1] .

انتصار الأنبياء عليهم السلام

سوف يحقّق المهدي أحلام كلّ الأنبياء بما في ذلك سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله ، ويتوّج جهودهم في إصلاح العالم ، وتأسيس دولة عالمية ، واجتثاث الظلم والفساد من الجذور .

إنّ هداية الإنسانيّة وتطبيق الشرائع الإلهية في الحياة هو غاية الأنبياء جميعاً ، ولقد كان سعي كلّ نبيّ ورسول في هذا الطريق الطويل ، وبذل كلّ منهم ما وسعه من جهد ووقت في سبيل ذلك .

ومن هنا فإنّ كلّ ما مضى من النبوّات والرسالات هو خطى في الطريق ، فقد كان همّ الأنبياء هو هداية البشر جميعاً نحو الغاية الكبرى والوحيدة في تحقيق شريعة الله في أرضه وإنقاذ الناس جميعاً من براثن الظلم والفساد والانحراف .

ولولا تلك الجهود المضنية والتضحيات العظيمة والدماء والدموع والآلام ، ما أمكن للمهدي أن يُحقّق حلم البشريّة في حياة آمنة مطمئنة .

---

(١) الغيبة / النعماني : ٢٣٨ و ٢٣٩ ، الحديث ٣٠. بحار الأنوار : ٣٥٢/٥٢ ، الحديث ١٠٦ .

إنّ انتصار المهدي سيكون تجسيداً لانتصار الأنبياء وتحقيقاً لأهدافهم الخالدة.

ويمكن القول أنّ الرسالات كانت خطى مشرقة في تمهيد الأرضية المناسبة لبناء صرح العدالة الإلهية، وكانت الرسالة الإسلامية آخر خطوة في هذا الطريق؛ فالإسلام العظيم ينطوي على برنامج إصلاحي تام توارثه الأئمّة من آل الرسول ﷺ أمانةً وحفظاً، حتى إذا ظهر المهدي يكون العالم قد تهيّأ لليوم الموعود يوم يكون الدين كلّه لله.

وستتهاوى كلُّ حصون الجبابرة أمام دعوة الله وتتحقّق أحلام الإنسانيّة في الحياة الطيّبة، ويتحقّق وعد الله الذي وعد به عباده الصالحين:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١).

الشرع الجديد

في أدبيات هذه القضية إنّ المهدي عندما يظهر فإنّه يأتي بشريعة جديدة تنسخ أحكام الإسلام. ما مدى صحّة ذلك؟!

إنّ منشأ هذا التصوّر إنّما يعود إلى بعض الأحاديث التي نجد من المناسب توضيح مراميها.

روى عبدالله بن عطاء، عن الصادق عليه السلام، قال: «سألته عن سيرة المهدي كيف؟

قال: **يصنع ما صنع رسول الله ﷺ يهدم ما كان قبله كما هدم رسول الله ﷺ أمر الجاهلية، ويستأنف الإسلام جديداً**»(٢).

وعن الصادق عليه السلام، قال: «**إذا خرج القائم عليه السلام جاء بأمرٍ جديد كما دعا رسول**

---

(١) الأنبياء: ١٠٥.

(٢) الغيبة / النعماني: ٢٣٠، الحديث ١٣. بحار الأنوار: ٣٥٢/٥٢، الحديث ١٠٨.

الله ﷺ في بدء الإسلام إلى أمر جديد »[١].

وعن الباقر عليه السلام : « **إذا خرج عليه السلام يقوم بأمرٍ جديد ، وكتاب جديد ، وسنّة جديدة ، وقضاء جديد على العرب شديد ، وليس شأنه إلاّ القتل ، لا يستبقي أحداً ، ولا تأخذه في الله لومة لائم** »[٢].

سيرة المهدي عليه السلام

وهنا عدد من الأحاديث تدلّ على أنّ سيرة المهدي ستكون استمراراً لسيرة جدّه وامتداداً لها ، وهذه أمثلة :

- عن أبي سعيد الخدري ، قال رسول الله ﷺ : « **يخرج رجل من أهل بيتي ، ويعمل بسنّتي** »[٣].

- وقال ﷺ : « **القائم من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، وشمائله شمائلي ، وسنّته سنّتي ، يُقيم الناس على طاعتي وشريعتي ، ويدعوهم إلى كتاب ربّي** »[٤].

- وعنه ﷺ أيضاً في حديث : « .. **وإنّ الثاني عشر من ولدي يغيب حتى لا يُرى ، ويأتي على أُمّتي بزمن لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه ، ولا من القرآن إلّا رسمه؛ فحينئذٍ يأذن الله تبارك وتعالى له بالخروج فيظهر الله الإسلام به ويجدّده** »[٥].

---

(١) الإرشاد / المفيد : ٣٦٤. الغيبة / الطوسي : ٤٧٣ ، الحديث ٤٩٤. إثبات الهداة : ١١٠/٧ ، الحديث ٥٩٦.

(٢) الغيبة / النعماني : ٢٥٤ ، الحديث ١٣. إثبات الهداة : ٨٣/٧ ، الحديث ٥٢١. معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام : ٢٥٤/٣ ، الحديث ٧٨٣.

(٣) كشف الغمّة : ٤٧٢/٢. بحار الأنوار : ٨٢/٥١.

(٤) إعلام الورى : ٣٩٩. إثبات الهداة : ٥٢/٧ ، الحديث ٤٢٦.

(٥) كفاية الأثر : ١٥. منتخب الأثر : ٩٨.

وعنه ﷺ: «**المهدي رجل من عترتي، يقاتل على سنّتي كما قاتلت أنا على الوحي**»(١).

وما نشاهد من خلال الأحاديث المذكورة استمرار للإسلام ولسيرة النبيّ ﷺ، وأنّ مهمة الإمام ستكون نشر الشريعة، وإعلاء شأن القرآن، وإحياء سنّة الرسول ﷺ.

فإذا كان ثمّة غموض في الطائفة الأُولى من الأحاديث فإنّه سيزول في ضوء الطائفة الثانية. وعندها سيكون فهمنا كالتالي:

خلال هذا التاريخ الطويل هناك كمّ متراكم من البدع والضلالات والأفكار الخاطئة، تؤثّر سلباً في تفسير القرآن وفهم الأحكام الإلهية، وأنّ المهدي في ظهوره سوف يزيل كلّ الشكوك ويطهّر الشريعة من كلّ الانحرافات والبدع، وسيكون تطبيق الشريعة الإلهية كما أنزلها الله لا كما يفهمها البعض بشكل ناقص أو مغلوط.

عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**إذا قام القائم عليه السلام سار بسيرة رسول الله ﷺ إلّا أنّه يبيّن آثار محمّد ﷺ**»(٢).

وعن الفضل بن يسار، قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **إنّ قائمنا إذا قام استقبل من جهل الناس أشدّ ممّا استقبله رسول الله من جهّال الجاهلية.**

قلت: وكيف ذاك؟

قال: **إنّ رسول الله ﷺ أتى الناس وهم يعبدون الحجارة والصخور والعيدان والخشب المنحوتة، وإنّ قائمنا إذا قام أتى الناس وكلّهم يتأوّل عليه كتاب الله ويحتجّ**

---

(١) عقد الدرر: ١٦ و ١٧. عرف السيوطي (الحاوي): ٧٤/٢. ينابيع المودّة: ١٧٩/٢. معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ٢٢٤/١، الحديث ١٣٦.

(٢) الغيبة / النعماني: ١٦٨، الحديث ٥. بحار الأنوار: ٣٤٧/٥٢، الحديث ٩٧. معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ٢٤٠/٣، الحديث ٧٦٩.

عليه به.

ثمّ قال: **أما والله ليدخلنّ عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحَرّ والقرّ**»[(١)].

حركة جديدة

الذين تركوا جوهر الدين واكتفوا بالقشور فقط، فلا يعرفون عن الإسلام سوى طقوس معدودة تنحصر في الصوم والصلاة، والذين حبسوا الإسلام في المساجد فإذا غادروها إلى دنيا الله انمحت من حياتهم أحكام الإسلام، فهم يمارسون حياتهم كما يشاءون لا كما يشاء الله سبحانه وتعالى؛ لا ينكرون منكراً ولا يأمرون بمعروف، بل يتعدون ذلك إلى انتهاك حرمات الله بوسائل ماكرة تحت ستار التأويل، فيمتنعون عن أداء ما أوجب الله عليهم، ويفسّرون الدين في ضوء أهوائهم وما تريده أمزجتهم ويكتفون من القرآن بحسن تلاوته وجمال تجويده؛ إنّ هؤلاء وأُولئك سوف يصطدمون بحركة المهدي وتصدمهم دعوته. لأنّه يدعوهم إلى اللبّ لا إلى القشور، يدعوهم إلى الجوهر لا الشكل الظاهر الفارغ.

سوف يقول لهم: تدبّروا القرآن إنّه ليس للتلاوة فقط، إنّه شريعة في الحياة وقانون في الأرض.

لم يقتل الحسين من أجل البكاء وإقامة المناحات. لقد استشهد من أجل هدف كبير.. فلا تضيّعوا أهداف الحسين عليه السلام.

إنّ أحكام الله هي قانون في الحياة، وعلى الإنسان فرداً وجماعةً أنْ يمثّل شرع الله في قوله وفعله ونواياه، وإنّنا مهما تمسّكنا بالصلاة والصيام لا يسقط عن عاتقنا أداء الواجبات الأُخرى، وإنّ النوح على الحسين عليه السلام يوم عاشوراء لن يوفّر الخبز

---

(١) الغيبة / النعماني: ٣٠٧، الحديث ١. إثبات الهداة: ٨٦/٧، الحديث ٥٢٩. معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام: ٥٠٠/٣، الحديث ١٠٧٢.

للجائعين ولا الكساء للعراة، ولن يدفع الظلم عن المقهورين.

لا تحاولوا الالتفاف على شريعة الله.

لا تسعوا إلى تحليل الربا والغشّ بوسائل المكر والحيل الشرعية، ولا تقصروا خشوعكم وإيمانكم في المساجد فقط..

فالإسلام منهاج عمل وأُسلوب حياة. إنّ عظمة الإسلام لا تكمن في زخرفة المساجد وشموخ المنائر... وربما يتصوّر البعض أنّ المهدي عندما يظهر سوف يقرّهم على أعمالهم وأفكارهم، وقد ينصرف معهم إلى زاوية في المسجد يعبد الله وينزّهه!! كلّا إنّ حركة الإمام المهدي عليه السلام هي حركة من أجل العدالة والنموّ والسلام.

تم الكتاب و الحمد لله رب العالمين

والصلاة و السلام على محمد و آله الطيبين الطاهرين

المحتويات